سيرة ذاتية: الجزء الرابع

حكايات الواحات

محمد عناني

حكايات الواحات

سيرة ذاتية: الجزء الرابع

تأليف
محمد عناني

هنـــداوي

حكايات الواحات

محمد عناني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ١ ٣٢٢٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور محمد عناني.

المحتويات

تقديم	٧
تصدير	٩
تمهيد	١١
الفصل الأول	١٥
الفصل الثاني	٥٥
الفصل الثالث	٩٥
الفصل الرابع	١٣٩
الفصل الخامس	١٧٩

تقديم

على نحوِ ما أذكر في كتابي «فن الترجمة» — وما فَتِئتُ أُردِّد ذلك في كُتُبي التالية عن الترجمة — يُعد المُترجِم مُؤلِّفًا من الناحية اللغوية، ومن ثَمَّ من الناحية الفكرية. فالترجمة في جوهرها إعادةُ صَوغٍ لفكرِ مُؤلِّفٍ مُعين بألفاظِ لغةٍ أخرى، وهو ما يعني أن المترجم يَستوعب هذا الفكرَ حتى يُصبح جزءًا من جهاز تفكيره، وذلك في صورٍ تتفاوَت من مُترجِمٍ إلى آخر، فإذا أعاد صياغة هذا الفكر بلُغةٍ أخرى، وجدْنا أنه يَتوسَّل بما سمَّيتُه جهازَ تفكيره، فيُصبح مُرتبطًا بهذا الجهاز. وليس الجهاز لغويًّا فقط، بل هو فكريٌّ ولغوي، فما اللغة إلَّا التجسيد للفكر، وهو تجسيدٌ محكوم بمفهوم المُترجِم للنص المَصدَر، ومن الطبيعي أن يتفاوت المفهوم وفقًا لخبرة المُترجِم فكريًّا ولغويًّا. وهكذا فحين يبدأ المُترجِم كتابةَ نصِّه المُترجَم، فإنه يُصبح ثمرةً لما كتبه المؤلِّف الأصلي إلى جانبِ مفهوم المُترجِم الذي يَكتسي لغتَه الخاصة، ومن ثَم يَتلوَّن إلى حدٍّ ما بفكره الخاص، بحيث يُصبح النص الجديد مزيجًا من النصِّ المَصدَر والكساءِ الفكري واللغوي للمُترجِم، بمعنى أن النص المُترجَم يُفصِح عن عملِ كاتبَين؛ الكاتب الأول (أي صاحب النص المَصدَر)، والكاتب الثاني (أي المُترجِم).

وإذا كان المُترجِم يكتسِب أبعادَ المُؤلِّف بوضوحٍ في ترجمة النصوص الأدبية، فهو يكتسب بعضَ تلك الأبعاد حين يُترجِم النصوصَ العلمية، مهما اجتهد في ابتعاده عن فكره الخاص ولُغته الخاصة. وتتفاوت تلك الأبعاد بتفاوُت حظِّ المُترجِم من لغة العصر وفكره، فلكل عصرٍ لغتُه الشائعة، ولكل مجالٍ علمي لُغتُه الخاصة؛ ولذلك تتفاوت أيضًا أساليبُ المُترجِم ما بين عصرٍ وعصر، مِثلما تتفاوَت بين ترجمة النصوص الأدبية والعلمية.

وليس أدل على ذلك من مقارنةِ أسلوب الكاتب حين يُؤلِّف نصًّا أصليًّا، بأسلوبه حين يُترجِم نصًّا لمُؤلِّفٍ أجنبي، فالأسلوبان يتلاقَيان على الورق مِثلما يتلاقيان في الفكر.

فلكُلِّ مُؤلِّف، سواءٌ كان مُترجِمًا أو أديبًا، طرائقُ أسلوبيةٌ يعرفها القارئ حَدْسًا، ويعرفها الدارس بالفحص والتمحيص؛ ولذلك تَقترن بعض النصوص الأدبية بأسماء مُترجِميها مِثلما تقترن بأسماء الأدباء الذين كتبوها، ولقد تَوسَّعتُ في عرْض هذا القول في كُتبي عن الترجمة والمُقدِّمات التي كتبتُها لترجماتي الأدبية. وهكذا فقد يجِد الكاتب أنه يقول قولًا مُستمَدًّا من ترجمةٍ مُعيَّنة، وهو يَتصوَّر أنه قولٌ أصيل ابتدعَه كاتبُ النص المَصدَر. فإذا شاع هذا القول في النصوص المكتوبة أصبح ينتمي إلى اللغة الهدف (أيْ لغة الترجمة) مِثلما ينتمي إلى لغة الكاتب التي يُبدِعها ويراها قائمةً في جهاز تفكيره. وكثيرًا ما تَتسرَّب بعض هذه الأقوال إلى اللغة الدارجة فتحلُّ محلَّ تعابيرَ فُصحى قديمة، مثل تعبير «على جثتي over my dead body» الذي دخل إلى العامية المصرية، بحيث حلَّ حلولًا كاملًا محلَّ التعبير الكلاسيكي «الموت دونه» (الوارد في شِعر أبي فراس الحمداني)؛ وذلك لأن السامع يجد فيه معنًى مختلفًا لا ينقله التعبير الكلاسيكي الأصلي، وقد يُعدِّل هذا التعبير بقوله «ولو متُّ دونه»، لكنه يجد أن العبارة الأجنبية أفصح وأصلح! وقد ينقل المُترجِم تعبيرًا أجنبيًّا ويُشِيعه، وبعد زمنٍ يتغير معناه، مثل «لَمن تُدَقُّ الأجراس» for whom the bell tolls؛ فالأصل معناه أن الهلاك قريبٌ من سامعه (It tolls for thee)، حسبما ورد في شِعر الشاعر «جون دَنْ»، ولكننا نجد التعبيرَ الآن في الصحف بمعنى «آنَ أوانُ الجد» (المستعار من خُطبة الحجَّاج حين وَلِي العراق):

آنَ أوانُ الجدِّ فَاشْتَدِّي زِيَمْ قد لَفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَمْ
ليسَ براعي إِبلٍ ولا غَنَمْ ولا بجزَّارٍ على ظهر وَضَمْ

فانظر كيف أدَّت ترجمةُ الصورة الشعرية إلى تعبيرٍ عربي يختلف معناه، ويَحلُّ محلَّ التعبير القديم (زِيَمْ اسم الفرس، وحُطَمْ أي شديد البأس، ووَضَمْ هي «القُرْمة» الخشبية التي يَقطع الجزَّار عليها اللَّحم)، وأعتقد أن من يُقارِن ترجماتي بما كتبتُه من شِعر أو مسرح أو رواية سوف يكتشف أن العلاقة بين الترجمة والتأليف أوضح من أن تحتاج إلى الإسهاب.

محمد عناني
القاهرة، ٢٠٢١م

تصدير

هذا هو الجزء الرابع من واحات العمر، وهو يَختلف عن الأجزاء الثلاثة الأولى من السيرة الذاتية الأدبية في أنه لا يتضمَّن رصدًا لأحداث الحياة الأدبية أو غيرها، بل يتناول قصصًا أو حكايات بالغة التنوع، أدبية وغير أدبية، ساهمت في تكوين بعض خيوط الأفكار الأساسية التي نُسجت منها تلك السيرة، وقد قسمتُها إلى خمسة فصول يتداخَل بعضها في بعض؛ فالأول يتناول مفهوم «الأقنعة» وتغلغله في حياتنا، والثاني يتناول خيطًا آخر هو التفكير بمنطق «الأبيض والأسود»، والثالث فكرة «الدائرة» وتداعياتها على عدة مستويات، والرابع معنى «الوعي» — سلبًا وإيجابًا — والخامس معاني «القوة» والفرق بينها وبين «القدرة»، وهي خيوط تَنبع إذن من الحكايات، أو قل إن الحكايات المتشابكة هي التي أوحت بها؛ ومن ثم فهي متشابكة مثلها، ولذلك فإن التقسيم يبدو تعسُّفيًّا إلى حدٍّ ما؛ فالحكايات يمكن تفسيرها في إطار أيٍّ من هذه الخيوط الفكرية، ويضمُّ النسيج العام إطارٌ أدبي لم أتبيَّنه إلا آخر الأمر، وهو مدى انشغالي بالشعر الرومانسي، وخصوصًا بالشاعر وليم وردزورث الذي كتب سيرته الذاتية شعرًا، وكتب قصيدة «خاطرات الخلود» قُبَيْل تلك السيرة وبُعَيْدها، ولقد ترجمت منها فقرات عديدة قد تستطيع أن تقول ما لم أقدر على قوله ثم أدرجت النص الكامل أخيرًا.

ومن الطبيعي في مثل هذه الحكايات ألا تلتزم بتسلسُل زمني، فإن لها منطقها الخاص، وبعضها يبدأ قبل الحدِّ الزمني **لواحات العمر** ويَنتهي بعده، وبعضها له «أبطاله» الذين يعيشون بيننا، وكان من الطبيعي إذن أن أُخفي أسماء البعض أو أبدلها أو أبتسرها كي لا أَمَسَّ «سمعة» أيٍّ منهم، فالهدف من روايتها هو المعنى لا الحدث نفسه.

وبعدُ، فأرجو أن يجد القارئ في الحكايات بعض التسرية، وبعض الأفكار، فهذا جل ما يتمنَّاه الكاتب.

والله من وراء القصد!

محمد عناني
القاهرة في ٢٠٠٢م

تمهيد

الزمن لا يتوقف، والدائرة صورة الخلود، والخلود في الأرض وهم، ولكننا ندور في دوائر، ونستقي من الدائرة معنى الاستمرار، فعندما يعود الربيع يُشرق الأمل من جديد في كل نفس، وعندما يُصبح الصباح يصحو الأمل، ونتطلع إلى تباشير النور في الشرق فنَشهد ميلاد الغد الذي أصبح يومًا جديدًا، ولكنَّنا لا نطرح مع الأمس الذاهب أثقاله، ولا نتحرر من قيود الزمن أبدًا، بل نُواجه المستقبل بقلب الماضي وروحه، فما يكاد الإنسان ينتبه من غفوته ويُصلِّي لله شكرًا على نعمة الحياة واستقبال يوم جديد حتى يُواجه الماضي من حوله وفي نفسه، وهو الماضي الذي يحمل صورة ما كنا عليه وما نرغب أن نظلَّ عليه، غير واعين بأننا قد تغيَّرنا، بدنًا ونفسًا، فنحن نريد الاستمرار، مدفوعين بطاقة لا نَدري كنهها، فنقاوم التغيير في كل ما حولنا وفي نفوسنا، ونُحاول وَصْلَ ما انقطع، وما أندر من يدركون أن ذلك محال؛ إذ تصبح طاقة النفس أكبر من طاقة البدن، ويصعب على المرء أن يقبل ما صار إليه من ضعف ووهن، فيذكر ما فات ومات، ويتأسَّى على ما مضى وانقضى، ويحسد الشباب على ما أوتوه من قوة، وقد يسترجع البعض صورًا من الماضي يتسرَّى بها ويتلهَّى، وقد يجد في الأجيال الجديدة صورًا لما كانه يومًا ما، وقد يندم أحدهم على ما أنفق في حياة أصبحت خاوية على عروشها، وقد يتمنَّى غيره أن يرجع فيعمل صالحًا، وقد يجد أن نفسه تتنازعها قوى الماضي والحاضر، وبعضها قوى وهمية أو صور زائفة، تغيرت في ذاته على مرِّ الزمن، وإن ظل بعضها واضح المعالم جليَّ القسمات، بارز الخطوط حافلًا بأدق اللمحات، وقد تقتضي زيارة هذه الواحات الزمنية بذل جهد لا يقوى عليه الكثيرون؛ إذ ما أكثر ما تتغيَّر صورها وتتبدل داخل النفس، وما أكثر ما يَعتورُها من نقص وما يضاف إليها من معانٍ، ولكن الزيارة تُؤكِّد لمن أشرف على نهاية

المضمار وطال الشوط الذي قطعه أن الزمن واحد وأن القطار لا يتوقَّف عن المسير مطلقًا وأبدًا، فكأنما يسير في دائرة هي السرمد أو الخلود.

وكنتُ حاولت في زياراتي السابقة **لواحات العمر** في مصر أولًا وفي **الغربة** ثانيًا ثم في **مصر** أخيرًا أن أنقل إلى القارئ هذا الإحساس بالاستمرار، مُهتديًا بقول القائل إن صورة الإنسان لنفسه محض ذكرى — أو كما قال الشاعر وردزورث:

(Yet each man is a memory to himself)
(**The Prelude**, 1805, iii, 189)

فوجدت أن ذكرياتي هي ذكريات جيل كامل من الأساتذة الذين أعقبوا جيل الرواد في دراسة الآداب والفنون، وتهيَّأ لهم ما لم يتهيَّأ لأسلافهم من معارف جديدة، وعلوم وفنون حديثة، مع التوسع هنا في معنى الجيل بحيث لا يَقتصِر على الحدود الزمنية، فبعض أفرادِه ولدوا في الثلاثينيات والبعض في الأربعينيات من القرن العشرين، والجيل الذي سبَقَنا ولد بعض أفراده في العقد الثاني والبعض في العقد الثالث، وأما الرواد فكلُّهم ممَّن ولدوا في القرن التاسع عشر. كما رأيت أن ما رويته قد مسَّ عصبًا عاريًا — كما يقولون — في نفوس بعض أبناء جيلي، وتقبله أبناء الجيل الجديد (مع التوسُّع في معنى هذا الجيل أيضًا) بقَبول حسن، وأحسست مما كتبتْه الصحف عن الأجزاء الأولى أن **السيرة الأدبية** التي قصدت إليها قد تحوَّلت في عيون الكثيرين إلى صورة أدبية **لسيرة ذاتية**، والفرق واضح بين النوعين الأدبيين، وقد يكون النقاد على حق، واحتمال الاختلاط قائم، وغدا البعض يَسألني كيف تتجاهَل رواية كذا وكذا في عام كذا وشهر كذا، وهي من الأحداث المهمة لك ولجيلك، أو كيف تُهمل الإشارة إلى ما يهمُّ الجيل الجديد من دروس في حرفة الأدب التي فضلتها مثلًا على تعاطي الطب وهي مِهنة أبناء أسرتك وأصهارها (الجارم وبدر الدين)؟ بل إن أقرب أصدقائي إلى قلبي لم يجدوا في السيرة الأدبية بعض الواحات التي نعموا فيها أو شقوا بالعيش معي، ولامَني البعض على التوقُّف عند سن التقاعد (المعاش) الذي وصفته بأنه نهاية «العمر الرسمي» في مصر، فوجدتني بعد أن توقفت أرجع إلى تلك المسيرة الطويلة الحافلة، ووجدتُني أعود لزيارة واحات هجرتها فيما هجرتُ من سوالف الأيام، والتطلُّع إلى «واحات» ما تزال نابضة الحياة، بعضها قصص اكتملت وبعدها قصص ناقصة، ولكنها لوحات أجد فيها التأسِّي لما أنا فيه، ولما نحن فيه، بعد أن تغيَّر العالم حتى ما نكاد نعرفه — نحن أبناء هذا الجيل — بل ونكاد نُنكره.

ولن أتقيَّد في رسم هذه اللوحات الحية أبدًا — أو في حكاية هذه الحكايات — بسياق زمني، بل سأتنقَّل بحرية بين الماضي والحاضر، ضاربًا في دروب الزمن ما شاء الله لي أن أضرب، مُهتديًا بالصور التي لا تزال تعيش في وجداني ووجدان الكثيرين من أبناء جيلي، ساردًا لأحداث تَغيَّر معناها أو تأكَّد على مرِّ السنين، ولكنها لوحات مُعاصِرة لأنها تحيا في الوعي، وقد يُظنُّ هنا أنني من أتباع هوسرل (Husserl) الفيلسوف الألماني الذي يجعل الوعي مسرحًا لكلِّ شيء، وكل ما **يظهر** فيه هو الحقيقة؛ ومن ثمَّ أطلق على مذهبه اسم الظاهراتية (Phenomenology) (وهي عكس الظاهرية) (Phenomenalism) ولكنني لا أنشد إلا الزمن وما يَفعله الزمن بالإنسان، فذلك مدار حديثي بالأمس واليوم.

الفصل الأول

١

أستأنفُ الحديث الذي توقَّف في **واحات العمر**، فأقول إنَّ الغربة التي أحسَستُها بعد تجاوز خط «العمر الرسمي» داخل مقرِّ عملي كشفت لي عن طبيعة منطق القوة الذي يسود تفكير قطاع كبير من أبناء مصر، وخصوصًا مَن يعملون في مؤسسات الدولة أو الحكومة، والقوة هنا قد تَعني السُّلطة بأيِّ شكلٍ من أشكالها وخصوصًا قدرة المرء على التحكُّم في غيره من البشر، وهو ما نجده هنا في صورة الرئيس والمرءوس، أكثر مما نَجده في أي صورة أخرى من صور القوة المعروفة في العالم المتقدم، مادية كانت أم معنوية، خصوصًا قوى العلم والخبرة أو الحكمة أو الرأي وحتى المكانة الأدبية بل والاجتماعية، فموظَّف الحكومة في مصر يؤمن بما نُسمِّيه «الكرسي» إيمانه بالحياة، فإذا فقد «الكرسي» تحوَّل إلى شبح يتحرَّك بين الناس فلا يراه أحد، وقد تَلمح في عينيه نظرات حزن دفين أو دهشة خبيئة من تحول مواقف أقرانه ورؤسائه ومَرءوسيه، فلقد أنشأنا نظامًا للإدارة الحكومية (civil service) نكاد نتفرَّد به بين دول العالم، والحمد لله أننا تنبَّهنا أخيرًا لمخاطره، بعد أن تحوَّل جميع المتعلِّمين يومًا ما إلى موظَّفين في تلك الإدارة، حتى الفنانين والصحفيين والعاملين في قطاعات الإنتاج الزراعي والصناعي، فإذا بلَغ أحد منهم سنَّ التقاعُد خرج من الوظيفة فتنكر له الجميع، وربما وجد في نفسه طاقات جديدة أو لم يجد، وهو ما صوَّره نجيب محفوظ تصويرًا بديعًا في إحدى قصصه القصار، وما فسَّره يوسف إدريس — رحمه الله — تفسيرًا مُقنعًا في ضوء التاريخ المصري الذي طالما تعرض فيه أبناء مصر للقهر، فالقهر يولِّد في النفس نزوعًا إلى ممارسة قهر مُماثل مع آخرين، كالفعل ورد الفعل الطبيعي، أو كالحلقات في السلسلة التي يأخذ بعضها برقاب

بعض، فتجد الخانع لرئيسه قاهرًا لمرءوسيه، في سلَّم مُنتظِم يهبط بالقهر من القمة إلى القاعدة ويصعد بالخنوع من القاعدة إلى القمة، وإذا لم يجد المرءوس من يليه في مَراتب السلطة حتى يقهره مارس قهرَه على أفراد أسرته فولَّد في نفوسِهم منذ الطفولة الإحساس نفسه، وقد يكون لذلك تفسيره الجغرافي الذي أبدعه جمال حمدان؛ أي إن مركزية المكان ولَّدت مركزية السلطة التي تمثَّلت في الفرعون الذي يقدسه أبناء الشعب، بل قد يكون له تفسيرات أخرى أو تفسيرات تجمع بين هذه العوامل المختلفة بدرجات مُتفاوتة، ولكن خبرتي الشخصية أكَّدت لي أنه حتى في الجامعة محراب العلم والتعليم لا نجد المصري الذي يَتقاضى راتبه من الدولة (والدولة تُرادف الحكومة عندنا) إلا مُوظَّفًا يخاف الرئيس ويقهر المرءوس، ولقد ساعَدَني على اجتياز تلك المحنة اضطراري للتغيُّب أسابيع مُتواصِلة عن الجامعة بسبب جراحة العين التي أجريتها في أواخر عام ١٩٩٩م، وكان يُبلغني بعض تلاميذي المخلصين ممن أصبحوا أساتذة بما يحدث في غيابي، وحتى عندما كنت أحضر جلسات مجلس القسم، وهو المجلس الوحيد الذي كنت أحضر جلساته بعد انقضاء فترة رئاستي، كنت أجد من لم يكن يجرؤ على «الإفتاء» في العلم وقد أصبح عالي الصوت زاعق النبرة، بغضِّ النظر عن إحاطته بالموضوع أو علاقة ما يقوله بما هو مطروح، كأنما هو طفل يُحاول بصوته أن يُثبت وجوده في الأسرة، أو مُراهِق يُحاول بالمعارضة تأكيد تخطيه للطفولة ودخوله «عملية التفرد»، وهو تعبير عالم النفس كارل جوستاف يونج؛ أي individuation process، وهي «العملية» التي يمر بها اليافع قبل بلوغ الشباب!

لكنني وجدت تفسيرًا آخر فيما قالته لي الدكتورة هدى وصفي ذات يوم، الأستاذة التي تَشغل مركزًا أدبيًّا مرموقًا، كما تتولى الآن (٢٠٠٢م) رئاسة تحرير مجلة فصول — مجلة النقد الأدبي — وكنتُ معها ذات يوم من شتاء عام ١٩٨٤م في غرفة عميد المعهد العالي للفنون المسرحية حين تناقشنا في مهمة التدريس ووظيفة المعلم؛ إذ قالت بصراحتها المعهودة: «المُعلِّم في قاعة الدرس ملك متوج! فهو يقول ما يريد ويتمتع بسُلطته العلمية كاملة لا ينازعه فيها أحد!» قالت ذلك بتلقائية وبساطة كأنها تدلي بملاحظة عن الجو أو حالة المرور! ولكن عمق تلك الملاحظة دفعني إلى التفكير في طبيعة عملنا بالتدريس وما يترتَّب على تلك السُّلطة المطلقة من الآثار في نفس (أو في «نفسية») المعلِّم! فقديمًا قال اللورد أكتون: إنَّ السلطة فساد، والسُّلطة المطلقة فساد مطلق؛ أي:

Power corrupts: absolute power corrupts absolutely

وها نحن نجد السلطة وقد أصبحت مُطلَقة، وزاد من ذلك تلك العزلة التي يستشعرُها أساتذة اللغات الأجنبية في جامعاتنا؛ فقد يقول المعلم كلامًا يختلف الطالب معه، ولكنه لا

يستطيع مُحاجَّته لضعف آلته اللغوية، الأمر الذي قد يشجع المعلم على التمادي في إضفاء صورة العلم على «الرأي» (أو وجهة «النظر») فيتحوَّل ما يراه إلى حقيقة، وأما إذا كان الطالب قادرًا على مُقارعة الحجة بالحجة ولديه من البراهين ما يُثبت به خطل رأي المعلم، خصوصًا في مجال العلوم الإنسانية، والأدب بصفة خاصة، فإنَّ «هيبة» الأستاذ قد تَصدُّه وقد «تقهره»! بل قد يَقعد به خوفٌ أدنى منزلةً في مجال المعرفة الإنسانية، وهو الخوف من اتهام الأستاذ إياه بالغباء أو الجهل أو بهما معًا! والعُزلة التي يعيش فيها أساتذة اللغات الأجنبية تتعمق في كل يوم بانقطاعهم عن مسايرة حركة المجتمع الأدبية والنقدية، إما لجهلهم بها أو لتعاليهم عليها أو للسببَين معًا، كما أن بعضَهم قد يحتمي بسياج من الكلمات الأجنبية التي تضمن له انقطاع التواصُل مع تلك الحركة، بل ومع المجتمع نفسه، فيظن من حوله ممن لا يفهمون ما يقول أنه يَحمل في عقله جِماعَ الحكمة وعلوم الغرب المتقدم، وما هو إلا دارس عادي، بل قد يكون حظه من العلم أقل كثيرًا من حظ غيره!

وقد فتحت لي ملاحظة الدكتورة هدى وصفي بابًا واسعًا لتأمُّل وضع مدرس اللغة الأجنبية ودارس الأدب الأجنبي في بلادنا، وتأمُّل ما ينبغي أن تكون عليه مهمَّته في إقامة الجسور بين آداب العربية والآداب العالمية، كما أتاحت لي نظرة جديدة إلى ما يتَّصف به المعلم من «دوجماطيقية»؛ أي من تصلُّب مذهبي، وهو التصلب الذي ينبع من كثرة ترديد آراء قد يكون استقاها من غيره، وقد يكون قد اهتدى إليها بنفسه، ولكن كثرة ترديدِها أمام الطلاب وتصديقهم إيَّاها يكسبها ثوب الحقائق الثابتة التي لا تَقبل الجدال! من هذه مثلًا — وأقولها من باب الطرافة لا غير — ما ذكرته معلِّمة للدراما في عام ٢٠٠١م عن شخصية هاملت، في المسرحية الشيكسبيرية الشهيرة التي تحمل اسم البطل، من أنه يعتبر «مسيحًا» من نوعٍ ما (والتعبير هو a kind of Messiah) فحفظ الطلاب ذلك القول، ولما حان موعد لقاءاتي الدراسية مع الطلاب المُمتازين في الفصل الدراسي الثاني في مطلع عام ٢٠٠٢م، ووجدتهم يُردِّدون هذه المقولة بثقة مطلقة سألتهم عن معناها وعن الروابط التي تربط هاملت بالمسيح أو بأي نبيٍّ أو رسول لم يجدوا (أو لم يجدن — فالجميع إناث) غير البيتين (أو السطرين) الشهيرين:

The time is out of joint! O cursed spite
That ever I was born to set it right!

(I. v. 189)

أي:

انْفَصَمَتْ عُرى الزمانْ! ويا لَهَا من نِقْمَةٍ لعينةٍ قَضَتْ
بمَولدي حتى أُعيدَ وَصْلَ ما انفرطْ!

والمعروف أن هاملت يقول هذين البيتين عندما يعرف أن عمه قد قَتَل أباه وأن الانتقام لَمقتل أبيه أصبح لزامًا عليه؛ أي إنه أصبح مُطالبًا بالأخذ بالثأر وأنه لا بد أن يقتص من القاتل وهو عمه! والواضح أن شيكسبير هنا يصور مأساة فردٍ مُطالَبٍ بأن يَفعل أكثر من طاقته؛ فالبطل — هاملت — طالب في الجامعة؛ أي إنه مثقَّف ومن العسير أن يقبل راضيًا قتل أحد، وشيكسبير يجعله «رجل فكر»؛ فهو مُتردِّد مُتخوِّف يتأمَّل ما وضعه القدر فيه فيُجفل، ويُفكر في الانتحار ثم يعدله عنه، بمعنى أن ساحة الصراع في المسرحية هي نفس البطل لا الزمان، أي أحوال العالم (ونحن نُفرِّق في العربية بين الزمن بمعنى الوقت وبين الزمان بمعنى الحياة الدنيا والناس)؛ ومن ثم صبَّ نُقاد العالم دراساتهم على مسرح الحدث الداخلي في نفس البطل، خصوصًا وشيكسبير يجعله ينطق بروائع الشعر، وفي لحظة غضب يقوم هاملت بقتل الوزير (أو رئيس الوزراء) الذي كان مُختبئًا خلف الستارة ليشهد عتاب البطل لوالدته على زواجها من عمِّه (والشك في مشاركتها في الجريمة) ويتسبَّب موقف هاملت المتردِّد الخائر، وإدانته للنساء جميعًا بسبب ارتيابه في خيانة والدته، في مَقتل أوفيليا حبيبته، ابنة الوزير؛ إذ تُصاب بالجنون وتنتحر، وفي مقتل اثنين من المأجورين أيضًا، وفي النهاية في مقتل أخي أوفيليا في مبارزة، ومقتل أمه وعمِّه ثم مقتله هو نفسه! والخلاصة أن مأساة هاملت فردية، ذهب المُفسِّرون في تفسيرها ألْف مذهب، وزعم البعض أن لها دلالات اجتماعية أو سياسية أو أنها مسرحية قضية، ولكن مثل هذا البطل لا يُمكن أن يصور في صورة مسيح يحمل رسالة الحب والسلام للبشرية كلها، أو في صورة نبيٍّ يهدي الناس إلى طريق الرشاد، وبعد أن قضيت ساعة أو بعض ساعة أناقش الطالبات في المسرحية وأسمح لهنَّ فيها بالحديث بالعربية حتى أزيل حاجز اللغة، اكتشفت أنهن يُكررن فحسب ما سمعنَه من الأستاذة، وأنهن وقعن أسيرات في حب ذلك البطل وأفرغن في ذلك عاطفة المراهقة المتأجِّجة! وقلت في نفسي: لو قرأت تلك الطالبات نص المسرحية أولًا، ثم تُركت لهن الحرية في التوصُّل إلى فهمٍ خاص لها، وفي الاستعانة بدراسات النقاد وآرائهم المختلفة، ما تصوَّرن أن ذلك البطل الذي قتَل الوزير بيده، وتسبَّب في مقتل العديد قبل أن يُقتل هو أيضًا، يمكن أن يكون مسيحًا!

ولقد ذكرت هذه الحادثة «الأكاديمية» من باب الطرافة كما قلت، ولكن وراءها «ملاحظة» الدكتورة هدى وصفي؛ فالمدرس يقول ما يريد، ويكثر من ترديده حتى يُؤمن به فيُصبح «حقيقة» علمية ثابتة في ذهنه، فإذا تأتَّى لك أن تواجهه بغير ذلك فما أسرع ما يَبرز لديه رد الفعل المتوقَّع من أيِّ مُعلم وهو اتهامك بالجهل أو بعدم التخصُّص! وكثيرًا ما كنت أذكر مُحاوراتي مع طلابي الإنجليز، بل ومع أساتذتي الإنجليز، في جامعة رِدِنْج؛ إذ كنا نتطارح الآراء في حرية ونَقبل نقضَها إن بدا أن هناك ما يبرر النقض؛ فالتدريس، خصوصًا في مجال الأدب والنقد الأدبي، ليس تلقينًا بل هو مناقشة لما نقرؤه وتمحيص للآراء النقدية في هذا المجال الذي يتطلَّب الابتعاد عن «الصلابة المذهبية».

كنت أُواجه بعد بلوغ «العمر الرسمي» مُجتمعًا مُغلقًا يستمدُّ أصحابه القوة منه، وقد انقطعت بهم معظم الروابط التي من المفترض أن تربطه بالمجتمع العِلمي في مصر أو في العالم العربي أو في العالم الخارجي، فأما تلميذاتي النابهات فقد كبرنَ وتميَّزن وحقَّقن ذواتهن في نشاط علمي ومجتمعي خارج أسوار الجامعة، ووصلنَ إلى مرحلة النضج الفكري، بل وأصبحت لهنَّ تلميذات نابهات أيضًا، وقليلًا ما كُنَّ يحضرن مجالس القسم أو يشاركن في التيار الجديد الذي اشتدَّ ساعده وقوي، وكان هدفه الواضح هدم بعض ما بَنيت، وكنتُ أنا وماهر شفيق فريد نشعر بمزيد من الاقتراب من بعضنا البعض، وبالمزيد من الابتعاد عن هذا التيار الجديد، وشاركنا عبد العزيز حمودة، وكان ثلاثتنا ممن يشغلون أنفسهم حقًّا بقضايا الثقافة والأدب بين اللغتين العربية والإنجليزية، وكان لكلٍّ منَّا مجاله أو فرعه الذي يحبُّه، لكن أواصر الحب توثقت بيننا وازدادت متانتها ونحن نرقب ما يحدث في إعداد لائحة لكلية الدراسات العليا، المزمع إنشاؤها، خصوصًا مُجاهرة الأعضاء بالعداء لدراسات الترجمة، وهي التي أصبحت تحتل مكانة بارزة في الدراسات الأكاديمية في جامعات العالم، وكانت المعارضة تقوم ظاهريًّا على أُسس «إدارية» وتقوم في الواقع على أساس ضعف الإلمام بالعربية؛ ومن ثم بالترجمة وأهميتها في بلادنا، وكنت أشهد ذلك أحيانًا فأحزن وأنسبه إلى الأقدار! والحمد لله الذي آتاني القدرة على تأمُّل الأحداث والناس بعين الكاتب، وانتهَيت إلى أنه مِن الأسلم لي (ولما أريد أن أفعله) أن أتركهم (أو أتركهن) وأن أشرع أنا في فعل ما أريد!

وليس أدلَّ على العزلة التي أحسستها آنَذاك في مقرِّ عملي من رد فعل الزملاء عندما عُرِضَت مسرحيتي **الدرويش والغازية** في مسرح السلام في مطلع عام ٢٠٠٠م واستمر عرضها ثلاثة أشهر! كان ردُّ الفعل صفرًا! إذ لم يكدْ أحد يذكرها، ناهيك بأن يُحاول

مشاهدتها! لكنني لم أعجب ولم أدهش، وعندما سافرت إلى الخارج بعدها أعددت ترجمة لديوان من الشعر العربي، وكتابًا يضم مختارات من أشعار الشباب المصريين التي ترجمتها إلى الإنجليزية، وطُبع في أمريكا بعنوان أصوات غاضبة، وكتبت مقدمة طويلة لكلٍّ من هذين الديوانين أو الكتابين، كما أعددت كتابين في فنِّ الترجمة نُشرا في أواخر ذلك العام؛ أولهما بالعربية عن التحوُّلات الدلالية بين اللغتين العربية والإنجليزية نشرتْه شركة لونجمان بعنوان **مُرشد المترجم**، والثاني بالإنجليزية عن ترجمة اللغة العربية إلى الإنجليزية بعنوان **مدخل ثقافي إلى الترجمة عن اللغة العربية**

On Translating Arabic: A Cultural Approach

وسوف أتوقَّف هنا عن السرد لأُفصِّل القول فيما أجملته إجمالًا في آخر صفحة من واحات مصرية.

٢

كان لقائي مع «حسن» [المخرج] في عام ٢٠٠٠م لقاءً مُطوَّلًا؛ إذ جمعتنا عدة جلسات في مقهًى بفندق كبير كان ينزل فيه عند زيارته للقاهرة، إما هربًا من معارفه القُدامى أو نشدانًا للسرية، أو تحاشيًا لزوجته السابقة، وكان يقصُّ عليَّ في كل جلسة طرفًا من أحواله بعد أن اطمأنَّ إلى حفاظي على أسراره (وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى عدم الإفصاح عن اسمه الحقيقي صراحةً في هذه الأوراق)، وبعد أن وجد في «تحليلاتي» لما يُكابده بعض العزاء والسلوان.

قال لي «حسن» في أول لقاء بعد الغيبة: «لعلك تذكر البيتين اللذين ذكرتهما لي للشاعر الإنجليزي — صديقك — وليم وردزورث! دعني أردِّدهما لك فهما يصفان حالتي في أمريكا:

We poets in our youth begin in gladness
But thereof come in the end despondency and madness!

[أي:

ويحَنا يا معشر الشعراء إنَّا نستهلُّ العمر بالفرح فتونا،
ثم نَجني ذاك من بعدُ اكتئابًا وجنونا!]

وقال حسن إنك لو أبدلت هناك صفة الشُّعراء بأي صفة مشتركة بيننا نحن الأدباء والفنانين اتَّضح لك حالي، بل وحال الكثيرين ممن توسَّلوا بالفنِّ لاكتساب المال والشهرة ثم انتهى بهم الأمر إلى التيه والحيرة؛ فالفنَّان يجعل من ذاته مركزًا للكون ويتصور أن كثرة تردد اسمه في أجهزة الإعلام قد كفلت له العظمة والخلود، وكلَّما صعد على خشبة المسرح وصفَّق له الجمهور ليلة بعد ليلة ترسخ في نفسه ذلك الإحساس، فإذا سار في الطريق فأشارت إليه الأصابع وابتسمت له الشفاه، تأكَّد أنه قد «وصل»! ولكن ...»

وقلت له إنني أفهم ما يَرمي إليه، وأضفتُ أنه لن يلقى المصير الذي كنت أحدسه لأنه ليس مُمثلًا فحسب بل هو مخرج ومؤلف، فإذا به يفضي إليَّ بما لم أكن أتوقعه قائلًا:

«أنا أقصد زوجتي! فلقد وقفتُ إلى جوارها ودفعتها دفعًا إلى مصاف الكواكب أو النجوم، وإن لم تكن من النجوم الساطعة — وقالها بالإنجليزية (of the first magnitude) — وجنَّدت لها من يَكتب عن عبقريتها فهي ذات موهبة لا شك فيها، وهو ما كلَّفني جهدًا ومالًا، فإذا بها تُطالبني بما ليس في طاقتي وهو أن أكرِّس حياتي لإبراز تلك الموهبة و«بَرْوَزَتها» (من برواز أي إطار المعربة عن الفرنسية) و«تلميع» اسمها! لم يكن ذلك في طاقتي لسببٍ غريب وهو أنني تركت نفسي للحياة تجرفني، فلم أجد غضاضة في التحوُّل من الاشتراكية إلى موجة المد الإسلامية، وكنت في الحالتين مؤمنًا بالمبادئ السامية هنا وهناك، ولكنَّني رجل عمل لا رجل فكر، فاستطعت أن أجنيَ ثمار هذه وتلك دون تعمُّق، وما حاجتي للتعمُّق؟ كنت أسأل نفسي قبل الإقدام على أي مشروع: هل سيعود عليَّ بالنفع ماديًّا ومعنويًّا؟ وتدريجيًّا وجدت أن الشق الأول قد غلب، وأصبح المال أو قُل أصبح اكتساب المال بأي طريق هدفًا أسمى، وكانت زوجتي تعرف ذلك وتقبله، ولكنها كانت تريد ما هو أكثر!»

فقلت أخفِّف عنه: «ولكنَّك وقفت إلى جوارها في مرضها حتى شُفيت ... ولولا المال ما تمكَّنت من ذلك!»

فقال: «وهل تَعرف يا صديقي ما كان ذلك المرض؟ إنه مرض النفس الذي أودى ويُودي بحياة الكثيرين من الفنانين! وما الإدمان إلا صورة من صور الهروب التي تُلازم ذلك المرض! وتفسيري البسيط له — بل والساذج، فأنا لا أعرف الكثير في علم النفس أو الطب النفسي — هو أنه طريق هروب إلى عالَمٍ وهمي تَنقطع فيه صلة المرء بالواقع، فيُدمن الخيالات والتهاويل، ويسعد لحظات قد تطول وقد تقصر، فإذا أفاق لم يستطع

تحمل الواقع، خصوصًا حين يَجد الفنان أن الزمن يجري به جريًا لاهثًا، وأن الصغار قد احتلُّوا مكانه أو كادوا، فيتحوَّل عداؤه للواقع إلى عداء للزمن!»

وقلت له إنَّ ذلك قد يكون تفلسُفًا مبالغًا فيه، لكنه لم يَلبث أن قال:

«فلنَقُل إنها فلسفة مُغالية، ولكنها مستمدة من خبرتي الشخصية لا من الكتب التي أدمنتَها أنت! إنها الواقع الذي عشت فيه سنوات طويلة، وأكاد أقول يعيش فيه مئات الفنَّانين ممَّن شُغلوا بأنفسِهم وفُتنوا بصورة ذاتهم، فأصرُّوا على استكمال الصورة أو ترسيخها في الخيال. ولهذا كان لا بدَّ لي أن أعالج الأمر بما يُشبه الصدمة (قالها بالإنجليزية shock treatment) فطلقتها بعد أن دفعت إليها أموالًا طائلة، ولم أشأ أن أتزوَّج غيرها خوفًا على مصير ابنتي. ولأُصارحك القول بأنَّ رحيلي من مصر إلى البلاد العربية أولًا ثمَّ إلى أمريكا الآن رحيل من يُريد أن يفرَّ من واقع مرير فلا يستطيع! لقد أصبحت زاهدًا في الشهرة عازفًا عن أجهزة الإعلام وأتحداك أن تجد بين الشباب مَن يعرف اسمي، فلقد انطفأت جذوة الفرحة الأولى التي قال عنها الشاعر وردزورث، وحلَّت محلها سحابات كآبة ولحظات جنون لا يُخفف من وقعها في النفس إلا ذكر الآخرة! لطالما استمعت إلى نصائحك فتحملت راضيًا ما يأتي به القدر، بل وأقلعت عن طيش الشباب حين ولَّى الشباب، والآن لا أستطيع أن أُغيِّر شيئًا في حياتي، وسوف أحدثك في المرة القادمة عن طبيعة عملي في أمريكا — لأن لدي موعدًا لا أستطيع أن أخلفه.»

ودهشت حين وصل إلى مائدتنا ضيف عربي يرتدي الملابس الإفرنكية، كما يقولون، فسلَّم وجلس، ولكن أدركت أن ذلك هو «الموعد» الذي تحدث عنه، فانصرفت.

وأفصح لي «حسن» في اللقاء التالي عن حقيقة مرض زوجته، ولكنَّني لن أفصح عنه هنا حتى لا يتعرَّف عليهما أحد القراء، ثم قص عليَّ ما يفعل في أمريكا، وهو باختصارٍ ترجمة العناوين والحوارات القصيرة في إعلانات الدعاية القصيرة عن المنتجات الأمريكية المصدَّرة إلى الوطن العربي، وقال إنه يُشارك بالرأي فيما يُناسب العرب من أقوال أو أفعال في تلك الإعلانات ويتقاضى عنها مبالغ كبيرة، كما يعمل مندوبًا لبعض الشركات التي تصدر هذه المنتجات، فيقابل المستوردين العرب ويتفاهم معهم بالعربية ثم يعود إلى أمريكا لإبرام الصفقات. وسألته ضاحكًا إن كان بين هؤلاء يهود أو كانوا يتعاملون مع إسرائيل، فقال دون مبالاة ما معناه إنه أغمض عينه على القذى وقَبِلَ الحياة في منطقة الظل، أو في شبه الظل، بين الشرق والغرب، وقال إنَّ عمله قد أتاح له أن يعرف كثيرًا من المُحتالين من ذوي الأصول العربية الذين يعيشون في أمريكا ويخدعون الناس والدنيا، ولكنه — على الأقل — يكسب رزقه بجهده ويحس أنه يعمل عملًا شريفًا.

وقابلت «حسن» عدة مرات بعد ذلك بناءً على طلبه، وخرجت من لقاءاتنا بأنه كان يجدُ راحة «اعترافية» في سرد أخباره وقص قصصه، وكنتُ ألحُّ عليه في كل مرة أن يعود إلى مصر، فالموت في الغربة قاسٍ مرير، ولكنه كان يُردد في كل مرة أيضًا أنه مؤمن بالآية ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان: ٣٤)، وفي لحظة مرارة قال لي: «وما يَضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟!» ولم أضحك، ولم أعلِّق، وساد الصمت آنئذ كأثقل ما يكون الصمت. ثم افترقنا.

وانقطعت أخبار حسن شهورًا حتى ساورني القلق عليه، لكنه ما لبث أن فاجأني بالظهور في القاهرة ومعه جعبة جديدة من القصص.

٣

قلت إنني أحمد الله الذي آتاني القدرة على تأمُّل الناس والأحداث بعين الكاتب، ولا أظنُّ أن ذلك التعبير واضح كل الوضوح، ولذلك سوف أجمل ما أعنيه في تفسير مُوجز أُتبعه بنموذج يُمثل ما أقصد إليه. فأما التفسير فهو أنَّ عين الكاتب تُقيم مسافة بينه وبين ما يرى، وقد تبلغ هذه المسافة من الطول حدًّا يجعله يتأمل ما يراه كأنه يشاهد عملًا مسرحيًّا أو يقرأ رواية خيالية، وحتى يظلَّ — ولو شارك في الأحداث — بعيدًا عنها، إذ يستطيع أن يدرك بعض أبعادها التي قد تَختفي على المشاركين فيها، وأن ينظر إليهم باعتبارهم بشرًا لكل منهم حياته الخاصة ودوافعه الخاصة، وأن يتجرَّد من أية دوافع شخصية قد تجعله يجور على هذا أو ذاك وقد تمنعُه من التفهُّم الصحيح لأحوال كل منهم، ولكن هذه «الموضوعية» تختلف عن موضوعية العالم (عالم النفس أو عالم الاجتماع) في أنَّ عين الكاتب لا تقتصر على التحليل وفصل العوامل ورصد الظواهر وإقامة العلاقات وما إلى ذلك مما يفعله الباحث، بل تتجاوَز ذلك إلى ملء الفجوات في الصورة بما يتوافَر لديه من خبرات شخصية، بحيث تَكتمِل صورة كل منهم وصورة كل حدث، والاكتمال هو أول أو أهم عنصر من عناصر الجمال، فإذا بكلِّ شيء يكتسي من الجمال ما يجعله عملًا فنيًّا حيًّا، وإذا بالمشاعر التي يستقرئها الكاتب فيما يرى ويَستكمِل ما نقص منها من منابع ذاته، وقد أضفت على الناس والأحداث حياة خاصة ممتعة، قد تخرج بها عن سياقها الزمني، وقد تصعد بها إلى مصاف الأعمال الفنية الجميلة.

ولقد تعلمت جانبًا من هذه النظرة من أعز أصدقاء عمري — المستشار أحمد السودة والدكتور سمير سرحان، على اختلافهما اختلافًا بَيِّنًا، فالأول قارئ نهم يتأنَّى في القراءة

حتى يستوعب كل معنى ثم لا ينسى أبدًا ما استوعب، والثاني قارئ سريع يصل إلى ما يُهمه وحسب، ثم يلقي بما لا يهمه في غياهب النسيان، ولكن كلًّا منهما يَتعاطَف مع ما يرى ومن يرى محافظًا على المسافة التي تتميز بها عين الكاتب، وكل منهما تشغله الحياة والناس دون تخطِّي المسافة التي ذكرتها، وأنا أختلف عنهما جميعًا بأنني أحيانًا ما أتخطَّى عمَليًّا وماديًّا تلك المسافة التي أحافظ عليها نفسيًّا وذهنيًّا، إذ أترك نفسي للاختلاط والامتزاج بالناس من شتى «الأشكال والألوان» كما يقولون، وأستمع كثيرًا إلى ما يحكُون ويَروُون، وأحيانًا ما أرقب مسار كلامهم بين الصدق والكذب والأقنعة (personae) التي يرتدونها أو ينزعونها من حين إلى حين، وأطرب لتأمل خلجات النفس البشرية في لحظات الضعف ولحظات القوة، وأعيش في قلوبهم — كما يقول أحمد رامي — لحظات معينة (مثلَما يفعل كاتب المسرح) ثم أعود إلى حياتي العملية بعد انتهاء فصل من فصول الدراما اليومية التي لا تتوقف أبدًا.

تمكَّنت بفضل عين الكاتب — كما ذكرت — من تخطِّي عقبة انتهاء «العمر الرسمي»، وتمكنت بفضل عين الكاتب من التغلب على محنة المرض، ومحنة الاستماع إلى السؤال الذي كان يُزعجني ثم أصبح مصدر تسلية وهو «إزَّي صحتك؟ ربنا يطمنَّا عليك!» فالبعض يجعله يُخفي نصًّا باطنًا هو «أنت مريضٌ واحمد الله على أنك ما زلتَ في قيد الحياة!» والبعض يُضمر نصًّا آخر هو «أعرف أنك مريضٌ وأُشفِقُ عليك!» والبعض الآخر يُوحي بنصٍّ مختلف هو «لم تَعُدْ شيئًا بعد أن وقعت في قبضة المرض ... فانظر إلينا نحن الأصحاء!» والله يعلم أنني ما حسدت أيًّا من هؤلاء يومًا ما، كلا ولا حزنت للدلالات الخفية لأسئلتهم؛ ففي الغابة التي نعيش فيها ونُسمِّيها دنيا الأدب والفن، لا مكان لغير القوة، والقوة في عالم وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بارتفاع الصوت وجهارته، وبكثرة الظهور في أجهزة الإعلام وفي الندوات والمَحافل، ومن لا يُمارس هذه القوة يُعتبر عائشًا في الظل، ولكن الظل جميل بليل، لأنه يُتيح إنتاج أعمال قد يُكتب لها البقاء بعد زوال الصوت والصورة، وكلما اجتمعت بزميلي وصديقي عبد الوهاب المسيري ازداد إيماني بجدوى الظل، فلقد نذر نفسه للبحث العلمي في مجال شاق عسير هو مجال الفكر السياسي والاجتماعي فأنجز موسوعة لم يكن ليُنجزها لو شغل نفسه بارتياد المُنتديات والمحافل، أو بالظهور الأجوف على مدى السنوات العشرين الماضية، فالعمل هو الذي يكفل العطاء الحقيقي، وعمل الكاتب يقتضي الموازنة بين الظل والقيظ!

وكان من أهم ما كشف لي عنه تجاوز «العمر الرسمي» ذلك التنوع الرائع في ألوان ما أسميتُه بالظلِّ الجميل البليل؛ إذ يستطيع الإنسان أن يهنأ فيه ويستشعر ما لم يكن يحلم به من تعاطُف مع البشر؛ ومن ثم من الرؤية الصادقة لحاله دون أقنعة (وسوف أعود إلى القناع فأجعله موضوع هذا الفصل)؛ وذلك عندما خرجت من القاهرة في زيارات متعددة للجامعات الإقليمية. كانت المرة الأولى يوم الأربعاء ٥ يوليو ٢٠٠٠م حين ذهبت في وفد يضم الدكتور عبد الوهاب الجوهري — مستشار جامعة المنيا، وأمين لجنة الآداب والعلوم الإنسانية بالمجلس الأعلى للجامعات، وأستاذ علم الاجتماع المعروف — والدكتور حسنين ربيع أستاذ التاريخ، الذي كان نائبًا لرئيس جامعة القاهرة وعميدًا لكلية الآداب قبل ذلك، والدكتور مصطفى السعدني، الذي كان عميدًا لآداب بنها، وحلَّ محل الدكتور محمود فهمي حجازي الذي اعتذر عن اللحاق بالوفد، إلى أسوان للتحقُّق من إمكان (أو «جدوى» feasibility) افتتاح كلية للآداب تابعة لجامعة جنوب الوادي في أسوان، ابتداءً بأقسام التاريخ واللغتين العربية والإنجليزية، فقضينا يومًا كاملًا في اجتماعات وزيارات ميدانية لمباني الكليات الجامعية هناك، والاطِّلاع على الأحوال «على الطبيعة» كما يقولون، وهمس لي الدكتور ربيع قائلًا: إنَّ الجامعة سوف تُعطينا مكافأة مادية على هذا الجهد، ولكن خاب ظنُّه وظني، وإن كنت خرجت بانطباعات أثمن كثيرًا مما تدفعه الجامعة عادةً وتحقَّق صدق انطباعاتي عندما انتدبني عميد الكلية الجديدة، الدكتور عمر صابر، الأستاذ في قسم اللغات الشرقية لدينا، للتدريس في أسوان، وهو رجل فاضل يتميَّز بدماثة خلق نادرة، وكنت قرأت له كتابًا عن **ديوان يوحنا النقيوسي**، ترجمه وقدَّم له وشفعه بتعليقات وافية، فبهرني علمه، ويوحنا المذكور كاهن قبطي شهد فتح العرب لمصر، وكان من المصادر التي اعتمد عليها المؤرخ البريطاني ألفريد ج بطلر في كتابه **فتح العرب لمصر** الذي ترجمه محمد فريد أبو حديد ترجمة تُضارع الأصل جمالًا إن لم تتفوَّق عليه.

شاهدت في أسوان طلابًا فقراء يُريدون حقًّا أن يتعلموا، وكانوا يستعيضون عما يتمتع به أهل القاهرة والإسكندرية من تدليل «مدارس اللغات» بالجهد والدأب والمثابرة، وكنتُ أشعر أن قضاء يوم في التدريس لهم يُمثل درجة عالية من درجات الخير (فالخير درجات كما سوف أبين في الفصل الثاني) وكان يحضر معي المحاضرات أو الدروس أعضاء هيئة التدريس الثلاثة في قسم اللغة الإنجليزية، الدكاترة محمد سعيد وعاطف وعادل، وعادةً ما كانوا يدعونني للغداء معهم، وشاركتهم في إعداد الكتب اللازمة للسنة الأولى، وهي التي تولَّت الجامعة طباعتها وتوزيعها على الطلاب، وأحسست — على الرغم

من المسافة الكبيرة التي تفصل أهل شمال مصر عن أهل جنوبها — بوجود تلك الرابطة الإنسانية العميقة التي تشدُّ الناس في مصر بعضهم إلى بعض، فكنت أشتاق إلى رحلة أسوان كل شهر تقريبًا، وأتطلَّع إلى اللقاء مع الطلاب والأساتذة، خصوصًا وأن الدكتور عبد الحكيم راضي، أستاذ اللغة العربية وآدابها، كان كثيرًا ما يصاحبني في الرحلة فنتناقش في أمور اللغة وأحوالها.

واتَّضح لي مدى العناء الذي يكابده هؤلاء الأساتذة الشبان، فمعظمهم مُنتدبون من كلية الآداب في قنا، وهم يسافرون لا إلى أسوان فحسب بل إلى الغردقة أيضًا للتدريس في معهد ما هناك، والرحلة إلى الغردقة تستغرق ثماني ساعات، كما أنهم يدرسون في كلية التربية أيضًا، وذلك كله يستغرق وقتًا طويلًا بل يستهلك كل طاقاتهم، ولا يكاد يُتيح لهم فرصة القراءة والبحث، وكنت أقدم لهم ما أستطيع من العون في هذا المجال، ولكن المكتبات في جنوب الوادي ما تزال في طور الإنشاء ولا تهتم دور النشر بإهدائها نسخًا مما تطبع، فدور النشر مؤسسات تجارية ولا تهدي النُّسخ إلا للأماكن التي تبشر بالبيع والكسب المادي. واتَّضح لي أيضًا مدى مُكابدة الطلاب أنفسهم في الوصول إلى مقر الجامعة، فوسائل المواصلات شاقَّة والمسافات طويلة، وكانت الدراسة في ذاتها تُمثل جهدًا يتطلب العزيمة والإصرار ومجالدة تلك الظروف القاسية، فنشأ في قلبي ونما حبٌّ عميق للجميع، وتمنَّيت لو أنني استطعت أن أفعل المزيد من أجلهم، ولكن جراحتَي العين اللتَين أجريتهما في آخر ١٩٩٩م وآخر ٢٠٠٠م وضعتا حدودًا لما أستطيعه.

وكان التناقض بين هذه الأحوال وأحوال قسمنا في القاهرة يزيد من جمال صفاء النفوس الذي كنتُ أستشفُّه في كلِّ زيارة لأسوان، وهو ما أعاد لي ثقتي بالطبيعة البشرية ووطَّدها بعدما كادت أن تتزعزع، وتأكدت هذه الثقة من جديد عندما توطَّدت علاقتي بالدكتور شبل الكومي، مثال الصفاء الخالص، فهو عالم مُتواضِع، يُواجه صعابه الخاصة بإيمان عميق واطمئنانٍ لما تقضي به الأقدار، وهو يقرأ كثيرًا ولا يفصح عن سعة اطلاعه إلا فيما ندر، ويتميز عن الآخرين بأنه لا يكاد يعترف بالأقنعة، وربما اقتنع في صباه بأنه لا حاجة له بها، وتأكد له هذا الاقتناع عند النضج، وقد بدأ توطُّد العلاقة بيننا عندما شاركني التدريس لطلاب الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة المنوفية، اعتبارًا من خريف عام ٢٠٠٠م، فكنا نذهب معًا في سيارته، وكنا نناقش كل شيء أثناء الرحلة، وربما توقَّفنا في الطريق بمقهى ريفي، فتناولنا القهوة والشاي، وجلسنا نتأمل الطبيعة، وكنت أجد أن الرحلة فسحة (بالمعنى الفصيح والمعنى الدارج) فهي تفسح لي أن أنسى

الضغوط التي أتعرض لها في القاهرة، والأقنعة الكثيرة التي تُواجهني في حياة العاصمة، سواء كان ذلك في مقر عملي أو فيما يسمى بدنيا الأدب والثقافة، وكنتُ أحسُّ أن الخروج من القاهرة في ذاته شيء جميل، فهو يتيح لي الوقت لتأمل أنماط أخرى من الحياة، ومد حبال التواصل مع البشر دون أقنعة، أو دون أقنعة كثيفة؛ فالناس خارج المدينة الكبيرة لا يتعرَّضون للضغوط الشديدة التي تضطرُّهم إلى ارتداء الأقنعة، وإذا ارتدوا أقنعة فهي لطيفة أو شفافة، ولذلك كنتُ أجد في التواصُل راحة من مُواجهة الأقنعة الكثيفة في معاملاتي بالقاهرة، فأتيح لعين الكاتب أن ترى الإنسان وهو أقرب إلى الصدق مع ذاته، ولقد استعنت بعين الكاتب كثيرًا في الشباب والكهولة، فهي العين التي تقيم المسافات أو تلغيها (كما سبق أن أوضحت) وهي العين التي تُمثل الطاقة الكامنة لدى كل إنسان وإن لم يكن واعيًا بها، فقد تمكنت بفضلها أن أستمتع برحلات إلى خارج القاهرة، مثلما استعنت بها في التغلب على غلظة أقنعة أهل القاهرة وتعقيداتها.

وبفضل عين الكاتب تمكَّنت أيضًا من اختزان «المادة الإنسانية» التي لا غنى عنها لكاتب المسرح؛ فهي مَعينُه الأول (بفَتح الميم) ومنهله الذي لا يَنضب، وما أعمق نفس الإنسان وما أعجب ما تُخفيه في أغوارها، ولسوف أضرب أمثلة من بعض ما شهدته وبعض ما أتابعه عن كثب، وأولى تلك اللوحات وأقربها ما يحدث في المنزل الذي نُقيم فيه، فله بواب اشتهر باسم عبد المنعم حتى إن البعض يُناديه باسم «الدلع» [التدليل؟] عبده، واسمه الحقيقي محروس عصعوص، وله من الأبناء تسعة، الكبرى (كوثر) من زوجة سابقة، تزوجت من سائس جراج يدعى «محمد» أصيب بمرض عضال ولم يلبث أن تُوفي رحمه الله بعد أن أنجب عدة أطفال، والثمانية الباقون هم بالترتيب (تقريبًا) صباح، ومحمد، وليلى، وهشام، وهويدا، وهدى، وأحمد، وهبة، ولما كانت الأسرة أصلًا من قرية من قرى الصعيد، فقد أصبح وجودها في القاهرة الكبرى يُمثل أهمية بالغة لأبناء القرية، فهم يُرسلون إليها بعض أقاربهم ممن ضاقت بهم سبل العيش في الريف، وعبد المنعم يمارس شهامة أهل الريف فيطلب من السكان المعاونة بما لهم من نفوذ في تحقيق أحلامهم في الحصول على عقود عمل بالبلاد العربية البترولية، وكان يُقدم كُلًّا منهم باسم «وِلْد عمِّي»، وقد نجح الكثيرون فعلًا في الرحيل، فاختفى البعض وعاد الآخرون بأيدٍ خاوية، مثل «محمد» ابن البواب نفسه!

أما نفوس هذه الأسرة التي تكاد تُشاركنا الحياة اليومية فلا تَنفتِح مغاليقها إلا لمن هو على استعداد لأنَّ يستمع إليهم ويُنصت ويختزن في ذاكرته ما استمع إليه ويُضيف إلى

ذلك ما يراه من سلوكهم، وذلك كله — بالطبع — في إطار معرفته الوثيقة بأحوال تلك الأسرة و«البيئة» التي تعيش في كنفها. وكان همِّي الأول، ولا يزال، أن أطَّلع على ما يدور في نفس رئيسها الذي قضى معنا أكثر من ربع قرن دون أن تبدو عليه دلائل الشيخوخة إلا أخيرًا، باستثناء جراحة «المياه البيضاء» في إحدى العينين، وقد أجراها له أحد الأطباء في أحد المُستشفيات العامة ولم يتقاضَ عنها أجرًا، وباستثناء «أدوار البرد» التي تُصيب الصغير قبل الكبير ولو أنَّني حزنت كثيرًا عندما قال لي أخيرًا إنه أصيب «بالسكر» وفعلت ما قدَّرني الله عليه في هذا السبيل.

وقد وجدت «المفتاح» إلى أعماق تلك النفس فيما درجنا على تسميته بالصفات الأساسية للفلاح المصري على مر التاريخ، وأهمها حُب الأرض وامتلاكها، والمكر والتحايل إزاء عالم عابس لا يحفل به، ومن هاتين الصفتين تتفرَّع عدة ملامح سلوكية يسهل على الراصد إدراكها، منها اقتناء بعض القراريط في موطنه الأصلي وتأجيرها لبعض أقاربه، والتكتُّم على ذلك والتستر على كل ما يتَّصل بذلك الموضوع، ومنها احتراف «الخيال»؛ إذ يُعتبر هنا سلاحًا ماضيًا من أسلحة المكر والدهاء، يَستعين به المستضعَف في مواجهة عالم غير ودود، ولا يرى غضاضة في العدول عن أقوال قالها أو تعديلها بما يتَّفق وتحقيق أهدافه وأهمها هدف البقاء المتمثل في إضافة قيراط آخر إلى قراريطه. وهو في غضون ذلك يدَّخر كل نقود تدخل جيبه، ويحضُّ أبناءه الذكور على كسب الرزق، ويُهيئ بناته ذهنيًّا للزواج باعتباره الغاية العليا للفتاة، فالزواج يُلقي بعبء إعالتها على كاهل رجل آخر، بغض النظر عمَّن يكون وما يكون؛ فابنته الكبرى صباح تزوَّجت من رجل قصير غليظ الجسم مجتمع الخلق ضاحك السن، يكبرها كثيرًا وله أسرة ريفية في «نزلة السمان» بالقرب من أهرام الجيزة، وسرعان ما جعلها تتكيف مع حياة الريف الجديدة عليها بعد أن نسيَتْها الأسرة في المدينة، أما هي ففتاةٌ ملامحها نصف زنجية — مثل ملامح بعض النساء اللائي صوَّرهن الرسام محمود سعيد — شديدة السُّمرة واسعة الفم مفلطحة الأنف، أنجبت لزوجها سبعة أبناء، كبر بعضهم وأصبح مُراهقًا، وقد رأيت اثنين منهم يعملان أحيانًا في نطاق أسرة والدته حين تكفهرُّ مداخل الرزق، كأنْ يطردهما صاحب العمل، أو يدخل أبوهما السجن.

وكثيرًا ما كنت أسأل نفسي حين أتأمل رب الأسرة (الذي يخشاه الجميع) وهو جالس مع بعض أصدقائه من الريف على الدكة الخشبية في مداخل الجراج: ترى ماذا يدور في ذهنه؟ من عساه يَنتقي من بين السكان (ومنهم أطباء ومهندسون وضباط وأساتذة

في الجامعة) للممارسة «خياله» معه؟ وماذا يَعتمل في هذه النفس التي لا تفتح أبوابها للطارق قط، ولا تكاد تعرف ما يدفُّ بين جوانحها إلا في لحظات الغضب؛ إذ تَنطلِق الحمم من فم صاحبها كأنها حمم من فُوَّهة بركان، وكنت ولا أزال أحب أن أشهد تلك الانطلاقات التي قد تكشف لي عن بعض ما يُخفيه الوجه الثابت الجامد الملامح كأنه قناع، وأحب أن أسمعه وهو يتحدث عن الشرف، فهو ينحصر في نظره في عفاف المرأة، فذلك في رأيه مناط الأخلاق الفاضلة، بل والدين نفسه والتُّقى والورع. وكان ذلك يتجلى أكثر ما يتجلَّى في رمضان — شهر الخير الذي يجود فيه السكان بطعام الإفطار الفاخر كل يوم على أسرة صاحبنا — إذ يأمر جميع الإناث حتى في مرحلة الطفولة بارتداء الطرحة (التي تُسمى الحجاب في مجتمعنا) وكانت إحدى حفيداته واسمها آية، وهي التي لفظتها أمها (صباح) ونقلت رعايتها إلى الجدين، ولم تتجاوز العاشرة، ترتدي طرحة كبيرة تخفي بها شعرها الأجعد.

ومن أخلاق الريف التي ورثها الابن الأكبر محمد من أبيه صفة الاقتصاص بنفسِه ممَّن يُسيء إليه أو كما يُسميها «أخذ حقه بيده»، ومحمد لم يعد صغيرًا؛ فهو يُناهز الأربعين، وهو أميٌّ، مصاب بالصَّرع، وقد تأتيه النوبة في أي مكان فيقع ويصاب إصابة قد تبلغ حد الخطر، وهو يعمل لحسن الحظ فراشًا في مُستشفى الصفا القريبة من المنزل، ولا أنسى يوم أن وجدته جالسًا على الدكة في مدخل الجراج لا يكاد يقوى على النهوض، فسألته: ما الخبر؟ فقال: إنه طُرد من العمل، ولما ألححتُ عليه في السؤال؛ قال: إنَّ أحد الأطباء أهانه «فأخذت حقي»، وأدركت على الفور أنه أوسع الطبيب ضربًا وأحس بالرضا لاسترداد كرامته، وعرف القصة بعض الأطباء من أصدقاء السكان فتوسَّطوا له حتى عاد إلى العمل، ولم أتمكن من الإلمام بالتفاصيل في غمرة الزهو الذي كان محمد يشعر به بعد أن اقتصَّ لنفسه من الطبيب.

وسبيلي إلى داخل هذه النفوس الحافلة بالألغاز هو الاستماع بتركيز وبصبر لا ينفد، كما قلت، فإذا قص البوَّاب عليَّ قصة بعض معارفه في القرية أو أقربائه تعمدتُ الإنصات، و«الحفظ» حتى تكشف لي روايته عن مُثُله وقيمه، فهو يَعمد دائمًا إلى «الإسقاط» أي نسبة كل شيء إلى الآخرين، كأنه كاتبٌ يُصوِّر من خلال شخصياته أفكاره ومشاعره، وأحيانًا ما تكون قصصه موجهة لطلب المال، وقد يقصها عليك إجمالًا أول الأمر متوقعًا منك أن تلمح ما يرمي إليه من قصته، وقد يفشل السرد في تحقيق مأربه فيلجأ إلى الأسلوب المباشر طالبًا النقود حتى دون وجه حق. وكان أحدث نموذج لذلك زواج ابنه؛

إذ أتى يقول: إنه سوف يشتري «الشبكة» لابنه و(النص الباطن هو: «أريد مساهمة في النفقات») والكل يعلم أنه لن يشتري شيئًا لأحد؛ فابنه «الميكانيكي» يصارحني بكل شيء، وزوجته «أم محمد» تقول لي ما يفعله زوجها بالمال [في البلد] فلمَّا تظاهرتُ بأنني لم أفهم مرماه، عاد يقول: إن فلانًا ساهم بكذا وفلانًا بكذا، ولما أصررتُ على التغابي جاء يقول: إنه يُريد كذا لاستكمال الثمن، وربما يكون ذلك ثمن البيت الذي سمعت أنه أمر ببنائه في أرضه.

٤

من معاني «عين الكاتب»، القدرة على تحويل الأشخاص إلى شخصيات مسرحية أو روائية، وليس معنى هذا أن نسلبَها كيانها الإنساني الكامل المتفرِّد، ولكن معناه أن نُقيم مسافة ما — كما قلت — بين ما نرى ونسمع وبين ما نشعر به ونفكر فيه، ومعناه أيضًا أن نتعاطف مع من لا نحب بل وما لا نحب في الناس؛ إذ استطعنا أن نُقصيه ولو إقصاءً محدودًا عن حياتنا الشخصية واهتماماتنا المباشرة، فالكذب صفة كريهة ولكنه يُصبح صفة طريفة إن أبعدتها عن حياتك ونظرت إليها في إطار حياة الكاذب نفسه، وحياتنا في مصر قد تستدعي الكذب؛ لأن الكثيرين لم يصلُوا إلى النضج النفسي الذي يسمح بالصدق دون غيره، فإذا طلب أحد منك طلبًا ولم تكن تستطيع تلبيته وقلت له ذلك؛ غضب منك وربما ناصَبَك العداء، بل إن بعض طلاب الحاجات يتوقعون إجابة مُرْضِية، ولو كانت كاذبة، كأن تقول إن شاء الله، أو ربنا يسهل، ثم تَعمِد إلى المماطلة والكلام المعسول، و«ربنا يفتح الأبواب»، ثم تأتي بذرائع للتعطل وأخيرًا لعدم القدرة على المعاونة! وقد يعاود أحدهم المحاولة من جديد وتعود الدائرة المُضنية وأنت في حيرة من أمرك، فقد ينفد صبرك فلا تملك إلا أن تواجهه بالحقيقة فيزيد إلحاحُه وربما انتهى الأمر بك إلى انفعال غير مقصود فيكون نصيبك الاتهام بانعدام الذوق أو المروءة والشهامة!

والأمثلة على ذلك تتفاوت بين طلب التوسط لدى المسئولين بغية توظيف أحدهم في الحكومة، وبين طلب ترجمة شيء ما أو مراجعته دون أجر (أو بأجر رغم أنفك!)، وبين المساعدة في نشر شيء لا يستحق النشر، أو كتابة مقدمة لشيء لا يستحق التقديم، أو المشاركة في ندوة نقدية لإعلاء شأن الكاتب!

ومن الصور الحاضرة في ذهني (أو اللوحات الحية في عيني) صورة حسن عبد النعيم، وهو من معارف أو أقرباء عبد المنعم، بواب عمارتنا الذي أشرتُ إليه، وهو

خطيب ابنته هبة التي وصلتَ إلى سن الزواج، وهي الوحيدة التي لم تتزوج من الفتيات. فهو خريج قسم الإعلام بكلية الآداب بجامعة أسيوط بتقدير مقبول، ويبدو من مظهره وسلوكه أنه يعمل في القاهرة الآن عملًا يدويًّا، وما فتئ عبد المنعم يطالبني بالعمل على تعيينه في الإذاعة مذيعًا أو محررًا، أو صحفيًّا بإحدى دور الصحف الكبرى، وأنا لا أعرف شيئًا عن قُدرات حسن المذكور، ولكن عبد المنعم يأتيني بين الحين والحين بورقة تُفيد أنه سيُعقد له امتحان في الإذاعة بناءً على توصية من عضو في مجلس الشعب، ويطالبني بأن أوصي عليه المسئولين، فهو يَراني في التليفزيون ويظنُّ أنني أتمتع بسلطان عريض، وكنت أجيبه الإجابة التي يرجوها («ربنا يسهل» أو «إن شاء الله خيرًا») دون أن أشرح له استحالة التدخل في نتيجة الامتحان، والواقع أنني خاطبت حمدي الكنيسي رئيس الإذاعة آنذاك (١٩٩٩م) فهو زميلي القديم في قسم اللغة الإنجليزية — وقد أكَّد لي أنه لن يستطيع مساعدته إلا إذا نجح في الامتحان، ولكن عبد المنعم يعتقد أن الامتحان صوري وأن الكوسة (أي المحاباة) هي قاعدة التعيين، وذكرتُ ما قالته ضحى (وهي تلميذة سابقة حصلت على دبلوم الترجمة من قسمنا) من أن «أولاد الأكابر» و«الواصلين» قد يعفون من الامتحان أصلًا، وأن هناك طابورًا طويلًا من العاملين بعُقودٍ في الإذاعة يدخلون ذلك الامتحان حتى يحصُلوا على وظائف ثابتة حتى ولو لم تكن النتيجة في صالحهم. وكان إلحاح عبد المنعم يتخذ صورة التنغيص والمضايقة، فهو يقبع لدى الباب وكلما شاهدني ذكَّرني بخطيب ابنته وأن الزواج يتوقف على نجاحه، لكنه لما رسب للمرة الثانية تحوَّل إلى محاولة العمل بالصحافة، وانتهز فرصة إهدائي بعض المفكِّرات وروزنامات العام الجديد من جريدتي الأهرام والأخبار ليطالبني بتعيينه في إحدى هاتين الصحيفتين، وعندما صدقت ما وعدته به وخاطبت من أعرف في الصحف، قيل لي: إن أبواب التعيين مغلقة من مدة، وإن خريجي كلية الإعلام بجامعة القاهرة ينتظرون التعيين منذ أمدٍ بعيدٍ وبعضهم (حتى من الحاصلين على تقدير جيد بل وجيد جدًّا) لا يزال يتدرب دون أن يلمح فرصة التعيين.

المشكلة هي أنني لا أستطيع أن أزكِّي حسنًا لأنني لا أعرف قدراته، ولا أستطيع أن أقول لأحد معارفي أو أصدقائي إنني سوف أبعث إليه «بمشروع صحفي» نابه أو «مشروع مذيع» ناجح، وكل ما أستطيعه، دون أن أفقد مصداقيتي ناهيك بأمانة الكلمة، هو أن أوصي بالاهتمام به بصفته خطيب بنت بواب عمارتنا، كما أنني لا أستطيع في الوقت نفسه أن أواجه البواب بحقائق الموقف، فهو لن يفهمها حتى لو سمعها، بل سيفهم أنني

أتقاعس عن تقديم «خدمة» عادية، وذلك «التقاعس» في نسق قيَمِه مرذول ممجوج، ينمُّ عن تخاذل أو عما هو أسوأ، وأنا لا أريده أن يفهم هذا أو ذاك، وأُحاول بشتى الطرق الممكنة أن أقنعه بصعوبة تحقيق الأمل الذي يطمح إليه خطيب ابنته، فهو يُريد أن يُلحق بأسرته رجلًا جامعيًّا، ويتصوَّر أنه لو قدر لحسن أن يحصل على وظيفة في الإذاعة أو في إحدى الصحف؛ فسوف يجري المال بين يديه أنهارًا، ويُصبح ذا نفوذ وسلطان، وقد يظهر في التليفزيون كل يوم.

وأذكر أن أحد الطامحين في ممارسة الكتابة والنشر زارني في مكتبي بمجلة المسرح في هيئة الكتاب في أواخر الثمانينيات، أثناء فحص المادة، وأطلعني على ما كتب، ولم يكن يزيد عن خواطر مراهق بعضه شعر موزون ومعظمُه غير موزون، والعامية مختلطة بالفصحى، بل وبعضه منقول من كتابات آخرين، وأثارني ذلك الخليط العجيب ولكنني ثابرت حتى استطعت قراءة شطر كبير منه، وصارحته برأيي وأوضحت له أن نشره بحالته الراهنة عسير، وإن كان يُنبئ عن موهبة تتطلب الصقل بالقراءة والدربة والممارسة، وأوصيته بقراءة عدة كتب، فبدا عليه الذهول وقال لي: «ولكن هذا شعر يبدأ من حيث انتهى الآخرون؛ فأنتم العلماء ونحن الأدباء، ونحن الذين نكتب ونُبدع، وأنت الآن تحول دون إطلاع الجمهور على ثمار عبقريتي!» وقلت له إنني صارحته برأيي وحسب، لكنه إن شاء قدم هذا الإنتاج إلى دار من دور النشر فإذا قبلته نشرته، وإنني لست مُلزَمًا بشيء، لا بنقده ولا بنشره، وله أن يعرضه على غيري إن شاء حتى يتأكد من صدق مشورتي! لكنه أصرَّ على نشره في هيئة الكتاب، فقلت له قدم هذا الشعر إذن إلى رئيس الهيئة رسميًّا وسوف تعرضه الهيئة على لجنة من المتخصِّصين فإذا وافقت على النشر نُشر! فبدا عليه الارتياح وهدأ ثائره وقال إذن إنني أقدمه إليك وأرجوك أن تتولى أنت التوصية بنشرِه، لكنني أصررت على أن يقدمه رسميًّا إلى المسئولين في إدارة النشر، فنهض مُغضبًا ومضى، ولم تمضِ أسابيع حتى عاد إليَّ في مكتب مجلة المسرح بالهيئة ومعه ذلك «الشعر» وقد أرفق به خطابًا من الوزير موجهًا إلى رئيس الهيئة يُوصي «بالنظر» في الموضوع، ويحمل تأشيرة من رئيس الهيئة توصي ببحث الموضوع، وابتسمت له هذه المرة بسمة عريضة وقلت له «الحمد لله! خرج الموضوع من يدي! قدِّمه إلى الأستاذ لمعي المطيعي — المشرف العام — وسوف يتولى هو كل شيء.» كان يجلس معي في المكتب حازم شحاتة وأمير سلامة وعمر نجم، وبعض العاملين المساعدين في المجلة مثل صلاح الوسيمي وعنايات السكرتيرة، ففرحت بوجود «شهود» وشرحت له بهدوء الخطوات الإجرائية المطلوبة، وحاولت قدر

طاقتي أن أتصرَّف تصرف الموظفين الملتزمين، فلم أُبْدِ ما يدل على أنني قرأت «شعر» ذلك الشاب، وأرسلت معه عنايات إلى مكتب الأستاذ لمعي وظننت أن الموضوع قد انتهى عند هذا الحد، بل إنني نسيت الموضوع تمامًا في الشهور التالية، حتى جاء يوم أُرغِمتُ فيه على تذكُّره.

لم يكن يبدو في البداية أن هناك أي علاقة بين حملة الهجوم على الهيئة في إحدى الصحف الصُّغرى «المغمورة» (شبه الحزبية) وبين تأخر نشر ما كتبه ذلك الشاب، أو عدم نشره؛ إذ كانت سلسلة المقالات التي لم أطلع على أولاها مثيرة بذيئة حادة اللهجة، وكانت المقالة الثانية تتَّهم الهيئة بالمحاباة و«الشللية» وما إلى ذلك من أوصاف حفظناها عن ظهر قلب، كما تتضمن اتهامات أخرى تقول إن الهيئة تنشر كتابات فاضحة لليساريين، وإنها تتعمد معارضة نشر ثمار قرائح المبدعين من الشباب المؤمنين حتى لا يُنافسوا الكبار من الشعراء المجيدين الذين ترضى الدولة عنهم! ولم أكن أدرك وجود علاقة بين هذا الشاب وهذه الحملة لأنني — كما قلت — كنت قد نسيته تمامًا، وكان سمير سرحان لا يزال رسميًّا «منتدبًا» للعمل في الهيئة؛ أي لم ينتقل نهائيًّا من وزارة التعليم العالي إلى وزارة الثقافة، ولم يكن يحبُّ مثل هذه «الشوشرة»، فطلب مني كتابة رد موضوعي على تلك المقالات، فأتاني المكتب الإعلامي بالمقالات، وأتيت بقائمة منشورات الهيئة، وأعددت الرد الذي رأيته مقنعًا بل ومُفحمًا؛ لأن الهيئة تُعنى حقًّا بكتابات الشباب وقد خصَّصتْ لها سلسلة كاملة بعنوان «إشراقات» تُباع بأسعار زهيدة لتشجيع الناس على اقتنائها وتشجيع أصحابها على الاستمرار، وشرحت في الرد إجراءات فحص الأعمال المنشورة وإجراءات نشرها ومكافأة أصحابها وما إلى ذلك، وأطلعته على الرد فأرسل به إلى الصحيفة فنُشر، وإلى جانبه «عمود» يُقدِّم فيه صاحبه ما أسماه الدليل على صدق ما جاء في المقالات؛ ألا وهو عدم نشر «شعر» صاحبنا!

وكان لا بدَّ من إعداد رد جديد يكتبه لمعي المطيعي — المشرف على النشر — فتم ذلك، وأُرسل إلى الصحيفة، ولكنَّه لم ينشر! واتصل سمير سرحان تليفونيًّا برئيس التحرير وسأله عن ذلك فقال رئيس التحرير إنه سوف يَنشرُه عملًا بحرية النشر ولكنه ينتظر عودة صاحبنا من قريته حتى يردَّ على الرد! ثم انطلق يتحدَّث بنبرات ودودة — حسبما حكى لي سمير — طالبًا منه أن يُوفر على نفسه كل هذا الجهد وأن ينشر «المجموعة الشعرية» لصاحبنا ولو في سلسلة «**إشراقات**» (وخلاص!) ولكن سمير سرحان قال له: إن لجان الفحص هي التي تَقضي بالنشر أو عدم النشر، (وكان محمود العزب هو الذي

يشرف على السلسلة، يُعاونه عبد العال الحمامصي ولفيف من كبار النقاد) وأنه لا يتدخل في تحديد ما يُنشر وما لا يُنشر، وإن عليه إن أراد الحقائق كلها أن يتصل بالأستاذ سعد درويش — مدير عام النشر — أو بالأستاذ لمعي المطيعي — المشرف العام — حتى يعرف ما حدث بالتفصيل. ويبدو أن رئيس التحرير فعل ذلك لأن الصحيفة لاذت بالصمت التام إزاء الموضوع بعد ذلك، وبدأت تنشد الإثارة في مجالات أخرى أهمها السياسة والدين.

ولقد تعلمت من هذه الحادثة الكثير، ولكنني اجتزت هذه المحنة وأمثالها مما تكرر بعد ذلك بفضل عين الكاتب، فكنت أحافظ على المسافة التي تفصل بيني وبين ما يحدث، إذ تحوَّل الشاب الطامح في نظري إلى شخصية لها جميع المقومات الإنسانية التي تضعها في رواية أو مسرحية، واستعنت بما أعرفه عنه وما قرأته له — على قِلَّته — في رسم صورة تقريبية له، وتكرَّر ظهور هذه الصورة في حالات الشبان والشابات ممن كثر ظهورهم في الحياة الأدبية بسبب وفرة وسائل النشر، سواء في الصحف والمجلات التي كثرت كثرةً مَرَضِيَّة، أو في سلاسل الكتب التي تنشرها شتى الهيئات بجانب هيئة الكتاب حتى كاد دور الهيئة أن ينكمش، بل وأن يتوارى في خِضمِّ ما تنشره كل هيئة، والملامح الأساسية للصورة هي اندفاع الشباب وحماسه، وتصوره العجيب أن وقدة العاطفة وحدها كفيلة بصنع الأديب، وضعف الأداة — ضعف اللغة الفصحى (فلنَكتب بالعامية) وضعف آلة الشعر وعدم القدرة على النظم (فلنكتب نثرًا ولنُسمِّه شعرًا) وضآلة الخبرة الإنسانية أو ضحالتها، وأخيرًا وليس آخرًا، الهجوم على الكبار والتطاول على من أفنوا العمر في الدرس والتحصيل والقراءة والكتابة!

وتختلف الصورة في التفاصيل، وتتفاوت — بطبيعة الحال — فيما يحيط بها من ملابسات، ولكنها ذات جوهر ثابت، فالشاب يريد بعد نشر ديوانه الأول أو مجموعة الشعر الأولى — أيًّا كانت جهة النشر ومهما يكن مدى تقبل الجمهور والنقاد لها أن يُصبح في مصاف الأدباء وأكاد أقول كبار الأدباء، وأظنُّ أن المناخ العام يساعده هو وأمثاله على ذلك؛ فهم يرون الكثيرين يُثرون دون مجهود، ويرون كيف ينالون ما لا يستحقون بوسائل ملتوية أو بأساليب الغش والخداع، وهو ما تشجع عليه وتُنمِّيه أجهزة الإعلام التي تذيع أعمالًا فنية ترسخ هذه الصور، حتى مع إدانتها، وهي الصور التي تُولِّدها وتنمِّيها الرأسمالية الفاسدة، بعد أن أصبح التليفزيون (لا الكتاب) المصدر الأول للعلم والمعرفة وبث القيم وترسيخ مناهج الأخلاق، وبعد أن أصبح دور القراءة محصورًا في «المقرر» الدراسي الذي يُقبِل عليه معظم الطلاب ساخطين كارهين مُرغمين فما أيسر على الإنسان أن يشاهد أو يسمع، وما أشق عليه أن يقرأ ويدرس!

وتحتلُّ هذه الصورة بأشكالها المتعدِّدة مكانها في ذهني، وهي صورة تتلوَّن كما قلت بما يحيط بها من ملابسات، فهي صورة حية متحركة أو دينامية كما يقولون، قد تتجسد في شخص شاعر أعرفه تخطى مرحلة الشباب وكان يعمل في الهيئة ويكتب النَّظم ويتصور أنه عبقري العباقرة وسيدهم، أو في صورة سيدة أعرفها وكانت في أواسط العمر تكتب الشعر المنثور والمنظوم أحيانًا وتُردِّد آي الذكر الحكيم لترهبك وتخوِّفك، أو في صورة فتاة متحررة تكتب نثرًا جميلًا وتقول إنه شعر، بل وفي صورة أستاذ جامعي حظه من الموهبة الإبداعية محدود، كتب مسرحية أو رواية وظنَّها كفيلة بوضعه بين كبار الأدباء، ولا شك أن لهؤلاء نظائر بين من لا أعرفهم.

٥

بين الحياة العملية والحياة الذهنية تناقض صارخ، ولكن الجمع بينهما لازم لكل أديب وخصوصًا لكاتب المسرح، وحتى لو كان الكاتب متفرغًا للكتابة؛ أي لا يمتهن مهنة سواها، فهو يحتاج إلى الحياة العمَلية «لتسويق» ما يكتب، وكلمة «تسويق» قد تبدو مرذولة، نظرًا لما يُحيط بها من دلالات الكسب المادي أو الربح ولو كان حلالًا، ولكن المقصود بها هنا هو إشاعة ما يكتبه الكاتب بين الناس ولفت نظرهم إليه أو حثهم على قراءته؛ فالناس — القراء أو المُشاهدون — هم الضلع الثالث اللازم لاكتمال «دائرة الإبداع» التي تحدث عنها شكري عياد فأوفاها حقها، فإذا كان الكاتب يأخذ من الناس مادته التي تتحوَّل إلى عمل أدبي جميل، فعليه أن يُوصِّلها إليهم في صورتها الجديدة، وعليه أن يرى ويسمع ما يقولون عنها في هذه الصورة، وخصوصًا ما يقوله النقاد والأدباء، ففي ذلك عون له على تلافي النقائص ومواصلة التجويد؛ أي إنه ملزم بالارتباط بالناس ارتباطًا حميمًا قبل الإبداع وبعده، مثلما هو مُلزم بالارتباط بالتراث الأدبي الذي يُحدِّد له الشكل الجمالي الذي يختاره لعمله.

ولكن تُرى مَن يكون هؤلاء الناس؟ إنهم نحن جميعًا، و«نحن» آلاف الأنواع، والكُتَّاب من بيننا نوع واحد، وهو نوع يتفرَّد بالجمع بين عين البصر وعين البصيرة، عين البصر التي لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا رصدتها، وعين البصيرة التي تنفذ من خلال هذه وتلك إلى النفس الإنسانية التي تمنح كل شيء معناه، وهو نوع كتب عليه أن يختار وأن يتمهَّل في اختياره، مُهتديًا لا بمُقتضيات الشكل «الجمالي» وحده (فهذا يتغيَّر من فن إلى فن ومن عصر إلى عصر ومن لغة إلى لغة) بل أيضًا بمُقتضيات الجمهور الذي يخاطبه، أو القارئ

الذي يتوقَّع أن يقرأ ما كتب، أو المشاهد الذي يتوقَّع أن يُشاهد عمله المسرحي، وقد يبدأ بالعام والأساسي الذي لا خلاف عليه، مُسترشدًا بتقاليد الفن الذي يمارسه، ثم يُطوِّر بعضًا منها أو يُحوِّلها تحويلًا رفيقًا أي تحويلًا لا يمسُّ الأساسيات، وقد يختار أن يبدأ بالتطوير مُتوجهًا إلى شريحة معينة من القرَّاء أو المشاهدين أو «المتلقين»، شريحة يَثق في تقبُّلها لتطويره وإقبالها عليه، آملًا أن يزداد عدد أفراد هذه الشريحة، مثلما فعل الرواد في القرن العشرين، ولكنه في كل حال يعمل حسابًا للقارئ ويضعه نصب عينه، فهو حين يكتب فإنما يخاطب شخصًا ما، واعيًا أو دون وعي، وما الكتابة إلا سجلُّ الكلام، وأنا الآن أخاطب قارئًا تتوافر فيه صفات قد لا تتوافر في جمهور المسرح، فالأرجح أنه يحب القراءة، وربما كان يحب الكتابة أيضًا؛ أي إنه قد تلقى قدرًا لا بأس به من التعليم وصل به إلى مرحلة النضج، وهو يحب اللغة العربية، وأنا أقصد الفُصحى لا العامية، بل وأتصور أنه ممن يقرءون الصحف، وربما كان من بين القراء مَن قرأ بعض كتبي المنشورة على امتداد أربعين عامًا، وقد لا يتوافر هذا أيضًا في جميع مُشاهدي المسرح، فإذا تفاءلت قلت إن كتابي قد يقرؤه مئات القراء، ولكنني لا أتفاءل حين أتوقع أن يشاهد مسرحيتي آلاف المشاهدين، والواجب على كاتب المسرح إذن أن يحدد لنفسه ملامح جمهور مجهول يضم شتى درجات التعليم والوعي والخبرة، وشتى المشارب والأذواق، ناهيك بشتى الاتجاهات المذهبية في عصر تكاثرت فيه المذاهب واختلطت، وتشابكت فتعقَّدت!

ولذلك لا بدَّ لكاتب المسرح من الحياة العملية في المسرح! لا بد له من ذلك حتى يعرف طريقه الحق إلى قلوب الجمهور، ولقد سبق لي الحديث في **واحات مصرية** عن «الموضوعات» التي تمثل القواسم المشتركة بين الجماهير، تفسيرًا لا تبريرًا للفشل الجماهيري الذي صادفتْه مسرحيتي الغربان، فعوامل الفشل لا تقتصر على الموضوع، أو على أسلوب التقديم والإخراج، أو على المُمثلين ومدى شعبيتهم، أو على مكان العرض وموعده، بل هي تتضمَّن هذه العوالم مُجتمعة، وإلى جانبها بل على رأسها — القُدرة على التواصُل مع الجمهور، مما يقضي بضرورة التفرُّغ لذلك إذا كان يُريد النجاح الجماهيري حقًّا، مثلما فعل لينين الرملي في المسرح، ومثلما فعل محفوظ عبد الرحمن في التليفزيون، ومصطفى محرم في السينما وأخيرًا في التليفزيون، فالاختيار الذي واجهناه — وأقصد بالجمع سمير سرحان وفوزي فهمي وعبد العزيز حمودة وأنا — لم يكن اختيارًا سهلًا؛ فإما أن نتفرَّغ لكتابة المسرح ونُضحي في سبيل ذلك بالكثير من نشاطنا الأكاديمي (كل في مجاله) أو نُواصل كتابة المسرح ونتوقَّع أن يأتي يوم يكتشف أحد فيه

ما تركناه من نصوص فيقدمها! وأما علامة التعجُّب فمعناها أن هذا محال؛ لأنَّ الدنيا تغيرت وتتغير بصورة تجعل القياس على الماضي مستحيلًا، فلم تشهد البشرية على امتداد تاريخها الطويل شاشة تعرض صورًا متحركة داخل البيوت وبالألوان، تُغني الشخص عن الخروج في زحام المواصلات، وإنفاق الأموال التي يحتاجها أولاده، ولم تَشهد مصر قبل هذه الأيام هذا المستوى من الكد والعناء في سبيل الرزق، وهو الذي يجعل العائد إلى منزله آخر اليوم يتمنَّى ألا يغادره حتى صباح اليوم التالي!

ومع ذلك فجمهور المسرح كبير؛ لأن أهل مصر «أهل لهو وطرب وسرور» كما قال ابن بطوطة، وفي ظنِّي أن هذه خصيصة مصرية قديمة، لم تفلح جهامة التاريخ في طمسها، وكثيرًا ما أعجب وأنا أقرأ تاريخ مصر، وخصوصًا **بدائع الزهور في وقائع الدهور** لابن إياس **والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** لجمال الدين أبي المحاسن (وهو ابن تغري بردي الأتابكي) أو كتب المقريزي مثل **الخطط وإغاثة الأمة، أو الكامل في التاريخ** لابن الأثير (وقد نَشَرْتُ مختارات كثيرة منها جميعًا في مكتبة الأسرة في التسعينيات من القرن العشرين)، أقول إنني كثيرًا ما أعجب لما كابده هذا الشعب وما مرَّ به من بلايا ومِحَن وأرزاء، وما تعرض له من غزوات وحروب ومجاعات، ثم لم يفقد قوته، لا بل ولم يَفقد إقباله على الحياة وحبه لها، بسبب تلك الخصيصة المصرية القديمة المرتبطة بفن المسرح؛ فالمصري الصميم رجل أقنعة، يُؤمن بأن الحياة الدنيا «لهو ولعب» وبأنَّنا نقوم بأدوارنا المرسومة لنا (والمكتوب علينا أن «نلعبها») ونحن ندري أنها أدوار، وأن وراءها حياة أخرى «خير وأبقى»، وأنَّ اجتياز هذا المعبر الدنيوي يتطلَّب الصبر على الشدائد بروح تعرف معنى «اللهو واللعب»، فالذهن اللمَّاح يلتقط التناقضات ويَضحك منها، ويرى في مفارقات الدنيا دليلًا على أنها عابرة كاذبة مثل أدوار المسرح، والمصري الصميم يرتدي قناع الحزن في المأتم، وتُولوِلُ النادبات الكاذبات، ويَجتمع الناس في تمثيليات العزاء، ثم ينفضُّ الجميع ويعودون لتمثيل أدوار أخرى، مثل أدوار الخنوع أو القهر، وفي أعماق كلٍّ منهم إحساس بزيف هذا وذاك، وأذكر أن أحد أصدقائي الخُلَصاء ذهب إلى «البلد» لتقديم العزاء في وفاة ابن أخيه، ولما انتهت المراسم بعد صلاة العصر، وجد أن الوقت قد تأخَّر فقرر قضاء الليلة في منزل أسرته، وعندما ذهب إلى المسجد ليُصلي المغرب وينتظر العشاء، جريًا على عادتنا في البلد، إذا بمن يدعوه إلى حضور زفاف أحد معارفه المقربين، فلم يتردَّد بل ذهب بعد صلاة العشاء إلى حفل الزفاف، وعندما لامَهُ أحد أفراد الأسرة على ذلك قائلًا إنه جاء للعزاء والتعبير عن حزنه فكيف يُشارك في الزفاف الذي هو فرح

وسرور، كان ردُّه «هذا واجب وذاك واجب.» وعندما علمتُ بما حدث وجدتني أترجم هذه العبارة إلى صيغة أخرى هي «هذا قناع وذاك قناع»، وفي ظني أن الرجل لم يجد تناقضًا بين الحزن والفرح، وربما لم يكن في أعماقه يَصْدُقُ في هذا أو ذاك؛ فهو يلعب دورًا هنا ودورًا هناك، وقد يكون إحساسه الصادق هو أنَّ الموت رحمة وأن الفرح (الزفاف) بداية عذاب، أو قُل إن الحزن والفرح قناعان يتداولهما الإنسان ويستبدل الواحد بالآخر في كل لحظة من لحظات حياته، فلا معنى للغضب من أن يلبس أحدهما في الظهيرة ويَلبس الآخر في المساء، وهي نظرة أقرب عندي للروح المصرية الصميمة.

وإدراك هذه الروح كفيل بالاقتراب من طبيعة الجمهور التي أعيت الباحثين، وجذورها التاريخية أوضح من أن تُذكر؛ فالبعض ينشدون التسرية في المسرح التجاري — في الكوميديات أو الهزليات — ثم لا ينفرون من المسرحيات الجادة أو المأساويات لأن مطلبهم لا يقتصر على الضحك بل يتضمَّن تبديل الأقنعة أو تبادُلها أو المشاركة في ذلك، وهو ما يُهيئ للمُشاهد متعة الوعي بتمثيلية الحياة، بل وتعميق هذا الوعي، كما أن إدراك المفارقات والضحك منها دليل على الصحة النفسية أو هو سبيل إليها؛ فالوعي مثل الضحك خصيصة إنسانية، ولقد تعلَّم المصري عبر تاريخه الطويل فنَّ استبدال الأقنعة، وحذق فنَّ التمثيل في حياته، ووجد في التمثيل منجاة من بطش حكام أجانب لا يُقيمون للفرد العادي وزنًا، فسخر منهم وضحك، وتجلَّى ذلك في لغته الدارجة التي ابتعدت كلَّ البُعد عن الفُصحى بمظاهر جدِّها ووقارها، فأصبحت الدارجة لغة حياة حافلة بدلائل وعيه وعمق استيعابه لتاريخه الأليم؛ فالبعض يراوغ ويخاتل ويضحك ممَّن يظلمونه، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يرى في «الفهلوة» أو «الفتاكة» أو «الفكاكة» امتيازًا نادرًا، والطالب قد يظنُّ أنه أذكى من المعلِّم ويتحايل للنجاح دون علمٍ أو بأقل مجهود، والعامل قد «يلكْلِكْ» إذا استطاع ذلك في غيبة الرقابة، وقد «يعُكُّ» وقد «يُلبِّخ» إن ضمن الإفلات من المساءلة، لأنه لا يأخذ شيئًا مأخذ الجد؛ فالظالمون غير جديرين بالإخلاص لهم في شيء، وحتى بعد أن تغيرت الأوضاع بعد الثورة، أصبح «الخرِّيجون» يُريدون التوظُّف في «تكيَّة» الحكومة حتى ينعموا بالكسل فيتقاضوا رواتب دون عمل يذكر، وهذه العيوب مثالب ولا شك تعوق «بناء الوطن»، ولكنَّها من وجهة نظر أخرى تُفصح عن مدى تغلغل الأقنعة المسرحية في حياتنا، وفي لغتنا، ويكفي أن تتأمَّل الألفاظ العامية التي أوردتها عامدًا في هذه الفقرة!

ولست أزعم أنني أول من يتحدَّث عن هذه الأقنعة أو أنني أدقُّ مَن وصَفها، ولكنَّني أحاول فحسب أن أُبين أهميتها لكاتب المسرح من حيث كونها المدخل لفهم الجمهور الذي يتوجَّه إليه بالخطاب؛ فالوعي بالقناع هو الذي يُحدد ما نسميه «بالنغمة» (tone) أي رنة الصدق في الحديث أو الكذب أو السخرية وما إلى ذلك بسبيل، سواء أكان ذلك من جانب المتكلِّم أم السامع، فإذا كان على الممثل أن يرتدي قناعًا وأن يُقنع الجمهور بأنه تَوحَّد مع صاحب ذلك القناع بالحركة الجسدية ونبرات الصوت ارتفاعًا وانخفاضًا وحدَّةً وخُفوتًا، وإذا كان على المخرج المسرحي أن يَستعين بالسينوغرافي ليضع له من المناظر ما يوحي للجمهور بصدق تصوير المكان أي بإعداد قناع بصَري مُقنِع، فإنَّ عمل الكاتب لا يتوقَّف عند كتابة الكلمات التي ترسم أقنعة كل شخصية، بل عليه أن يذكر أنه يوجه هذه الأقنعة إلى جمهور يَرتدي معظم أفراده أقنعة اجتماعية، وأن يُحاول عن طريق الحدث المسرحي إسقاط هذه الأقنعة أو خلخلتها وهزها على الأقل، ولو إبان فترة العرض المسرحي فقط؛ وذلك بإقامة علائق بين الأقنعة المسرحية وما تخفيه أقنعة الجمهور، فهو يشبه في هذا الطبيب النفسي الذي يعمل على اكتساب ثقة المريض بطرائقه الخاصة فإذا نجح في ذلك تمكَّن من تجريد المريض تدريجيًّا من أقنعته أي من دروعه التي يَتحصَّن خلفها حتى يكشف لعين الطبيب الفاحصة عن العلَّة، وربما كتب له الشفاء بعد ذلك. أما العلائق التي يُقيمها الكاتب المسرحي فتتمثَّل في مدِّ حبال العناصر الأولية والعالَمية (primes & universals) أي تلك العناصر البشَرية التي يشترك فيها الناس جميعًا وتتخفَّى خلف الأقنعة، وهي العناصر الكفيلة بأن تشد الجمهور شدًّا إلى الأقنعة المسرحية، وتُهيئ لأفراده درجة معقولة من التصديق أو تعمُّد عدم التكذيب مؤقتًا — وهو ما يسميه كولريدج: (the wilful suspension of disbelief) أي «تجميد التكذيب عمدًا» فإذا نجح في ذلك يكون قد اكتسب ثقة الجمهور ودفع أفراده إلى المشاركة الوجدانية (في المأساة) أو الذهنية (في الملهاة) طيلة العرض أو في معظم فتراته، ويُصبح بإمكانه أن ينفذ إلى ما تخفيه الأقنعة التي يضعها أفراد الجمهور، بحيث يصل في النهاية إلى خلخلتها أو إسقاطها إن توافرت لديه البراعة الكافية، ولو لفترة زمنية محدودة.

وإذا كانت هذه هي القاعدة العامة أي القاعدة التي تَنطبق على كلِّ عمل مسرحي ناجح وتصدق على الجمهور في كل زمان ومكان، فإنها ذات طابع خاص في مصر، بسبب أقنعتنا الخاصة، وفي هذه الأيام تحديدًا بسبب ما أوجدته ثقافة نهاية القرن العشرين من أقنعة التقوى والورع وأقنعة النصوص المقدسة، وتجلِّياتها التي تتبدَّى في

أبسط صورها في قشور السلوك «الديني» [— ألو! — سلامو عليكم!] ومظاهر الحشمة (الطرحة والتوربان للمرأة، والجلباب الأبيض والزبيبة للرجل)، ولذلك فإن كاتب المسرح يجد أن الأقنعة التي يواجهها تشبه الدروع الصُّلبة أو القلاع الحصينة، فهي لا تَقتصر على الزرود النفسية، بل تتضمَّن آليات دفاع عن النفس تُقاوم مُحاولته لاكتساب الثقة، ولا مَناص له إن أراد النفاذ منها من استعمال أسلحة من نفس النوع حتى تستطيع الاختراق برفق ورقة.

والنموذج القريب على ما أقول هو المسلسل التليفزيوني عائلة **الحاج متولي** (٢٠٠١م) الذي قدمه الكاتب المبدع، مصطفى محرم، خرِّيج قسم اللغة الإنجليزية، الذي أراد بما قدَّمه إثارة قضية بالغة الأهمية وهي تعدُّد الزوجات في مجتمع مُنقسم على نفسه؛ إذ انبرى المُتحرِّرون يشتمون المسلسل لأن بطله متزوج بأربعة نساء، وتفنَّنوا في إدانته، وانبرى عدد محدود لتبيان مُوافقة ذلك للشريعة، وقال فريق ثالث إنَّ المسلسل يضع النقط على الحروف — كما يقال — فهو يكشف عن حالة التناقض والبلبلة التي تعيشها المرأة التي ترتدي قناع الإسلام (الطرحة) ثم تَرفُض أن تعيش في عصور الإسلام الأولى، وقالوا إن الطرحة سلوك ظاهري مثل مراسيم الزواج والطلاق، وإن كان أقل كثيرًا في دلالاتها، فهي زيٌّ عربي قديم أُمرت الحرائر أن يضربن به على جيوبهن (أي أن يغطين به صدورهن) تمييزًا لهن عن الإماء، حتى يُعرَفن فلا يؤذين، وليست من شرائط العقيدة أو أركان الإسلام الخمسة، وليس على تاركها حدٌّ، فتركها ليس من الكبائر، وارتداؤها قديم وشائع، ولكنَّ الفتاة تكتفي بها وترفض بقية ما جاء في تراث الملابس أو الاختلاط بالرجال وما ينصُّ عليه الإسلام من الطاعة للزوج وولي الأمر في كل شيء (إلا الشرك بالله) كما تَرفض أن تعود إلى عصر الحريم التركي أو عصر الإماء العربي، بل وتصرُّ على المساواة الكاملة مع الرجل ومُزاحمته في كل مكان. أما أنا فكنت أرى في المسلسل نغمة تورية ساخرة (irony) يقصد بها الكاتب عكس ما يقوله في المسلسل برنَّة تحدٍّ ساخرة (tongue in the cheek) حتى يثير الناس ويُنفِّرهم من مثل هذا الاستغراق في الملاذ الجسَدية ولو كان حلالًا، ولقد صارحت المؤلِّف برأيي ووافقني عليه، ولكن الهجوم على المسلسل أثبت أن أقنعة اليوم العجيبة استعصت على الانتزاع، وكشف عن صلابة الهيكل العام، على هشاشته الظاهرة، فكأنَّما أصبح على كاتب المسرح أو كاتب الدراما أن يُواجه فيه تناقُضات ثقافة حائرة ممزَّقة الأوصال!

ولقد صادفت أنا هذا القناع العجيب عندما كَتَبْتُ مسرحية **كيلو بودرة** التي استغرقت مني وقتًا أطول مما ينبغي بسبب تعقيدات «أقنعتها»؛ فالبطلة فتحية هي

نفسها الغازية في مسرحيتي **الدرويش والغازية** بعد أن تقدم بها العمر واكتسبت صفات أم ياسين التي تحدَّثتُ عنها بإسهاب في **واحات مصرية**، فهي تُمثِّل جماع قواعد الخلق الجديدة (mores) ولديها سند متين من شخصيتها المهيمنة، ومن الغريب أنها عندما اكتسبت أبعاد «أم ياسين» أصبحت ترتدي قناعًا شفافًا يكشف عن شخصيتها الجديدة — تلك التي تؤمن بالصراحة التامة، ولا تعترف بالمحظورات الاجتماعية (taboos) ما دامت قد تسلحت بالنصوص المقدَّسة، ولا يجرؤ أحد على الاعتراض على كلامها ولو مال إلى البذاءة وفقًا لتعريف الطبقة المتوسطة خشية أن تناله بلسانها فلا يسلم من سخرية الساخرين! وأنا الآن في حيرة من أمري: هل يمكن تقديم هذه الشخصية على المسرح في مصر — كما هو ودون تشذيب وتهذيب وتنقيح؟

٦

ولكن ألا نستطيع أن نَتساءل — بالمنطق نفسه — إن كان الفنان قادرًا على تقديم أي شخص حقيقي يعرفه في صورة «شخصية» درامية دون تعديل وتبديل؟ إنَّ للسيرة الأدبية مزية كبيرة هي الصدق، فالكاتب يستعيض فيها بصدق التاريخ عن الصدق الفني — بمعنى أن الأمانة في النقل عن الحياة تُعفيه من أمانة الالتزام بقواعد فنه، فقد تقتضي هذه القواعد انتقاء خصائص دون خصائص، أو ابتداع أحداث معيَّنة تتجلى فيها الخصائص التي يريد الفنان التركيز عليها، أو إقامة علائق لم تَقُم في الواقع بين الشخصية المصورة وغيرها من الشخصيات، أو بينها وبين الراوي، وفي هذا وذاك جور على الأمانة التاريخية؛ فالراوي في السيرة الأدبية مؤرِّخ لحياته وحياة الآخرين، ودور الفن عنده يقتصر على الاختيار والتفسير والتنظيم، ومع ذلك فإن هذه العوامل الثلاثة نفسها عوامل يشترك فيها المؤرخ مع الكاتب (أي مع مؤلف القصص الخيالية) مهما يكن من تحرِّي الأول للصدق الموضوعي ومن حرية الأخير الظاهرة في ابتداع الأحداث وإقامة العلاقات؛ فكلٌّ منهما يَختار ما يكتب عنه من بين أكداس من المادة الحياتية (الحيوية) المُتوافِرة، وليس في استطاعة المؤرِّخ مهما يَبلغ حرصه على الإحاطة والشمول أن يذكر كل شيء، فإذا كان مُعاصرًا لما يُؤرخ له فقد تفوته أهمية حادث شهده، وقد يفُوته العلم بوقوعه أصلًا، وقد يسمع بوقوعه فيشك في صدق ما سمع فلا يثبته، وكل منهما يفسر ما يراه في ضوء مفاهيمه وفكر عصره؛ فالتفسير يخضع لفكر المؤرخ ومنطق العصر معًا، ولذلك تتعدَّد صور «الحقيقة» في أعين المؤرخين وفي كتاباتهم، بل قد تتفاوت تفاوتًا

كبيرًا من عصر إلى عصر، وكل من المؤرِّخ والكاتب «يُنظِّم» المادة الحياتية وفقًا لمنهجِه في تحليل ما يحدث، فقد يأتي بما يراه أسبابًا قبل ذكر الحادثة التي لا خلاف عليها، فتتَّخذ صورتها شكلًا جديدًا، بل قد تَختلف تمامًا عما نعرفه أو عما جرى العرف عليه، فالقتْل بصورته المُطلقة جريمة، لكنه قد يُصبح قصاصًا، أو ثأرًا من قاتل أو ظالم، أو يُصبح إزالة لرأس الفساد، بل قد يكون مَفخرة في الحرب، وباستطاعة المؤرِّخ عن طريق التنظيم أن يتحكَّم في التفسير وأن يتحكَّم مِن ثم في تصوير الوقائع؛ وبالتالي في رصد «الحقائق» التي قد تبدو وكأنما لا خلاف عليها.

وهكذا فإذا قلنا إن كاتب السيرة الأدبية مؤرِّخ موضوعي لم نكن نُعفيه من التدخُّل فيما يَرصده من مادة، وإذا قلنا إن الفنان مُبدع يتناول مادة خيالية لم نكن نُنكر الأصول الواقعية والحياتية لإبداعاته، وعندما ذكرت خصال البواب في بداية هذا الفصل، ومهَّدت لإشارتي إلى إدمانه الكذب بأن تحدَّثت عن عين الكاتب وقدرتها على إقامة المسافات بينه وبين ما يرى ومن يرى بحيث يَستطيع أن يرى الكذب من وجهة نظر الكاذب نفسه وقد أصبح صفة «محبَّبة»، كنت في الواقع أُلمح إلى أن نقيصة الكذب قد تُصبح فضيلة الخيال حين ننظر إلى الكاذب باعتباره مبدعًا، فأعذب الشعر أكذبه، ومؤلف القصص الخيالية لا يزعم أنه يَروي قصصًا حدثت، فهو «كاذب» في كل شيء يَرويه وصادق في فنه وفكره كل الصدق مع نفسه، ولقد سبق أن ألمحت إلى أنَّ الخيال عنصر أساسي من عناصر حياة المصري الصميم، فلقد استعاض به على مرِّ تاريخه الطويل عن واقع مُرٍّ أليم، فأبدع حكايات **ألف ليلة وليلة** التي تسودها اللهجة المصرية وسُجِّلَتْ أي دُوِّنَتْ في مصر إبان القرن السادس عشر، واستعان به في فكاهاته التي اشتُهر بها بين الشعوب العربية بل وفي العالم كله، كما استفاد به في صنع الأقنعة التي تُعتبر دروعًا تحميه من غوائل الحياة، ولقد أَفَضْتُ في دور الخيال في الشخصية المصرية في مُقدمتين بالإنجليزية الأولى لترجمة رواية **وقائع حارة الزعفراني** لجمال الغيطاني، والثانية لترجمة **السماء السوداء** وهي المجموعة القصصية التي أبدعها محمود السعدني، ولن أضيفَ هنا إلَّا كلمات محدودة عن دور الخيال في صنع الأقنعة المصرية التي يُواجهها كاتب المسرح.

كان رشاد رشدي — رحمه الله — يقول: إنَّ كل إنسان يتكوَّن من أربعة صور: أنا الذي أعرفه وأنا الذي أجهله، وأنا الذي يَعرفه الناس وأنا الذي يجهله الناس! ولكن هذه الصور متداخلة إلى حدٍّ بعيد فالذي أجهله قد يجهله الناس أيضًا، وقد يكون أنا الذي أعرفه هو ما يعرفونه بفضل القناع الذي أضعه على وجهي طول الوقت، وكثيرًا ما أنظر

إلى السابلة في الطريق فأرى ما وصفه الشاعر وردزورث عندما زار لندن لأول مرة بأنه (volumes of mystery) أي «مجلدات من الأسرار» ويقصد بالتعبير أن كل وجه كتابٌ مغلقٌ على ما فيه من أسرار! لكنني كنت أجد في مصر أقنعة ليس من العسير أن تعرف ما تحتها إن بذلت الجهد اللازم لإدراك دور الخيال في حياة الفرد، ولنَقُل على سبيل التبسيط إن الخيال سوف يصنع للفرد الصورة التي يريد أن يرضى عنها وأن يعرفها الناس عنه، حتى ولو كان يتمتَّع بقدر كبير من الوعي يُمكِّنه من إدراك زيف هذه الصورة، وإذا صحَّ أن المقارنة أقدر إيضاحًا للصورة من التحليل (فبضدِّها تتبيَّن الأشياء كما يقول المتنبي) فلنا أن نُحاول ذلك بأن نضع صورة المصري بجوار صورة الإنجليزي مثلًا، فلكم شهدت من أبناء إنجلترا من هم على استعداد للاعتراف بجَهلِهم أو بضآلة ذكائهم، وأذكر أنني في أول عهدي بالعمل في إنجلترا انخرطت في مناقشة مع سكرتيرة تعمل في قسم الترجمة، ولما زادت المناقشة عن العبارات العامة وجدتها تَصمُت فجأة وتقول ما معناه إنها تأسَف لعدم مجاراتي في النقاش وأردفت قائلة I’m sorry! I’m not brainy! (أي إنني محدودة الذكاء) وأما المصري فما أندر أن تصدر عنه عبارة مُماثلة، وما أندر أن يَعترِف بجهله بالموضوع — أي موضوع — فهو على استعداد في معظم الأحوال لإبداء الرأي والإفتاء فيما يعرف وما لا يعرف! وكلُّنا يعرف رد الفعل المصري المألوف عند طرح سؤال ما، مهما يكن، بل حتى عندما تذكر ولو بصورة عابرة أنك مريض — إذ لن تعدم من يتطوع للإجابة أو لوصف الدواء الكفيل بشفائك، وقد دفعني ذلك إلى التفكير في علاقة ذلك بالقناع والخيال!

ولنَنظر أولًا إلى المثل الشعبي الشهير «أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة» أي إن التقدم في العمر يَزيد الخبرة أي يجعل الإنسان خبيرًا (بماذا؟) والله تعالى يقول: وما ينبئك مثل خبير، وإذن فإنَّ التقادم هو سبيل المعرفة، والتقادم الذي أعنيه هو «كر الغداة ومر العشي» (الذي «أشاب الصغير وأفنى الكبير» كما يقول أبو العلاء المعري) لا المصطلح القانوني أي (statute of limitation) فهو يأتي في نظر المصري بالحكمة و«اسأل مجرب ولا تسأل طبيب» وربما كان في هذا أصل نزوع بعض المِصريين إلى التظاهُر بالمعرفة أو — على الأقل — بالذكاء الذي قد يُغني عن استقاء المعرفة من الكتب. والحق أن المصري ذكي، بل قد يفوق ذكاؤه مُتوسِّط الذكاء عند شعوب كثيرة، ولكن التاريخ جعله يستعيض بخياله «الذكي» عن افتقاره إلى المعلومات الموثوق بها، فهو إما لا يجد السبيل إليها بسبب حرمانه من التعليم، أو أنها ممنوعة عنه لأسباب سياسية أو

اجتماعية، وليس له إلا أن يُعمل خياله ويسرف في ذلك وليس له من سندٍ فيما يَرسمه من صور سوى شذرات أحاديث سمعها من الناس، أو نتف من المعلومات غير المؤكَّدة التي تلقاها من أجهزة الإعلام، ولكنه ينسج منها نسيجًا كاملًا متجانسًا وينقله إلى غيره، ثم تدور القصة دورتها على الأفواه، وقد يسمعها مُنْشِئُها من جديد باعتبارها حقيقة مؤكدة أدلى إليه بها مَن هو مُطَّلِعٌ على بواطن الأمور! وعندها قد يقول القولة المألوفة «مانا عارف» التي تعني بالعامية المصرية «أَعْرفُ ذلك» أو قد تَصيح في أعماقه صيحة هاملت «يا لقُدرة رُوحي على التنبؤ!» ["Oh my prophetic soul!"].

وأما الجديد في هذا القناع القديم فهو ما أشاعه ما يُسمى بالخطاب الديني من يُسر حصول المؤمن على العلم اللدُني، وهو العلم الذي يتنزَّل على المرء دون قراءة، بل يأتي بالصلاة والصوم وطاعة الله وقد أحبَّ بعض المصريِّين هذه الفكرة وترسخت لديهم وخصوصًا بعدما انتشر «الدعاة» الذين لم يتخصَّصوا في الفقه ولا في أصول الدين بل يكتفون بترديد آي الذكر الحكيم مُنتزَعًا من سياقه وبعض ما يَسمعُونه من المتخصِّصين، وارتداء قناع الهداة الصالحين، وازدادت عناصر هذا القناع صلابةً عندما أقام هؤلاء القياس بين اليقين الذي يهبه الإيمان الديني، وهو يقينٌ مطلق ثابت دائم؛ لأنه قائم على منطق الروح وهو منطق الفطرة الإنسانية السليمة في كل زمان ومكان، وبين سائر أنواع اليقين، سواء ذلك الذي يقوم على العلم التجريبي، الذي يكتشف الإنسان به قوانين الطبيعة التي خلقها الله، أم ذلك الذي نستمدُّه من دراسات العلوم الإنسانية، ومن بينها اللغات، وهو يقين نسبي لأنه يتفاوت من دارس إلى دارس ومن منهج إلى منهج، إذ أصبح اليقين في كل شيء عنصرًا ثابتًا من عناصر القناع الجديد.

كيف يخاطب كاتب المسرح جمهورًا يرتدي كل هذه الأقنعة المركبة؟ إن من أشراط فن المسرح الذي نعرفه، أي الذي استوردناه من الغرب، مخاطبة جمهور على استعدادٍ لتلقِّي العمل المسرحي بذهن خالٍ من الأحكام المسبقة (with an open mind) لمدة ساعتَين أو ثلاثًا؛ أي جمهور ينزع أقنعته مؤقتًا حتى يُتيح لنفسه أن يتفاعل ذهنيًّا وشعوريًّا مع ما يشاهد وما يسمع، ونحن ننجح في ذلك في مصر حين نقدم مسرحيات أجنبية لأن المتفرِّج يعلِّق أو يجمد (suspends) أحكامه بسبب المسافة الثقافية التي تفصل بينه وبين ما يرى، وننجح حين نقدم أعمالًا تاريخية؛ لأنَّ المسافة الزمنية المفترضة لا تتطلب أي مساس **بالأقنعة**، سواء أكانت الأحداث تاريخية مباشرة (أو قل مُستوحاة من أحداث التاريخ) أم مستقاة من **ألف ليلة وليلة** وتراث الأدب الشعبي، حتى لو كان

العمل يتضمن «إسقاطات» على الحاضر، وننجح في الهزليات التي تُقيم مسافة ذهنية وشعورية مؤكدة بين العرض والجمهور بحيث تسمح ببقاء الأقنعة في أماكنها، وأما ما كنت أطمح إليه في مسرحياتي التي تستقي مادتها من حياتنا المعاصرة مثل **المجاذيب والدرويش والغازية** ثم **كيلو بودرة** (بخلاف **الغربان وجاسوس في قصر السلطان**) فلقد واجه مشكلة لا تكمن في تجميد الأقنعة، ناهيك بنزعها أو الوصول إلى ما تحتها، بل في التصدي لعناصر الأقنعة نفسها؛ فلقد كانت مواجهة هذه الأقنعة المركبة — ولا تزال — شغلي الشاغل.

ولا بدَّ لي الآن من إيضاح ما أعنيه بالتصدي لعناصر الأقنعة. سوف أفترض بدايةً أن معظم الأقنعة التي أواجهها في المسرح — أي في الصالة — تتكوَّن من أفكار رسخت في الأذهان حتى وصلت إلى حدِّ الاقتناع الكامل بها (وهي التي يُطلق عليها أهل الشام «القناعات» convictions) بعضها عام وشائع (مثل المعتقدات الدينية والاجتماعية الخاصة بالتمييز بين الجنسين مثلًا) وبعضها خاص يتعلق بتطبيق هذه الأفكار وتفسيرها من وجهة نظر كل فرد على حدة. ولأفترض ثانيًا أن معظم هذه الأقنعة «مُرَكَّبٌ» تتداخَل فيه الأفكار العامة مع الأفكار الخاصة بحيث يصعب على الكاتب أن يواجه الخاص دون التعرض للعام، وقد يكون هذا طبيعيًّا بل قد يكون القانون الذي يحكم صنعة أي كاتب مسرحي، ولكنَّ هذين الافتراضين يكتسبان أهمية بالغة عندما يتعرَّض الكاتب لمحاولة نزع الأقنعة عن طريق تفتيت بعض عناصرها حتى يصل إلى النفس العارية لإحداث ما يريد من تأثير، فقد يجد نفسه مُضطرًّا إلى «تكييف» نغمته في البداية لتتَّفق مع الأقنعة العامة، قبل أن يقدم على الدس في ثنايا تشكيله للمادة وتصويره لها بما قد يثير التساؤلات عن صحة بعض العناصر أو طرح الشكوك في بعضها، مع الإبقاء على إمكان ثباتها وصحَّتها في التحاور الدائب المتصاعد بين أطراف الصراع، وكلما تعمق التجاذب والتحاور (وهذا غير الحوار) بين الأطراف ازداد انغماس المشاهد فيما يشاهد ويسمح وربما نجح العمل في الوصول إلى نفس المشاهد من وراء القناع، وذلك أقصى ما يتمنَّاه الكاتب حتى إذا كان واثقًا من أن المشاهد سوف يعيد وضع القناع على وجهه والتدرع به بقوة بعد إسدال الستار! والواضح أن الكاتب ذا الرؤية الخاصة يواجه عملًا شاقًّا في «التعامُل» مع هذه الأقنعة، فإذا كان عليه أن يواجه الجمهور في عرض حي في المسرح تضاعفت مشقَّة عمله، بسبب تضافر عوالم أخرى في تقديم كلامه (أي مادته الفنية) إلى الجمهور، مثل المُمثلين وعناصر الإخراج من حركة ومناظر وموسيقى، وهي العوامل التي

قد تُضعف من عمله أو تدعمه، وربما وجد السلامة في نشر النص أو هجر المسرح إلى فن يستطيع فيه أن «يتعامل» مع الأقنعة دون ضغط الآنية المسرحية، قانعًا مثل الشاعر أو الروائي بمئات بدلًا من آلاف القراء، وآملًا أن يزداد عدد قرائه على مر الزمن، وهو الأمل الذي كثيرًا ما يكون في حقيقتِه سرابًا خادعًا، فالقراءة عادة منقرضة في بلادنا، والفصحى مغتربة بين أهلها، ويزداد اغترابها يومًا بعد يوم، ولكن الكاتب يُواصل الكتابة مهما يكن مصير ما يكتب، وما هذه الملاحظات إلا ثمار تأمل الماضي الذي لا يتكرَّر أبدًا! وأذكر أنني عندما قرأت كتب أحمد أمين في مُنتصَف الثمانينيات قلت في نفسي لو عاش هذا الرجل في بلد آخر لأقاموا له تمثالًا أو لأطلقوا اسمه على مآثرهم الخالدة، ولكن الأقنعة أوجدت من يهاجمه، وبرز من الأراذل من يطعنون في عبقريته، حتى أصبح الصمت عن ذكره فضيلة، ولم تعد صورته تنشر إلى جوار طه حسين والعقاد وغيرهما، وكاد أن يبتلعه بحر النسيان، بسبب طغيان الأقنعة الجديدة.

٧

وإذا كان حديثي عن الأقنعة يبدو غامضًا؛ لأنه يُعمِّم ولا يُخصص، فسوف أركز في هذا الجزء على أقنعة معينة لأشخاص عرفتهم على امتداد عشرات السنين، واقتربت من بعضهم اقترابًا شديدًا، إما بسبب «الظروف» التي جمعتني بهم في العمل أو في غير العمل، وإما لرغبتي في استكناه ما تُخفيه الأقنعة وطلبي معرفة تلك الخبايا، وبعض هذه الأقنعة رقيق أو هو شبه شفاف، وبعضها غليظ مُصمت مُركَّبٌ معقَّد، وسوف أتناول هنا النوعين جميعًا، دون أن أنتهج منهج الباحث العِلمي في التصنيف والتبويب، بل سأرصد الصور التي تلُوح لي وتلحُّ على ذهني رغم افتراقي عن أصحابها وما يَفصلنا من مسافات، وهي التي أطلقت عليها صفة «اللوحات»، أو الحكايات وفقًا لقانون التداعي الحر المعروف، ولقد سمحت لنفسي بابتسار الأسماء أو حذفها دون التفاصيل، فأصحابها يعيشون بيننا وقد يتأذَّون من هذا الحديث الصريح — وأخشى ما أخشاه أن تُفصح التفاصيل عما أخفيته بإخفاء الأسماء الحقيقية.

القناع الأول تَرتديه فتاة تتلمذت على يدي يومًا ما، ثم عملت بالتدريس فترة بعد التخرج، ثم ساقها طموحها إلى إعداد رسالتي الماجستير والدكتوراه في نهاية المطاف، وكانت تستعيض عن تواضُع مستوى ذكائها وفطنتها بالقراءة وتجميع المعلومات، ولو أن مستواها في ذلك المسعى كان مُتواضعًا هو الآخر، ولكنها تسلَّحت بالصبر فدأبت على

مخالطة الأكاديميين تَلتقِط من أفواههم الأفكار، وتختزن في ذاكرتها ما يُمكن أن يفيدها في دراستها العالية، وكانت في السادسة والعشرين عندما التحقت بالدراسات العليا المؤهلة للماجستير، وكنت أنا قد عدت لتَوِّي من إنجلترا أقضي ساعات طويلة مع طلابي ولا أَضِنُّ عليهم بالشرح وإعادة الشرح، وكنت ألاحظ أنها تكتب كل كلمة أقولها، بل وتُسجِّل أسئلة الطلاب لي وإجاباتي عليها، فتوسَّمت فيها خيرًا ثم انقطعت أخبارها إلى أن عدت لمشاهدتها والحديث معها عرضًا في الثمانينيات، ثمَّ توثقت علاقتنا بعد الجراحة التي غيَّرت من مظهري، وأخيرًا وبعد عشرين سنة ونيِّف من الصبر والمثابرة حصلت على الدكتوراه، وما لبثت — وقد ناهزت الخمسين — أن عُيِّنَت مدرِّسَة في إحدى الكليات بجامعة إقليمية.

وكان سبب توثيق العلاقة حاجتها إلى المراجع والمشورة العِلمية، فكانت تزورني أو تُحدِّثني تليفونيًّا وكان الحديث يتشعب ويتفرَّع، فالحديث ذو شجون كما يقولون — حتى استطعت أن أرسم صورة هي أقرب ما تكون إلى ما هي عليه في الواقع، وأن أتبين بوضوح ملامح القناع الذي ترتديه، فهي في الواقع «متوسِّطة» (mediocre) في كل شيء، في الطاقات الذهنية (الفِكرية والإبداعية واللغوية) والنفسية (رحابة الصدر وسعة الأفق) وفي الجمال والمظهر فهي غير ذات حُسْنٍ، عظيمة الجرم ذات طول فارع، وأما قناعها (persona) فكان يضمُّ ضروبًا منوعة من الصفات التي تتناقَض مع الواقع، ولقد شهدت بعض مراحل تكوين هذا القناع، فلم يكن في البداية إلا صورة مؤقتة لطموحها ولما تتمنَّى أن تكونه؛ إذ كان يقول إنني جميلة ومُجتهدة وذكية وأُبَشِّر بالخير وعندي بعض المواهب، وبعد خطبة غير موفقة، أي لم تؤدِّ إلى الزواج، أصبح القناع يقول — إلى جانب ذلك — إنني عروس مثالية أتمتَّع بأسمى الأخلاق وأفضلها، وكانت تُسِرُّ إليَّ برغبتها في أن تَقترن بشاب لم يسبق له الزواج، وكنت أتعاطَف مع رغبتها المشروعة، لكنَّها ما إن حَصَلَتْ على الدكتوراه حتى أصبحت الصورة المؤقتة صورة دائمة ثابتة لا تتغير بتغير الأحوال ولا بتقدمها في السن، ولم أكن أستطيع أن أبين لها صعوبة الإصرار على الاقتران بشابٍّ يصغرها بسنوات كثيرة؛ إذ كان قناعها يُؤكد لها إمكان حدوث ذلك، بل كانت كثيرًا ما تقصُّ عليَّ أقاصيص من «تقدم» لخطبتِها فرفضته لأنها اكتشفت أنه سبق له الزواج، وكانت تصف هؤلاء بأنهم أزواج «سكند هاند» (second hand) أي «نصف عمر» وهو تعبيرٌ مَمجوج فالإنسان ليس سيارة، ثم حدث ما يشبه المعجزة حين تردَّدت أنباء خطبتها إلى شاب يصغرها ولم يسبق له الزواج ولا حاجة به إلى الأطفال، فحمدتُ الله وهنَّأتُها مع مَن هنَّأها من الأصدقاء.

ولم تمضِ شهور حتى تدخل القناع! إذ كلَّمتني بالتليفون لتقول لي إنها فسخت الخطبة؛ لأنها اكتشفت أن خطيبها يطمع في شقتها، أي يريد أن يُقيم معها، فهي تعيش بمُفردها في شقة الوالدَين اللذَين تُوفِّيا، وإنها لا تَقبل إلا من يُريدها لنفسها لا للشقة، ثم عَدَّدتْ مناقبها (عناصر القناع) وكانت في شبه ثورة، فانطلقت تهاجم الغش والخداع، وكيف أن خطيبها كان يتحدَّث عن الحب والإعجاب وهو يُمنِّي نفسه بالشقة، وقلت لها بعد أن أفرغت شحنة الغضب فهدأت: «وما العيب في أن تعيشا معًا في شقتك؟ ألم يَسمح المجتمع بالمساواة بين الرجل والمرأة فأتاح لك جميع مزايا الرجل القديمة من التعليم والعمل والاختلاط؟ لماذا لا تسمحين إذن بالتعاون معه على مواجهة تكاليف العيش؟» ولكنها عندما ردَّت عليَّ كان القناع هو الذي يتكلَّم؛ إذ قالت: «أفلا يحمد الله أنني قبلتُ الزواج منه وأنا الدكتورة فلانة؟ أفلا يُقدِّر قبولي أن أظهر معه في المجتمع؟ ثم إنه ليس وسيمًا ولا جذابًا … بل هو أقصر مني وأنحف! لقد قدمتُ تنازلات كثيرة، وكان عليه قبل أن يطمح في الاقتران بي أن يُعد لنا عش الزوجية اللائق حتى نبدأ حياتنا معًا». وكدتُ أضحك من تعبير «العش» وما أعقبه من أمل في البداية الجديدة بعد الخمسين، ولكنَّني تمالكت نفسي وأصررت على أن أنصحها بالتروِّي مع إدراكي لصلابة القناع، وهو قناع شفاف كما قلت، قناع رقيق لا يَصعُب على العين أن ترى الواقع من تحته، ومع ذلك فلقد انتصر، وما زالت صاحبتنا تبحث عن شاب تَجتمع فيه كل الصفات «المطلوبة» لإرضاء القناع العجيب، بعد أن أضافت مطلبًا جديدًا يتَّفق مع «الطرحة» التي أصبحت تُرتديها، وكانت قد جرَّبتها من قبل ثم عدلت عنها، ولكن إضافتها مطلب «الاستقامة» هذه المرة أكَّد لي أنها لن تتراجَع الآن أبدًا، وقالت لي حين قابلتها مصادفةً (بعد ارتدائها القناع الجديد) برنةً تفاؤل وبسمة صافية «ما أكثر الشبان من ذوي الاستقامة الذين يَبحثُون عن الأخلاق … والأخلاق فقط!» ووافقتها بسرعة وإن همس في خاطري هامِس خبيث أضاف «ولا يملكون ثمن شقة أو إيجارها!»

وأما القناع الثاني فيَنتمي لرجل تنبَّه لوجوده بعد الخمسين فنزعه وألقاه وقرَّر الحياة في الواقع، بعد أن ذاق منه الأمرَّين، وكان صاحبنا قد بدأ حياته عاملًا يدويًّا؛ إذ فاته قطار التعليم، ولكنه كان ينتمي إلى الطبقة المتوسِّطة فعزَّ عليه أن يقنع بذلك، ولم تكن الفرصة مُتاحة في الستينيات للعمل الحر أي للتجارة أو ما كان يُسمى بنُظُم «الرأسمالية الوطنية»، وبعد سنوات من العمل اليدوي لاحت له فرصة الانخراط في العمل الحزبي، وكان الحزب الوحيد المتاح هو «الاتحاد الاشتراكي»، فانضمَّ إليه بناءً على نصيحة

قدمها له كاتب مرموق يَعطِف على طموحه، ولما كان تمثيل العمال واجبًا في الوحدات الصغيرة لذلك الحزب فقد اختاره رئيس الوحدة لتمثيل العمال لما رأى فيه من الجد والاجتهاد، وسرعان ما أثبت جدارته بالعمل الحزبي فارتقى في سلَّم المناصب الحزبية بعد أن دعَّم علاقته بالمسئولين «الواصلين»، فأصبح الموظَّفون في الهيئة التي يعمل بها يخشون جانبه، بل إنهم نقلوه إلى وظيفة كتابية اسمية، أنقذتْه من العمل اليدوي، وأتاحت له حرية الحركة ومراقبة العاملين والإبلاغ عن أي تقصير منهم، أو أي انحراف عن الخط السياسي القويم، وذاع صيتُه في الوحدة، وساعدتْه الظروف من جديد حين ترقى رئيس الوحدة فأصبح عضوًا في اللجنة المركزية؛ ومن ثم عيَّنه نائبًا لرئيس الوحدة «المثقف»، وأوصاه بأن يكون العين التي يبصر بها كل ما يدور في تلك الهيئة الكبيرة ذات الحساسية السياسية، ونفَّذ صاحبنا ما طُلِبَ منه وهو راضٍ قرير العين، فلبس قناع الاشتراكية المتين، وكان — والحق يقال — صادقًا مع نفسه؛ إذ كان يؤمن بكل ما يقال، ولكن الإحساس بالقوة لديه ازداد فكان يستطيع أن يَقتحِم غرفة رئيس مجلس الإدارة ضاربًا الباب بقدمه (كما قال لي) فيقوم الرئيس مُهَلِّلًا مُرَحِّبًا، وكان يحضر اجتماعات مجلس الإدارة وتَلتقِط أذنه كل صغيرة وكبيرة مما يدور من مناقشات، وأصبحت لديه مفكرة يدوِّن فيها ملاحظاته، واكتشف آنذاك قدرته على الكتابة، وعَشِقَ ذلك الفن الذي كان جديدًا عليه، وبدأ يعرف لونًا آخر من ألوان الطموح؛ ألا وهو طموح الشهرة وذيوع الصيت، لمَ لا وكل من يقرأ لهم لا يقولون أكثر مما يعرفه خير المعرفة؛ إذ عكف على الكتب الأساسية في المذهب الاشتراكي وروافده فكاد يَستظهرها، بل إن صوته بدأ يعلو على صوت رئيسه في «الوحدة» الحزبية، وغدا يجد آذانًا صاغية لكل ما يقول، و«أعجبته اللعبة» (على حد تعبيره) ولم يجد في الطموح السياسي ما يتناقض مع مبادئه فخروشوف كان فلاحًا، والعبرة بالمبادئ لا بالتعليم، وآن الأوان — قال في نفسه — للتغلُّب على عقدة الشهادات.

وكانت نكسة ١٩٦٧م على مرارتها خيرًا وبركة عليه؛ إذ ألقت على كاهله وعلى كاهل كوادر الحزب من الشباب الطامح مهمَّة إعداد الشعب «لإزالة آثار العدوان»، وكان قد حصل على الثانوية العامة «من منازلهم» وانتسب إلى إحدى الكليات النظرية التي لا تتطلب الحضور إلا لأداء الامتحان، وشجعه نجاحه في الدراسة على مواصَلة الجد والاجتهاد، وتشعَّبت علاقاته بمنظمات الشباب التي أنشأها الزعيم الخالد فأحسَّ بأنه على مشارف عهد جديد يُؤذن بتحقيق أحلامه التي لا حدود لها. ولم يكن ينظر إلى الإجازة الجامعية التي يعمل في سبيلها إلا باعتبارها وسيلة لتدعيم موقعه في الحزب؛ إذ ربما نقلته من تمثيل العمال إلى تمثيل المثقفين، ومن يدري، لعلَّها تأتي بمنصب أكبر من كل أحلامه!

وقال لي في لحظة صدق ذات يوم «أنت لم تكن معنا في تلك الأيام، فاسمح لي أن أنقل لك إحساسي وإحساس الكثيرين الذين تأكَّدوا أن الهزيمة العسكرية في موقعة واحدة لم تكن هزيمة بالمعنى المفهوم لأننا لم نُحارب [وقد تأكَّدت من صدق ذلك وأنا في لندن] وأنه آن لنا أن نأخذ زمام المبادرة حتى نحارب العدو في الوقت الذي نختاره وبالأسلوب الذي نُحدده! وعندما حصلت على البكالوريوس لم أفرح به فرحتي بإعداد الشباب ذهنيًّا ونفسيًّا للمعركة! لقد كانت أيام عمل مجيدة» وهكذا بدا أن كل شيء يسير وفق مراميه، فتزوج من فتاة تصغره بنحو سبع سنوات أو ثمان، واستأجَرا شقة في موقع جميل، ثم توفي الزعيم الخالد.

كانت الصدمة أكبر مما يُحتمل، وكان التغيير الذي طرأ على الحياة العامة في مصر سريعًا ومفاجئًا، فتعرض لأهوال متعاقبة، وكانت السِّهام التي يتصدَّى لها تهزُّ قناعه هزًّا بل وتخلخله، فقرر الانحناء أمام العاصفة والتنازل عن بعض عناصر القناع، وكانت مساءلة النفس تستغرق منه وقتًا طويلًا؛ فالمستقبل غامض مبهم، وكل شيء في مهبِّ الريح، وشعوره بالوحشة يزداد في كل يوم. وعندما انفتح باب السفر إلى البلاد الأجنبية في مطلع السبعينيات، وانطلق المصريون إلى الخارج دون قيود — إلى أوروبا وأمريكا وكندا مهاجرين، وإلى البلاد العربية عاملين بعقود أو معارين — قرر أن يسافر هو الآخر وظل يترقب الفرصة المواتية حتى لاحت، فاصطحب زوجته إلى بلد عربي شقيق، ووجد لها عملًا حيث يعمل، وهناك عكف على عناصر قناعه يُعيد ترتيبها، بل وطرح بعضها للنقاش من جديد، وكان أشق عمل يواجهه هو محاولة التخلي عن حلم القوة، أو تعديل مفهوم القوة حتى يستبدل بقوة السلطة قوة المال، وبلذَّة المكانة الاجتماعية مُتعة الهناء العائلي، فهو زوج مُخلِص ولديه طفل جميل، ويكفي أنه ابتعد الآن عن الجو القديم وفيه ولا شك من يريدون «الانتقام».

وقد يطول بنا الحديث إذا تابعنا مصير صاحبنا، وأخشى أن يتعرف على نفسه إن أنا واصلت الحديث، أو أن يتعرف عليه أحد، ولذلك فسوف أركز على معركته الأخيرة مع قناعه في أواخر السبعينيات. كنا في أكتوبر ١٩٧٨م حين زارني في المنزل لأول مرة مع زوجته، واتفقنا على اللقاء يوم الجمعة، وكان يقضي في مصر عطلة قصيرة، فخرجنا إلى مقهى على شاطئ النيل، وشعرت باطمئنان شديد إلى لهجته الهادئة في الحديث وفرحت برغبته في الإفضاء، ففتحت أذني وقلبي، وجعلت أعبُّ كلامه عبًّا، وأُحاول استيعاب كل حرف يقوله، كأنما عثرت على كنز ثمين من «المادة الإنسانية»، وهاك مُوجز ما رواه على امتداد ساعات طويلة.

قال إنه أحسَّ في البداية بالغُربة على شتى مُستوياتها، فلم يكن من السهل عليه أن يتحوَّل إلى مواطن عادي لا سلطان له ولا علاقة لـ — قطعًا — بالحياة السياسية في البلد، فهو ضيف يُؤدي عملًا محددًا وعليه ألا يتجاوَز حدوده، وكانت «أمجاد» الماضي تلوح له فتُدمي قلبه، وكانت الأيام تجري به لاهثة دون أمان وأحلام فأحسَّ كأنه يركب قطارًا يسرع به إلى نهاية مثل نهاية كل فرد لم يَجتهد ويكافح، فعقد العزم على أن يكسر طوق العزلة، وأن يقهر الحصار المفروض عليه، وساقت إليه المصادفة فرصة نادِرة؛ إذ اكتشف أن رئيسه في العمل يعيش في محنة لأنَّ الرؤساء الكبار يرون أنه ينحدر من قبيلة خاملة الذكر؛ ومن ثم لم يكونوا يرونه أهلًا لشغل منصب أعلى، ناهيك بالاحتفاظ بمنصبه، وكان شُغله الشاغل آنذاك أن يدحض ذلك الرأي، وأن يُثبت أنه ذو حسب ونسب، وكان المال يتدفَّق بين يديه، وكل ما يعوزه هو الباحث في الأنساب القادر على إثبات انتمائه إلى «بيت عز ومجد»، وهكذا قرر صاحبنا أن يُصبح هذا الباحث.

لم تكن المهمَّة يسيرة؛ إذ كان عليه أن يستعين بباحث حقيقي، فطرق أبوابًا كثيرة، وسلك دروبًا مُتعدِّدة، حتى ساق إليه الحظ أستاذًا في التاريخ من بلد عربي آخر، كان يَحضر مؤتمرًا عن تاريخ المنطقة ويطمح في أن يحصل على عمل في ذلك البلد، وله دراية لا بأس بها بأنساب القبائل، فوثَّق علاقته به إبان أيام المؤتمر، وحصل له على العمل الذي يتمنَّاه شريطة أن يساعده في بحث قال إنه يقوم به في الآثار، ولم تلبث الأحداث أن أتت بما لم يكن يتوقع. قال: «أعددنا مشروعًا للبحث في آثار منطقة صحراوية صخرية مهجورة، وكان المعروف في تلك البلد أن بها نقوشًا كثيرة، وربما تكون بها مخطوطات دفينة أيضًا، ولم يبخَل المسئولون علينا بالمال؛ إذ كانوا ينفقون بسخاء على العلم والتعليم، خصوصًا فيما يتعلَّق بتاريخ بلادهم، واستمرت بعثة البحث في التنقيب شهورًا، وتوليت أنا تسريب الأنباء إلى الصحف المحلية عن نشاطها، والإيحاء بأنَّ البعثة قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف مُثير، وسمع بعض الخبراء الأجانب بعملنا فجاءوا لزيارة الموقع، ونشر بعضهم في صحف بلاده أنباء عنه، فبدأ اسمي يلمع في مقر عملي وبين الرؤساء باعتباري مدير المشروع، ولكنَّني كنتُ أوجس خيفة منهم، فربما فطنَّ أحدهم إلى سري الدفين، ولم أكن بُحْتُ به لأحد، حتى للأستاذ الذي كان قد أصبح ساعدي الأيمن، فآثرت الكتمان في كل شيء، وكنت أرتدي قناع الباحث طول الوقت وأحرص على عدم الزج باسم رئيسي في الموضوع حتى لا يتطرَّق الشك إلى نفس أحد، وكنت في غضون ذلك أستقي العلم بالبحث الأثري من الأستاذ الذي يعمل معي، متحصنًا بالكتمان الشديد، حتى انقضى نحو عام

كامل، ولكن اليأس لم يتطرق إلى قلبي قط؛ إذ كنت أُومن إيمان المصري القديم بالعمل، كما اكتشفت شغفي بالتاريخ العربي والإسلامي، وبدأ اسمي يظهر في الصحف المحلية، وهو ما عوضني بعض الشيء عن الغربة، وإن كنت أخشى أن تذهب جهودي عبثًا فأفقد عملي وأعود إلى مصر خاوي الوفاض، وكانت تعتريني حالات ضيق وبرم؛ إذ أذكر الماضي ويجرفني الحنين إليه، وأتأمل الحاضر فأتساءل عن المصير الغامض لهذه «المغامرة»، فأبيت مهمومًا أطوي السر بين جوانحي وأطلب النوم فيستعصي عليَّ.

وفي ليلة زاد الهم فيها واشتدَّ، قررت أن أعود إلى مصر، وناقشت الأمر مع زوجتي، فأبدت الموافقة أولًا، ثم اعترضت برفق وساقت بعض الحُجَج التي رأيتها مقنعة؛ فنحن لم ندخر ما يكفي من المال لإنشاء مشروع خاص بنا، وابننا ما زال صغيرًا يحتاج إلى تأمين مستقبله، وعندما طال النقاش أفرغتُ ما في صدري، وأشركتها في أمري، فما كان منها إلا أن قبَّلتني في جبيني مثلما تُقبِّل طفلها وقالت لي: «إذن يفتح الله عليك ولا يُضيع الله عمل عامل!» باغتتني هذه العبارة، فلم يكن للإيمان الديني وجودٌ كبير في حياتنا، وهزت رنة الصدق جوانحي هزًّا، ووجدت الدموع تنساب من عيني رغم أنفي، ولم أدرِ إن كانت دموع فرحة بالإيمان الذي أشرق فجأة فأنار جوانب نفسي، أو دموع امتنان لهذا الحب الصادق، أم دموع حزن على حالي وما أنا فيه، فلقد اختلطت في نفسي المشاعر وامتزجت، فخرجت إلى الشرفة رغم الحر اللافح حتى بالليل، وجعلت أرقب السماء والنجوم حتى غلبني النعاس.

وعندما عُدنا بعد عطلة نهاية الأسبوع إلى العمل في الموقع، وحان موعد الشاي في نحو العاشرة صباحًا، قال لي مساعدي — أستاذ التاريخ — في غمار الحديث عن قيظ الصيف ولهيبه: «سمعت أنك تبحث في أصول قبيلة (...).» ونظرتُ إليه مشدوهًا، وحدست على الفور أن زوجتي أخبرته أو أخبرت زوجته، فأُرتِج عليَّ وتلعثمت، وقبل أن أرتب أفكاري لإعداد الرد «المناسب» أردف قائلًا وهو يَرشف الشاي دون انفعال «لماذا لم تسألْني قبل الآن؟» وبعد لحظات قلتُ له إنني كنت أتمنى أن يؤدي البحث الأثري إلى اكتشافٍ عِلمي يؤكد عراقتها، فضحك وقال «وهل هذا في حاجة إلى دليل؟» ودارت بي الأرض وأحسستُ أن كل شيء يهتز في ناظري، وتراقصَت صور التلال التي تلوح على البُعد في السراب؛ إذ كنا في شهر يوليو وكنا نبدأ العمل مع تباشير الفجر وننتهي عند صلاة الظهر، وأمسكت رأسي بيدي محاولًا مواجهة الموقف بما أستطيعه من ثبات، وقبل أن أتكلم قال لي إن لديه الأدلة الدامغة على عراقة تلك القبيلة وجذورها الموغلة في القدم، وإن البحث الذي نقوم

به لا بد أن يُسفر عن بعض آثار تلك القبيلة وغيرها من القبائل العريقة، بل إن الجدران التي كشفت الحفريات عنها تحمل نقوشًا باللغة القديمة التي كانت تلك القبائل تتكلَّمها! وسألته إن كانت اللغة عربية، فقال إنها عربية ولكنَّها مُتأثِّرة ببعض لهجات الشعوب المجاورة التي ترجع أصولها إلى عصور ما قبل الميلاد! وأضاف قائلًا إنَّ ذلك معروف ومسجل، ولذلك فلم يُوله اهتمامًا كبيرًا فإنه يبحث عن آثار أقدم ودلائل على الهجرات العربية المتوالية في تلك المنطقة!

وسألتُه في قلق إن كان يمكنني أن أنشر ذلك على الملأ — في الصحف مثلًا — أو في مجلة علمية أجنبية فأكَّد لي إمكان ذلك، ثم أضاف ضاحكًا: «وهل ستنشره باسمك وحدك؟» وقلت بسرعة إنني يمكن أن أنشر دراسة باسمَينا معًا إن كان يريد ذلك، ولو أنَّ ذلك غير مألوف في الوطن العربي، فقهقه وربَّت بيده على كتفي قائلًا إنه يُداعبني فقط ولي أن أفعل ما أريد بالمعلومات التي أحطت بها؛ فالكشف ليس اكتشافًا، والمعلومات مُتوافرة في المراجع، العربية منها قبل الأجنبية، ولن يضيف أكاليل غار إلى قامته العِلمية، وتوقَّف الحوار هنا، ولم أُضِعْ أنا الفرصة فكتبت مقالًا ضمنته ما انتهينا إليه من «نتائج»، وأشدت بذكر صديقي ومكانته العِلمية لأوفيه حقه وأمنح «البحث» مصداقية علمية، وأرسلته إلى الصحف فرحبت به، وأرسل رؤساء التحرير بعض المصورين إلى الموقع لالتقاط الصور اللازمة، وتطوع البعض للكتابة عن تاريخ العرب القديم وتضخيم أهمية الاكتشاف — كعادتنا نحن العرب — والتهليل له، ولم تمضِ أيام حتى استدعاني رئيسي هاشًّا باشًّا وسلَّمني خطابين، الأول يتضمن قرار الرؤساء بمد عمل البعثة وصرف مكافآت مجزية لأعضاء الفريق العامل من كل الدرجات، ويتضمن الثاني قرارًا بترقيتي وزيادة مرتبي زيادة لم أكن أحلم بها.»

وتوقف صديقي، وأرجو ألا أكون قد أغفلت أية تفاصيل مهمة في هذا الملخَّص المقتضب، وعندما عاد بعد العطلة القصيرة مع زوجته إلى عمله، كان قد ارتدى قناعًا جديدًا، ولكنه كان على وعي كامل بعناصر هذا القناع، يعرف شرائط الدور الذي يفرضه عليه ويلتزم بها، وعندما بدأت المقاطعة العربية لمصر في الثمانينيات بسبب معاهدة السلام مع إسرائيل، وتصاعدت النزعات الإقليمية في أقطار الوطن العربي، لم يجرفه التيار، ولم يُهاجم «النظام المصري» في حديث عام أو خاص، بل تعلَّم التكتُّم وأجاده، وأصبح — كما يقول — «يمشي إلى جوار الحائط»، قانعًا بعمله الإداري، ووجد نفسه وقد أصبح مهتمًّا برصيده في البنك، طامحًا في ثراء عريض، ويحلم بعودة مظفرة إلى مصر ينتقل فيها

من حياة «الفكر» القديم إلى حياة الحسابات والاستثمار، مع اهتمام لم يعهده في نفسه بالدين، وكان يراجع نفسه من حين إلى حين، وكلما ظن أن القناع الذي يرتديه يتضمن عناصر «زيف» أو ابتعاد ولو طفيف عن الواقع بذل جهدًا صادقًا لتعديله، فكان يعيش في حالة مساءلة للنفس تُشبه ما مرَّ به قبل سنوات طويلة عندما فُجِعَ وفُجِعَت الأمة العربية في فقد الزعيم الخالد، فكان حين يزور مصر ويرى حالات الفقر المُدقع ويسمع من رفقاء الاشتراكية القدماء عن ضرورة تدخل الدولة لضمان عدالة توزيع الثروة، يرتجف رغمًا عنه خوفًا على ثروته، ثم يفزع من ذلك كأنه يُنكر تنكُّره لمبادئه القديمة، وحينما تأكد أن الدولة لن تتدخَّل في شيء ولن تمس ثروات الأثرياء، وكان قد ملَّ قناع خدمة الرؤساء في الخارج، عاد إلى مصر، وقرر أن يعيش بعيدًا عن أي مجال للعمل العام، بل وبعيدًا عن عيون الجميع بعد أن اشترى قطعة أرض من هيئة استصلاح الأراضي، فاستصلحها وأنفق عليها الكثير، وأصبح يقضي معظم وقته في المزرعة، ولم يتَّضح لي مدى نجاحه في التخلُّص من قناعه القديم إلا عندما التقينا يوم جمعة، اليوم الذي اعتدتُ أن أقابل فيه صديق عمري المستشار أحمد السودة، وكان معنا في هذه المرة على مائدة الغداء في مطعم فلفلة بوسط البلد، في يوليو عام ١٩٩٣م بعد أن عدت من فرنسا ومنَّ الله عليَّ بالشفاء من المرض اللعين؛ إذ لم يكن يتحدَّث إلا عن الزراعة وتسويق الحاصلات الزراعية.

لا يزال ذلك اليوم ماثلًا بكل تفاصيله في ذاكرتي، فلقد كنت سعيدًا بعودتي إلى الحياة، وكنتُ فَرِحًا لأنني استعدت القدرة على تناول الطعام ولو كان في صورة سائلة أو مهروسة، ولأن كلامي أصبح مفهومًا إلى حدٍّ ما، وكنت أعجب أثناء حديثه كيف استطاع أن يطوي صفحة الماضي بل صفحاته بهذه السهولة، وأن يتحوَّل بإرادته إلى مُزارع (ما أصل البناء الصرفي لهذه الكلمة؟) وكنتُ أرتشف نبراته الهادئة وهو يتحدث عن زراعة حاصلاتٍ بعينِها ويستعين بمهارة أبناء العريش الذين يُجيدون الفلاحة بالخبرة أي دون تعليم رسمي، وكان الأستاذ أحمد السودة يشاركني الدهشة والإعجاب؛ فكلانا من ذوي الجذور الريفية، وكان صاحبنا يتحدَّث حديث الواثق المتمكن من أصول صنعته، كأنما لم يرتدِ قناع السياسة وقناع البحث العِلمي يومًا ما، وكان يشاركني التفاؤل بالمستقبل والتخطيط له، وفي هذا ما فيه من أدلة على المرونة التي يتحلَّى بها المصري، وعلى قدرة التكيُّف التي تكفل البقاء.

الفصل الثاني

١

هبطت بنا الطائرة المصرية في مساء يوم الأربعاء ٣٠ أغسطس ١٩٨٩م في بلغراد وكانت تقلُّ الوفد الرسمي المصري برئاسة الدكتور بطرس غالي وزير الدولة للشئون الخارجية، وفريق الترجمة الفورية والتحريرية، والفريق الإعلامي (من الإذاعة والتليفزيون وبعض الصحف) وكانت تلك أول مرة أزور فيها يوغوسلافيا، وآخر مرة — بطبيعة الحال — فكنت توَّاقًا إلى معاينة الحياة في أوروبا الشرقية في ظل النظام الاشتراكي، وكانت وزارة الخارجية قد جمعت عددًا متميزًا من المترجمين، معظمهم ممَّن سبق لي العمل معهم، إما في المؤتمرات الدولية أو في الأمم المتَّحدة، وكان بعضهم من تلاميذي السابقين مثل فايزة كامل وسلوى عبد العظيم وأحمد عبد الجواد وزين الدين الجعفري البسطويسي وليلى زيدان، ولو أنَّ الأخيرين كانا ضمن بعثة الإذاعة، إلى جانب فاطمة برادة ونور عطية، والبعض الآخر من أقراني مثل فكرية السويفي — زميلتي القديمة في الدراسة الجامعية — ومثل محمد عبد النبي المتخصِّص في اللغة الفرنسية، كما كان الفريق يضم نخبة من أفضل المترجمين الفوريين من اللغة الإنجليزية وإليها مثل رفعت شلتوت وهدى أبو الفرج وهما من تلاميذي السابقين في جامعة القاهرة وعبد الله فريد وسميرة عبد السيد وهما من أقراني النابهين، وحشدًا من كتَّاب الاختزال والآلة الكاتبة العربية.

واستُقبِلنا استقبالًا شبه رسمي في المطار، وكان المطر يَنهمِر فيُحيل سطوح مباني المطار وأرضيته إلى مرايا لامعة تعكس الأضواء التي انتثرت في الظلام، وانطلقت بنا حافلة خاصة، بدَت جديدة وفائقة النظافة غامرة الأضواء، إلى الفندق الذي تقرر نزول «العاملين» به، وهو — كما علمت فيما بعد — بيت من بيوت الشباب أو الطلاب، يمكن

اعتباره «مدينة جامعية» كما نقول في مصر (ويُسمونه «الحي الجامعي» في العراق) ولكنه كان يضارع الحافلة في جدته البادية ونظافته الفائقة، وكان الشبان الذين استقبلونا وأتمُّوا لنا إجراءات الجوازات والجمارك يَرتدون زيًّا موحدًا وكاسكيتات تحمي عيونهم من المطر، ويتحرَّكون بنظام الفريق المتجانس الذي يعرف كل فرد فيه موقعه ومهمته، ولم يتركونا حتى استقرَّ كل واحد منا في غرفته، واطمأن إلى برنامج العمل في صبيحة اليوم التالي، خصوصًا موعد استخراج بطاقة الهُويَّة الخاصة بالمؤتمر، وترتيبات الانتقال من الفندق إلى مقر المؤتمر والعودة.

كان المؤتمر من أواخر مؤتمرات قمة بلدان عدم الانحياز، إذ تفكَّكت الحركة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، لكنَّنا لم نكن ندري ما تُخبئه الأقدار، وكان ثم ما يدعوني إلى التفاؤل والبِشْرِ — شخصيًّا — لأن اليوم التالي، الخميس ٣١ أغسطس كان موعد إذاعة مسرحيتي **الغربان** في القناة الثانية بالتليفزيون المصري، وكنت أوصيت ابنتي سارة أن تُسجلها لي بالفيديو حتى أشاهدها، بعد أن وافقت الرقابة عليها، فكنت أُمَنِّي النفس بمشاهدتها بعد العودة، ولكنها لم تُذَعْ، وأذيع بدلًا منها **نمرة ٢ يكسب** لعبد المنعم مدبولي، كما كان معي مخطوط **جاسوس في قصر السلطان** أضيف اللمسات الأخيرة إليه هنا وهناك حتى بعد أن كتب على الآلة الكاتبة، كما كانت معي بعض كتب النقد الحديث التي لم أكن انتهيت من قراءتها، فَرَتَّبْتُ محتويات حقيبتي في الغرفة، ونزلت إلى الدكان الملحق بالفندق فاشتريت بعض الأوراق والأقلام، بنحو دولارين، وضعتها بعناية على المكتب المطلِّ على الحديقة، واطمأنَّ قلبي إلى نظام «الإقامة» فهبطت إلى البهو حيث وجدت الزملاء يستعدون لطعام العشاء فلحقت بهم، وكان الطعام مُتواضعًا يتكون من وجبات ثابتة، لا تسمح بخيارات كثيرة، وما إن بدأنا تناول الطعام حتى وصل مندوب من السفارة المصرية يسأل عن الوثائق التي سبق أن ترجمناها في مصر حتى تُعفينا من ترجمتها أثناء المؤتمر وتُتيح لنا التفرغ لترجمة ما يستجد. وعندما أطلعناه عليها طلب اقتراضها لتصويرها، ووعد بإعادتها في صباح اليوم التالي، لكنه لم يعد ولم نره بعد ذلك أبدًا.

وبعد الإجراءات التي انتهينا منها بسرعة، قرَّرنا تقسيم الفريق إلى قسمَين، الأول يعمل من الثامنة صباحًا حتى الرابعة، والثاني من الرابعة حتى الثانية عشرة ليلًا، لأنَّ العمل كان يَقتضي وجود فريق الترجمة طول الوقت؛ وذلك في الأيام الأربعة الأولى، ثم يتبادَل الفريقان النوبات، وكنت أرأسُ نوبة الصباح، لكنَّنا حين ذهبنا إلى قاعة المترجمين

وجدنا أن به فريقًا جزائريًّا، مُوازيًا لفريقنا، يشغل جميع الأماكن! وشرحت لنا المشرفة على السكرتارية واسمها «سنا» (قالت: إن معناه الربيع) أن الفريق الجزائري وصل قبلنا على متن طائرة عسكرية خاصة، وأنَّ الفريق سوف يُساعدنا، ووعدت بتدبير أماكن لنا نعمل فيها، ولم تمضِ ساعة حتى أعدت لنا مَكاتب وكراسي في شرفة بديعة مسقوفة، بها نوافذ واسعة نطلُّ منها على المدينة بحدائقها وظلال الصيف المتراقِصة، وبدأنا العمل بمراجعة نصٍّ كان الجزائريون قد ترجموه، واعترض عليه المندوبون العرب، وأشدُّ ما يقلق المترجم هو أن يعترض أحد الدبلوماسيين على الترجمة، فيُهدده في مصدر رزقه أو «يقطع عيشه» عمليًّا حتى لو كان المترجم على حق؛ إذ يكفي أن يقف دبلوماسي شابٌّ لا يجد ما يَعترض عليه من حيث المضمون في إحدى الوثائق، ولكنه يريد أن يثبت وجوده فيقول: إنَّ الترجمة العربية خاطئة أو إن اللغة العربية ركيكة، فتقع الطامة على رأس المترجم، ولذلك حرصت في مراجعتي أن أقتصر على تصحيح أية أخطاء حقيقية (أي أخطاء في المعنى)، ولما لم أجد فيها ما يَستحق الذكر أو ما يَقتضي إصدار تصويب خاص أدركت أنَّ سر الاعتراض يرجع إلى اختلاف لغة أهل المشرق العربي عن لغة أهل المغرب، فبيَّنت ذلك للمُشرفة، وقلت لها: إن الاعتراض صياغي بحت، ولا يمس قدرة المترجمين على فهم النص أو التعبير عن المعنى، وكنت في هذا صادقًا غير مدفوع بالتضامن مع أبناء المهنة الواحدة، وإن كان تعاطفي مع المترجم — أي مترجم — وتضامني معه في مواجهة «أصحاب السلطان» صفة لا أنكرها، مهما اختلفت معه وذهبتُ غير مذهبه في الترجمة، ومرَّت «الأزمة» بسلام ولو أن المشرفة كانت تختصنا بالوثائق المهمة، الأمر الذي زاد من أعباء الفريق المصري.

ذكَّرتني تلك الحادثة بآخر مرة عملت فيها بالترجمة في «لجنة التحرير» التابعة لمنظَّمة الوحدة الإفريقية في دار السلام بتنزانيا في يوم من أيام ١٩٧٩م؛ إذ كنت مارًّا في مطعم الفندق حين نادتني سميرة عبد السيد التي كانت تتناول الغداء مع آن ماري جريس وسامية خلاف، وهن مِن أقدر المترجمات الفوريات في العالم العربي، وقالت لي: إنَّ المندوب الليبي اعترض على لغتك العربية، وحاولت أن أعرف التفاصيل منهنَّ ولكنهنَّ اعتذرنَ لعدم إجادتهن العربية (فهنَّ يترجمن إلى الإنجليزية والفرنسية) فسعيت إلى المندوب الليبي فوجدته شابًّا صغيرًا يتَّقد حماسة وحميَّة، فسألته عن سر اعتراضه على لغتي؛ فقال إنني أقول «أحاطت اللجنة علمًا بكذا ...» دون أن أذكر المفعول به؛ فالصحيح في رأيه أن الفعل «يحيط ب» فعل متعدٍّ يقتضي مفعولًا به، كأن تقول أحاط فلانٌ فلانًا

بكذا، وقلت له إنَّ اللجنة هي التي علمتْ ولم تُحطْ أحدًا بشيء، فقال إذن أخطأت! فقلت له بل إن الفعل مُتعدٍّ ولازم معًا، وضربت له نماذج من القرآن منها آية الكرسي الشهيرة ومنها ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل: ٢٢) ولكنه أصرَّ على موقفه وعلا صوته وتهدج، فحاولت تهدئته فسألته ماذا يريدني أن أقول؟ فقال «أنا أقبل أي شيء إلا الأخطاء في اللغة العربية!» فقلت له إنني أوافقه وأشاركه الغيرة على العربية، ومكثت معه ساعة أو بعض ساعة في نقاش نجح في امتصاص غضبه، ولم أتركه حتى بدا عليه الرضا والارتياح، وإن كان الهامس في أعماقي يهمس بأن تلك آخر زيارة لي للجنة التحرير في دار السلام. وثبت صدق الهامس!

ازدادت أعباء الفريق المصري — كما قلت — وإن خفَّف من وطأته جمال المكان وجمال الصقالبة أي الجنس السلافي (the slavs ومنها اشتقت slave أي العبد؛ لأنَّ أجمل إماء أوروبا كُنَّ يُجلبن منهم وكذلك كان المماليك في مصر) وكان جميع العاملين في المؤتمر رجالًا ونساءً (أو فتيانًا وفتيات) يتمتَّعون بقسط نادر من الجمال والرشاقة والعذوبة والرقة، وكانت المترجمة فايزة كامل (أخت الوزير السابق محمد إبراهيم كامل) صريحة في التعبير عما يجيش في نفوس الفريق من الإعجاب بذلك كله، وكان أحمد عبد الجواد لا يكتفي بالصراحة في القول بل يُعبر عن إعجابه عمليًّا بقبلات الترحيب والوداع، وكنت أرقب تلك الآيات الباهرة من خلق الله ثم لا أستطيع الكلام، بل أخفي نظراتي لأن فايزة لم تكن تعفي أحدًا من تعليقاتها، ولما كانت من زميلات نهاد زوجتي في الدراسة (ولو أنها تكبرها كثيرًا إذ التحقَت بالجامعة بعد أن تزوجت وأنجبت) فقد كانت دائمة التهديد بإخبار زوجتي بأيِّ إعجابٍ أُبديه أو أي كلمة أقولها، وكانت تفعل ذلك أحيانًا بطرق «فنية» أي غير مباشرة كأن تقول «البلونداية دي عينيها خضرا زي نهاد!» ولكن بعض تعليقاتها الأخرى كان لاذعة مثل وصفها المشرفة «سنا» بأنها «كبيرة ولسَّه نِغْشَة!» والكلمة الأخيرة من الكلم العاميِّ الذي لا أجد له مقابلًا بالفصحى، وربما كانت تُقابل (a flirt) بالإنجليزية، وقد يكون المعنى أن بها دلالًا يدعو إلى المغازلة دون أن تكون لعوبًا، وتعبير لسة (أي «ما زالت» = «للساعة»، وتقابلها في السودانية «حَسَّة» = حتى الساعة، أو «هسَّة» = ها الساعة) يتضمَّن حُكمًا مفادُه أن كبر المرأة يمنعها من «الغنج»، مصداقًا للمثل الشعبي «الشايب لمَّا يدَّلع زي الباب لما يتخلَّع»، ولو أنني لم أشعر في حديثي مع «سنا» بأيٍّ من ذلك، وربما كان «الحدس الأنثوي» (female intuition) عند فايزة هو الذي هداها إلى ذلك، وربما كان حكمها خاطئًا لأنه يقوم على تفسير لطرائق

ثقافة مُختلفة؛ فالحركات والنبرات والبسمات لا تعني في أوروبا ما تَعنيه في مصر، وما قلته عن الفتيات يصدُق على الفتيان، وأذكر أن «الساعي» الذي كان يأتي بالقهوة ويتلقَّى الطلبات منا كان وسيمًا أشقر رشيقًا رائع الهندام مُتناغم الخطو حتى إنني ظننتُه من المُديرين أو الرؤساء حين رأيته أول مرة، ولم تَخْفَ عليَّ نظرات الإعجاب به في عيون أعضاء الفريق (أحمد عبد الجواد وفاطمة برادة ونور عطية وسلوى عبد العظيم وفايزة كامل) ولم تُفلح كثرة تردُّده في إزالة الإعجاب به، أو بالزميل الذي حلَّ محلَّه، فكان يُدير الرءوس في كل مرة يدخل الشرفة. وكانت فايزة تقول لي دائمًا إنها من سلالة المماليك، فهي شقراء حادَّة الذكاء رقيقة لطيفة المعشَر، وأما الخصيصة التي ميزتها — كما ذكرت — وهي الصراحة، فهي خصيصة يشترك فيها أبناء الذوات مع أبناء (أو لعلِّي أقول بنات) الفلاحين، ولا يعرفها أبناء الطبقة المتوسِّطة، وهي صراحة نابعة من بساطة تكاد تكون فِطرية، مبعثها الثقة في النفس والاطمئنان إلى المكانة الاجتماعية، أما أبناء الطبقة المتوسِّطة فيَفتقرُون إلى ذلك وتغيب الصراحة من نظراتهم (وأقوالهم) إما تعاليًا (في محاولة التظاهُر بالانتماء إلى طبقة أعلى) أو تواضُعًا زائفًا (false modesty) تأكيدًا لامتيازهم عن البسطاء.

أما الذي جعل ذلك المؤتمر فريدًا فهو اكتشاف نوع آخر من الصراحة لا يتعلَّق بالتعبير عن الرأي أو المشاعر بل الأقرب أن نُسميه صراحة الفكر، وصراحة الفكر هي لون الصراحة التي يأتي بها اليقين في عالم تَعقَّد وتخبَّط — كما سبق لي أن ذكرت — وهو اليقين الذي ننشده دائبين فإذا تعذَّر تحقيقه عمليًّا أنشأناه إنشاءً، وخلقناه خلقًا، ولقد اكتشفتُه في أحمد عبد الجواد، وفرحت باكتشافه بعد عناء يوم كامل من أيام مؤتمر القمَّة. بدأت جلسة الافتتاح في العاشرة، وتوالى الرؤساء يقولون كلمات مقتضبة ترجمها المترجمون الفوريون أثناء إلقائها، ثم جاء موعد إلقاء العقيد القذافي لخطابه الافتتاحي فانطلق يَرتجل ويُسهِب، والتزم الصراحة بالمعنى المألوف، وهي صفة غير مطلوبة في الدبلوماسية ولا في السياسة، فهاجم الدول الإفريقية التي تصادق إسرائيل، وهاجم النِّفاق في السياسة الدولية، ثم هاجم المندوبين الأفارقة الذين يَزعُمون أنهم غير مُنحازين إلى الشرق أو الغرب، وهم في الواقع مُنحازون إلى الغرب الذي يساند إسرائيل ووصفهم بأنَّ لهم وجوهًا «كالحة». وكان كُتَّاب الاختزال يتناوبون تسجيل كلامه وتفريغه، وكان أحمد عبد الجواد يتولى الترجمة ثم يأتي «السعاة» بما كتب إليَّ لأراجعه حتى يذهب إلى النسخ على الآلة الكاتبة، وانتهى القذافي من خطابه في الواحدة ظهرًا، واستمر عملنا في الترجمة

والمُراجعة حتى الرابعة، وتوقفت عند كلمة «كالح»، فأقصيت على الفور من ذهني كلمة (black)؛ فليس من المعقول أن أشتم الأفارقة بوصفهم بالسواد، ففي هذا من التعصُّب العنصري ما فيه، ولما كان المقصود وصف النفس لا الوجه (ولم يكن المقصود قطعًا جمال الوجه، وإلا لقلت كما قال الشاعر العظيم فاروق شوشة بوجه «أبنوسي» ebony face — وهو عنوان أحد دواوينه) فلقد فكرت في صفات نفسية مثل خسيسة ignoble أو حقيرة despicable ولكنَّني استبعدتها أيضًا لعلو نبرتها بل وبذاءتها، ثم اهتديت إلى bleak، ففيها من الجهامة والقتامة ما يوحي بالمطلوب، وغيَّرتُ كلمة black إلى bleak، وقلت إذا سألني أحد عن سرِّ ترجمة المترجم الفوري الفذِّ عبد الله فريد — رحمه الله — هذه الكلمة بـ black في الكابينة فسوف أقول له إنه كان يقصد bleak القريبة في النطق، وإنَّ اللهجة الأجنبية هي السبب. ولكن أحدًا لم يسأل، ولم يعلق أحد من المسئولين على الخطاب، وكان تعليق أحد الصحفيين عليه أن المندوبين وجدوا الخطاب طريفًا فصمتوا عنه (They listened in amused silence).

وبعد تعب اليوم عاد أفراد الفريق إلى الفندق، ومكثنا أنا وأحمد عبد الجواد للإجابة عن استفسارات بعض المسئولين، ثم هبطنا إلى بهو مقر المؤتمر، وتجوَّلنا في المكتبة العامرة بالكتب بشتى اللغات، فاشتريت لنفسي «أطلس العالم» الجديد بثمن زهيد، ومجموعات من الشعر المكتوب باللغة الصربية وبعض اللغات السلافية، مترجمة إلى الإنجليزية، ثم قرَّرنا المكوث حتى المساء، فتناولنا الطعام في الكافتيريا المُلحقَة بقاعة المؤتمرات، وبدأ أحمد عبد الجواد حديثه الذي كشف لي عن نوع الصراحة الذي أعنيه؛ أي الصراحة الفكرية أو قل المنهج القائم على اليقين، والذي أجمله في تعبير «الحسم بين الأبيض والأسود!»

قال أحمد إنه كان معارًا إلى السعودية، وكان يأتي لزيارة مصر كل عام، وعندما توافر له مبلغ معقول من المال اشترى قطعة أرض في شارع الثلاثين بجوار أكاديمية الفنون بالهرم، وعندما انتهت إعارته من الإذاعة (حيث يعمل مترجمًا) قرَّر بناء منزل فيها. ولم يتعب نفسه مثل غيره بالإجراءات القانونية بل كلف مهندسًا معماريًّا من أصدقائه، ومهندسًا إنشائيًّا لم تبتسم له دنيا المشروعات الجديدة، بإعداد الرسوم وتحديد المطلوب من المواد — مواد البناء ولوازمه — ومن العمال، ثم نزل بنفسه إلى وكالة البلح فاشترى كل شيء واكترى العمال، وأشرف مع صديقيه على حفر الأساس وصب الخرسانة ومدِّ شبكات المرافق من المنازل المجاورة، دون أن يتدخَّل أحد أو يسأل ماذا يفعل، حتى

انتهى البناء كما أراده، فإذا زاره «مهندس التنظيم» من «إدارة الحي» وطالَبَه برُخصة البناء مثلًا أرضاه بما يُرضي به أمثاله ووعده خيرًا، على غرار ما فعل في قريته **سُبْك الضَّحَّاك** إذ بنى لنفسه منزلًا صغيرًا على أرض زراعية دون أن يعبأ — مثل آلاف غيره — بالمخالفة أو المخالفات. كان منهجه: إذا أردت فعل شيء في مصر فافعله ولا تتردَّد (Just do it كما يقولون) وكانت تلك أولى دلائل صراحة اليقين! فعندما سألته عن معارضة القانون أنكر أنه يخالف القانون، أفلا يَسمح القانون بالبناء على أرض يملكها الإنسان؟ وهل في ذلك عيب؟ وهل هو حرام؟

وذكرت ما حدث قبل سنوات في ضاحية العجمي بالإسكندرية على شاطئ البحر، حين اشترى سمير سرحان قطعة أرض من أحد الأعراب الذي كان قد وضع يده على مساحة شاسعة في منطقة تدعى «أبو يوسف» — واسمه هيبة عوض — ثم بنى لنفسه عليها منزلًا من الحجر، وتبعه مثلما سبقه عشرات من أصدقائنا — من الكُتَّاب والفنانين وغيرهم — حتى نشأ حيٌّ سكنيٌّ كامل، واضطرَّت الحكومة آخر الأمر إلى الإقرار بالأمر الواقع وأصبح حي «أبو يوسف» داخل «التنظيم» ويتمتَّع بجميع المرافق التي تتمتع بها الأحياء التي بُنيت بأساليب الروتين واستغرق بناؤها عشرات السنين. ولكن الفارق هنا هو أن أحمد عبد الجواد لم يشغل نفسه أصلًا بالشكليات، بل سأل السؤال الجوهري: هل هو حرام؟

والسؤال عن الحرام والحلال رافد من روافد قضية اليقين التي تشغل تفكيرنا اليوم؛ إذ سألني أحمد عبد الجواد ذات يوم «هل تعرية شعر المرأة حلال أم حرام؟» وعندما بدأت أشرح له الموضوع من الزوايا الفقهية؛ قاطعني قائلًا إنه لا يُطيق صبرًا بذلك كله (I have no time for this) وإنه يريد حسمًا مريحًا يوفِّر له اليقين، فقلت له إن تغطية الشعر عادة عربية قديمة أقرَّها الإسلام، ولكنَّها ليست من الأصول ولا الفروع، فصرخ قائلًا: «أقرَّها يعني أمر بها، يعني التعرية حرام!» ولم أجد نفعًا من المناقشة، فلقد تنبهت آنذاك إلى صراحة الأبيض والأسود التي بدأت تتغلغل في تفكيرنا بسبب التقسيم الثنائي القديم، وهو الذي أعتبره السبب في تمزيق أوصال الدول العربية أو الإسلامية القديمة؛ لأنه يسمح بتفسيرات متعدِّدة لما هو أبيض ولما هو أسود، بناءً على مفهوم كل طائفة بل ومفهوم كل فرد للنصوص المقدسة، واحتمال التعدُّد قائم وأكاد أقول محتوم في تطبيق المبادئ الدينية الفضفاضة تطبيقًا عمليًّا، ولكن أحمد عبد الجواد — شأنه شأن الكثيرين من المثقَّفين — لم يشغل باله بدرجات الحلال والحرام، أو بأن الحلال نفسه إذا اتخذ

طابعًا معينًا أصبح حرامًا دون أن ندري، مثل اكتساب المال «الحلال» الذي يصبح شهية مفتوحة لا تشبع، تلهي الإنسان عن نفسه ولو أقام شعائر دينه؛ إذ قد يُهمل أسرته ولا يقتطع من وقت عمله «الحلال» ما يكفي لتنشئة الصغار أو رعاية أهله، وقس على ذلك الولوع بالزواج «الحلال» الذي قد يشغل بال الرجل إلى درجة مَرَضِيَّةٍ — مثلما شغل تاجرًا في بلدنا رشيد اسمه علي (...) فكان زميلي عبد الفتاح بلال (الذي اشتهر باسم السيد بلال) يحادثه كل يوم عن فتاة جديدة قد تصلح زوجة أخرى له، ويقول له إنه سمع من أخته أن صفاتها كذا وكذا، فيسيل لعاب عليٍّ، وأضحك في أعماقي مثلما يضحك السيد بلال من ردود فعل صاحبنا، فعيناه تَبرُقان وشاربه يهتز ويصبح صورة لشخصية من شخصيات نجيب محفوظ، ولم أشغل نفسي آنذاك (وكنت بعدُ صغيرًا مهمومًا بما أقرأ وأكتب وإن كان ذهني يختزن الصور بخطوطها وألوانها) بعدد زوجات عليٍّ أو عدد أولاده، ولكن السيد بلال كان يكبرني بعدة أعوام ويعمل في وقت فراغه بوكالة الخضر والفاكهة التي يملكها والده، وكان يجلس أمام الوكالة مع الكبار من التجار ويُتابع أحاديثهم واهتماماتهم، وكان عليٌّ من بينهم، ولا أعرف كيف اكتشف وُلُوعه بالنساء، ولكنه جعل من ذلك مصدر تسلية مؤكَّدة لنا.

وعندما عدت من مؤتمر عدم الانحياز طلب مني الكاتب والمفكر السياسي رجب البنا وكان آنذاك يشرف على صفحة قضايا وآراء في **الأهرام** الغرَّاء، أن أساهم في سلسلة المقالات التي ينشرها لبعض المفكرين عن **آفاق التسعينيات**، فكتبت مقالًا عن ثنائية الأبيض والأسود التي تعيب تفكيرنا، وقال لي المستشار أحمد السودة إن ابن عمه محمد قرأه وأعجب به، كما كتبت مقالًا عن اليقين الذي أصبح كما قلت سمة من سمات تفكيرنا في أسبوعيات **الأهرام**، وحادثتني الدكتورة منى أبو سنة تليفونيًّا لمناقشة ما جاء فيه.

٢

ولكن المصري لا يحافظ على هذه الثنائية إلا بالقول، فحياته الواقعية تجمع بين أضداد لا شك فيها، بل وبين تناقضات من المُحال أن تجتمع منطقيًّا؛ أي إنها مُتنافية (أو mutually exclusive) لكنه يقبلها (مثلما يقبلها أبناء الشعوب الأخرى) وربما اعتبرها جزءًا من قناع الحياة العامة، فإذا صادف موقفًا يُرغمه على الفصل بين الأسود والأبيض، وكان يُريد لأحدهما أن يكتسب صفة الآخر، لم يجد في نفسه ما يمنعه من ذلك، وربما ابتدع في هذه الأيام تبريرات عجيبة قد تصلُ إلى حدِّ الاستشهاد بالنصوص المقدَّسة. وقد تسنى لي

شخصيًّا أن أطَّلع على أحد هذه التبريرات حين قابلت في أواخر التسعينيات رجلًا لم أكن قابلته من عشرين سنة، وكان هرمًا مُهدَّمًا زريَّ الهيئة، وقد هبَّ من مقعده حين رآني وأنا أوقف سيارتي أمام المقهى الذي كان يجلس فيه في ميدان الدقي بالجيزة، فتصوَّرت أنه يُريد منعي من الوقوف فصحت فيه ما الخبر لكنه أسرع يُعرِّفني بنفسه فإذا هو السائق القديم الذي كان يعمل لدى أسرة محمد علي جستنية (السعودي الذي كان مديرًا لفرع شركة الطيران السعودية بالقاهرة) والذي كان يقوم بتوصيل «شيخة» (واسمها بالكامل شيخة سلمان قراطة) ابنة زوجته المصرية عايدة، إلى الكلية حينما كانت تدرس لدينا في قسم اللغة الإنجليزية. ودُهشت من تذكره إياي وتعرُّفه عليَّ رغم ما أصاب وجهي من تبدُّل، فسألته عن أحواله فأقسم أن أشاركه كوبًا من الشاي، وغلَّظ الأيمان فلم أجد بُدًّا من القبول، وغمَرني بدعواته لي وآيات الترحيب فحدست أنه في ضائقة مالية وقرَّرت أن أُساعده بما أستطيع فسألته عن أحواله فقال إنه ترك العمل لديهم من مدَّة وإنه عمل لدى رجل غني آخر صاحبه سنوات طويلة ثم تنكَّر له بسبب خلاف طفيف، وإنه أحيل منذ زمن إلى التقاعُد ومعاشه محدود لكنه يحمد الله على الستر، ودفعني الفضول إلى السؤال عن الخلاف الذي ترك من أجله العمل لدى «الغني» فقصَّ قصة طويلة أوجزها فيما يلي:

كان من عادته — شأنه في هذا شأن أولاد «الكار» (أي الحرفة) — أن يضيف «قروشًا زهيدة» إلى تكاليف تسيير السيارة، من وقود وزيت وتكاليف غسيل وصيانة وإصلاح، فهي عمولة مشروعة في نظره، أو أجر خفيٌّ يتلقاه في مقابل خدمات لا تدخل في حساب القيادة، وكان أصحاب العمل والمتاجر يُعطونه الفواتير «المضروبة» اللازمة عن طيب خاطر، و«المضروبة» تعني الكاذبة أو «الملعوب فيها» (doctored) لا المزيفة (forged) فهم يَعرفون أن صاحب السيارة لن يشعر بالزيادة بل هو معتاد على ذلك ولم يعرف قط أسعارًا أقل، وكنت أنصت إليه صامتًا في انتظار نهاية القصة التي كنت أحدسها وأتوقعها، لكنه عندما بدأ يكثر من ترديد لفظ الجلالة أو يردف كل عبارة يقولها بتعبير «ربنا يجازي ولاد الحرام» وجدت نفسي أسأله بصوت خفيض «يعني ده موش حرام؟» فإذا به يُصبح «حرام إزاي يا بيه؟ ده ربنا بيقول وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم! وهوه فيه محروم أكتر مني ومن عيالي؟ ده حق ربنا يا بيه!»

ولم أعترض ولم أُناقش؛ فمِن العبث المناقشة في هذه الأمور؛ فالرجل مؤمن بالله وبتفسيره الخاص لما أنزل الله في كتابه، والله أعلم من أين أتى بهذا التفسير الذي شغَلني

حتى ذُهلت عن بقية القصة، ولم أُفق إلا على صوته وهو يُردِّد أنه وأولاده في ضنك، ثم أشار إلى سيارتي قائلًا: «موش عايز سواق؟» ولم أجب بل أخرجتُ ورقة مالية دفعت بها إليه وهو يعترض ويؤكد لي أنه «في خدمتي» وأنني أستطيع أن أجده متى شئت في هذا المقهى.

أين الثنائية؟ كان بإمكان السائق لو كان فصيحًا أن يقول إنَّ سرقة مخدومه سرقة طفيفة، ودرجة الحرام فيها محدودة، وكان بوسعه — لو أراد التحذلق — أن يقول إنَّ الحصول على هذه العمولات السرية أصبح من باب الخطأ المُتعارف عليه، وشيوع الخطأ يجعله عُرْفًا من أعراف المجتمع، ولُرتكبه أن يطالب بالتغاضي عنه، ولكنه لا يقول إنه حرام أو مكروه أو خطأ بل يزعم أنه حق، وربما كان يعني «حقًّا مكتسبًا» (vested right) أي الحق الذي يستند إلى الواقع بالعرف وطول الممارسة ولو لم تكن له أسانيد «أصيلة» في القانون أو في الدين، بل إنَّ الرجل يستشهد بآية قرآنية يعلم الله — كما قلت — من فسرها له هذا التفسير! ولم تكن تلك أول حادثة من نوعها، ولكنها كانت المرة الأولى التي يُستشهَد فيها بالقرآن أمامي لتبرير السرقة (أو الاختلاس)، وقد ذكرتني بما كاد الزمن أن يطمسه لكثرة ما تراكم عليه من أحداث:

كان أحمد (...) زميلًا لي في مدرسة رشيد الثانوية، وكان يجلس إلى جواري في السنتين الثانية (تُعادل الإعدادية حاليًا) والثالثة، وكان أبوه فرَّاشًا في أحد المساجد، وما لبث أن ارتدى الجبة والكاكولة والعمة، أي الزي الرسمي لطلاب التعليم الديني، أو لخريجي المعاهد الأزهرية، دون أن يعترض أحد، إما لأنه ارتداه على مراحل حتى لا يفاجئ أحدًا بالتغيير، وإما لأنه كان فعلًا من تلاميذ الكُتَّاب ثم انقطع عن الدراسة واحتفظ بالزي، وهذا ما أُرجِّحه، وإما لأنه غاب فترة عن البلد ليوحي بأنه كان يدرس في معهد الإسكندرية الديني ثم عاد مُرتديًا هذا الزي، إذا صدقت رواية الشيخ «حمدتو» (تُنطق حَمَتُّو) إمام مسجد الجندي المواجه لوكالة الباشا (والد نجيب محفوظ الكاتب المشهور) وإما لأنه نجح في امتحان عقدته وزارة الأوقاف لخدم المساجد فارتدى هذا الزي رسميًّا، كما يقول حسين ابنه الأكبر، وأيًّا كان الأمر فقد كان يتولى الأذان ويؤم الناس في الصلاة أحيانًا إلى جانب أعمال التنظيف والصيانة — عمله الأساسي — مع مَن يتطوع لذلك من أبناء البلد، كما اكتسب على مر الأيام احترامًا صامتًا وعطفًا دفينًا من جميع أهل البلد بسبب دماثة خلقه، فكان الجميع يُكرمونه ولا يبخلون عليه بشيء، خصوصًا لأن له سبعة أبناء، الولدان في المدرسة، والبنات الخمس ينتظرن الزواج، وآمال الحراك

الاجتماعي (social mobility) شبه معدومة، فلا مال ولا جمال، بل فقر وستر من الله سبحانه وتعالى.

وجاءت الثورة المصرية بالخير للأسرة، فأعفت الوالد من دفع المصروفات الدراسية، وأمرت بصرف وجبات غذاء للتلاميذ (كانت تُسمى «التغذية المدرسية») فكان الولدان يَحملان طعامهما من خبز وجبن وحلاوة (أو موز وبرتقال) مع الفائض من وجبات القادِرين، إلى المنزل، كما نظمت الثورة توزيع «معونة الشتاء» من لباس مُتواضِع وكساء خشن على المعوزين، فتمكن الولدان من مُواصَلة التعليم الثانوي، وتمكنت بعض البنات من الزواج وتخفيف أعباء رب الأسرة، وكان أحمد يُلازمني في فترة المراهقة فيقصُّ عليَّ قصص الزملاء و«شقاوتهم» في فترة البلوغ، فقد كان معظمهم أكبر منَّا سنًّا وسبقونا إلى البلوغ بعام أو عامين، فكانت لدينا اهتمامات مُشتركة، وكنت أسمع ما يقال بأذن نهمة، وإن قلَّ اختلاطي بالكبار عندما انتقلنا إلى شهادة الثقافة العامة (الثانية الثانوية حاليًا) وهي الشهادة العامة التي أُلغيت في العام التالي، وتوثقت علاقتي بأحمد في التوجيهية (الثانوية العامة حاليًّا)، وكنَّا معًا في الشعبة العِلمية فلم يكن بالمدرسة سواها، فكنَّا نَستذكِر دروسنا معًا في غرفة من غرف الطابق الأعلى بمنزل عائلتنا، وكنا نقضي وقتًا طويلًا في «السمر» — «لزوم المراهقة» — حتى حصل هو على الشهادة بمجموع يكفي لدخوله كلية الزراعة (٥١٪) فانتقل إلى الإسكندرية ليُقيم مع بعض زملائه من البلد، وانتقلت أسرتنا نحن إلى القاهرة — كما سبق أن رَويت في **واحات العمر** (ج١).

كان أحمد مجدًّا مجتهدًا، وكانت حياته الجامعية في الإسكندرية مثالًا للسعي نحو تعويض حرمان الطفولة والصِّبا، فوقف نفسه على الدرس حتى تميز — مثل غيره من أبناء البلدة في الكليات الأخرى — وحصل في الفصل الدراسي الأول على أعلى تقدير، وعندما كنا نَلتقي في الصيف في رشيد كان الجميع يَتبادلون أخبار دراستهم وتفوُّقهم، وعلمت منهم أن حياة الطلاب «المغتربين» في الإسكندرية تنحصر في الدرس، وتخلو مما قد يشغل أبناء المدينة من مشاغل المراهقة أو اليفوع، فيما عدا زيارات بعض الفتيات لهم، وهو ما كان البعض ينفرون منه ويخافونه، ويَقبله البعض باعتباره انحرافًا عابرًا «مفهومًا»، وكان الحديث عنه يَشي بالإحساس بالذنب، وبوصمة الخطيئة والعار، ولكن الامتياز في الدراسة جلب الخير للجميع، في صورة مكافأة امتياز شهرية تدفعها حكومة الثورة تشجيعًا للعلم والتعلم، فعرف أحمد طريق الأطعمة الفاخرة وقوَّى جسده، بعد أن ظل سنينًا نحيلًا ضئيلًا قصيرًا، بل إنَّ المكافأة الشهرية كانت تكفي لاستئجار شقة

كاملة للأسرة كلها، فانتقل الجميع إلى الإسكندرية، حيث وجد الوالد عملًا في مسجد صغير (زاوية) في السيَّالة، وهو حي شعبي مجاور لرأس التين في منطقة «بحري»، وحيث عمل أخوه في إحدى الشركات الحكومية (قطاع عام) فابتسمت الدنيا للأسرة، وعندما وصل أحمد إلى السنة الرابعة (تخصص مبيدات) وكان أول الدفعة، جاءه عرض للعمل في مزرعة سلماوي بك (والد محمد سلماوي الكاتب الشهير) القريبة من رشيد، وكنا في عطلة منتصف العام (١٩٥٨م) حين وجدته يدقُّ باب منزلنا في العجوزة، المكان الوحيد الذي يعرفه في القاهرة، ويقص عليَّ القصص.

واصطحبته إلى الفندق الذي كان سلماوي بك قد حجز له فيه غرفة، تمهيدًا للمقابلة الشخصية لإتمام إجراءات التعيين، وكان فندق «منيرفا» في شارع سليمان (طلعت حرب حاليًا) وكان أجر الليلة خمسين قرشًا كاملة. وجلسنا ساعة نتحدث فحكى لي عن فتاة بيضاء سمينة من جيرانه في المنزل تزورهم في شقتهم، وأنه استيقظ ذات يوم على شقة بطيخ تمس الفتاة بها شفتَيه، وسألني إن كان هذا دليلًا على الحب، فسألته أنا إن كان يحبُّها، فقال لي إنها بيضاء، كأنما حسم الأمر بهذه الإجابة، فقد كان هو أسمر اللون شديد السُّمرة، فعدْتُ أسأله إن كان قد طلب الخروج معها — فهذا ما كنا نفعله في القاهرة — فقال لي إنَّ الخروج مكلِّف وهو يضيِّع الوقت فيما لا غَناء فيه، وهو يحتاج إلى كل دقيقة للدرس، حتى إنه لا يقرأ الصحف مطلقًا، ولا يستمع إلى الراديو، ثم أضاف قائلًا إنَّ للفتاة كابينة على شاطئ البحر وقد دعته إلى زيارتها يومًا ما والنزول إلى البحر لو أراد! وسَأَلْتُهُ إن كان سيفعل ذلك فقال بسرعة «بحر إيه يا عم! احنا في إيه ولا إيه!» وبعد أن اجتاز المقابلة الشخصية بنجاح في اليوم التالي رحل إلى المزرعة، ولم أقابله حتى تخرج وعين معيدًا في الكلية.

وفي أوائل صيف عام ١٩٦١م فاجأني ثانيًا بزيارتي في المنزل، وكنت وحدي بعد أن سافرت الأسرة إلى رشيد، فقضى معي أيامًا في شقتنا، وكان معه أوراق كثيرة بالإنجليزية يريد أن يفهم ما فيها، وبعض استمارات التقديم إلى الجامعات الأوروبية والأمريكية، فقرأتها معه وترجمتها له، وساعدته في ملء الاستمارات، واصطحبته إلى إدارة البعثات لأنه كان مرشَّحًا للسفر في بعثة دراسية للحصول على الدكتوراه في علم المبيدات الحشرية، وقص عليَّ كيف أنه يعمل بعض الوقت «خبيرًا» بشركة سيكلام للألبان، ويتقاضى منها مرتبًا مجزيًا، وأنه ترك العمل لدى سلماوي بك، كما حكى لي عن قصة غرامه بإحدى الفلاحات في مزرعة البيك وأسهب في وصف ما جرى بينهما، ثم انتهى إلى حبيبته البيضاء

قائلًا إنها تشغلُه الآن عن كلِّ ما ومَن عداها! واصطحبته ذات يوم إلى شقة الأستاذ أحمد السودة الذي كان قد عُيِّنَ وكيلًا للنيابة (في النيابة الإدارية المستحدثة في آخر الخمسينيات) وكان أخوه عاطف طالبًا في كلية الزراعة فقابَلَه وتحادَثَ معه، وسأله الأستاذ أحمد السودة عن رأيه في الشعر الذي أكتبه فنظر إليه صاحبنا في دهشة وقال «شِعر إيه؟» فضحك الأستاذ أحمد وقال له لا بد أن وراءه قصص غرام! فضحك صاحبنا باستخفاف وقال: «لا ... لا!» وتعجب الأستاذ أحمد من رأي صاحبنا في حياتي العاطفية وسخريته منها، ولم يُدرك مرمى صاحبنا إلا حين قال في النهاية: «كله كلام ... كلام!» وأما أنا فلم أدرك ما يعنيه حقًّا إلا حين زارني في أواخر شتاء ١٩٦٢م بعد أن حصل على البعثة، فزُرنا مكتب البعثات لإتمام الإجراءات بمساعدة أحد أصدقائنا الرشيديين وهو حسن الإبياري (وهو قريب لأسرتنا قرابة بعيدة) وجلسنا نتناول الشاي في مقهى إيزليتش بميدان التحرير، فحكى لي القصة، وأوجزها فيما يلي:

عندما حصلتْ حبيبته البيضاء على دبلوم التربية عملتْ مدرِّسة في إحدى مدارس الإسكندرية القريبة من البحر، وجعلت تُشجِّعه على الخروج معها وهو متردِّد، فغرام الفلَّاحة كان لا يزال ماثلًا في ذهنه بعد أن نجا من أهلها بشقِّ النفس، فذكَرَت له أن أباها قد استأجر لها شقة وفرشها بالفرش اللازم وأنه مدعوٌّ لزيارتها، فخاف وتقاعس، ولكنها جعلت تُلوِّح له بسعادة غامرة إن هو «استجاب إلى نداء قلبه»؛ ومن ثَمَّ قَبلَ أن يصحبها فقط إلى الكابينة، فهي خالية في الشتاء، ومرة بعد مرة زال خوفه واطمأن، فأفضى بعضهما إلى بعض، وكانا يقضيان الساعات في أحاديث لا تنتهي وسعادة لا توصف، فأحس بأن الدنيا دانت له، ومرت الشهور وهو ينعم بصحبتها وخلوتها في الكابينة، حتى جاء يوم أغبر، إذ اقتحم الكابينة عليهما مساءً بعض أفراد أسرتها وأوسعُوه ضربًا ولَكْمًا حتى كاد أن يَفقد الوعي، وهي تصيح إنه زوجي وتبكي وتُولول، ولم تفلح استغاثتها في طلب العون؛ فالشاطئ مهجور، ولم يتوقف الضرب إلا عندما صاح أحدهم «الولد مات!» وقال لي إنه خاف أن يَفتح عينيه خشية استئناف الضرب، وظلَّ في ذهوله فسمع أباها يسألها إن كانت قد تزوجته حقًّا فأجابت وهي ما زالت في نشيجها العصبي إنَّ الأمر كذلك، وأخرجت لهم من حقيبتها ورقة زواج عرفي (لم يكن صاحبنا يدري عنها شيئًا) فهدأت ثائرة الوالد، وقال إذن نُوثِّق الزواج شرعيًّا، وحملوا صاحبنا حملًا إلى شقة صغيرة على البحر، وقيل له إن الأسرة تُؤجرها للمصيِّفين، ولو أن عقد الإيجار مكتوب باسم الفتاة، وفيها عُقد القران، فبات ليلته يتوجَّع ويتألم دون أن يشكو، وكان ينام نومًا

متقطعًا وكلما فتح عينيه رآها تبكي، «وتلطم خديها» فرقَّ لحالها وأشفق عليها، وعندما طلع الصبح وجدها لا تزال جالسة تبكي وقد أعَّدت له الشاي، وقبل أن يفتح فمه قالت له إنها ستنتحر حزنًا على ما أصابه، ولكن عليه أن يُطلِّقها أولًا؛ فهي لا تقبل زواجًا قسريًّا، وقالت إنها المسئولة عن كل ما حدث بسبب حبِّها له، فذنبها الوحيد هو الحب، وأقسمت أغلظ الأيمان بأنها كانت تتمنَّى أن تتلقى الضرب بدلًا منه، وبأنها لم تكن تدري أن أهلها يعلمون، وقال لي إنه شعر في أعماقه بسعادة نادرة — رغم كل شيء — فها هي امرأة تحبُّه لذاته، وتُعذِّب نفسها من أجله، وعندما سألها عن الورقة «المُنقِذة» قالت إنها كانت قد أعدتها لـ «الطوارئ»، فنحن في مصر، ولا نعرف ما يأتي به الغد، فاقتنع، وعندما حاول الوقوف خذلته قدماه، فتقدمت لمساندته حتى سار إلى الحمَّام، ثم أعَّدت له الإفطار (وكان فيه ما لذ وطاب)، وقالت له أثناء الإفطار إنهما لا حاجة بهما إلى الخروج اليوم، وإن عليهما ألا يُناقشا المستقبل أبدًا، بل أن يهبا النهار للشفاء من كابوس الأمس، وجعلت تُذكِّره بحبها له وهو طالب وأحاديثها الرقيقة قبل «الزواج» فدبَّت الحياة في أعضائه من جديد وأقبل على زوجته يمسح دموعها ويؤكِّد انقشاع السحابة السوداء.

ولم تمضِ أيام حتى علم بنبأ نجاح ترشيحه للبعثة، فلم يخبر أحدًا من أسرته ولم يُخبر زوجته، وها هو في القاهرة ليستكمل الأوراق ويستخرج جواز السفر، وسألني عما عساه يفعل فلم أُجب؛ إذ لم أكن قد استوعبت القصة تمامًا، وكانت الصور التي استدعاها حديثه غائمة في عيني، كما كانت الحقائق مُتداخلة، ولكن الذي هزني هو فرحه الطفولي بحب زوجته إذ كان يقول في سعادة «دي بتحبِّني يَالَهْ!» (ياله = يا ولد باللهجة الرشيدية وهي تُقابل يا بوي بالصعيدية) وكان يُلمِّح أثناء رواية «العلقة» (الضرب المبرِّح) إلى أن أهلها تجنَّبوا ضربه على وجهه أو على رأسه، مما يدل على «ذوق» وتحضُّر، وقال إنَّ غير هؤلاء كان يمكن أن يقتلوه! ومع ذلك فلم أفهم سرَّ تكتُّمه خبر البعثة، فهو ذاهب إلى جامعة نبراسكا بالولايات المتحدة الأمريكية، وذلك ما لا يتأتَّى للكثيرين، وله أن يزهو ويفخر، وقلت له ذلك فلم يُجِر جوابًا وحلَّفني ألا أقول لأحد، فقلت له إن الجميع سوف يعرفون حتمًا، عاجلًا أم آجلًا — كما يقولون — والأفضل للأسرة ولزوجته أن تعرف حتى تُعدَّ للأمر عُدَّته، لكنه ألحَّ وأصرَّ على الكتمان فقلت إن له ما أراد. وانتهى أحمد من جميع الإجراءات بسرعة قياسية، فهو مثابر عنيد، وعاد إلى الإسكندرية.

حافظتُ على السر الذي ائتمنني عليه طيلة شهور عام ١٩٦٢م، وشُغلت بدراستي للماجستير وبالترجمة وبكتابة المسرح حتى حلَّ شهر سبتمبر، وكانت الأسرة في رشيد

كدأبها دائمًا، وعندها وجدتُه يطرق باب منزلنا حاملًا حقيبة ضخمة ساعَدْتُه في حملها وتعجبتُ من خفة وزنها، وعلمت منه أنه سوف يسافر صباح اليوم التالي إلى أمريكا فهنَّأْتُه وقلت له إنني سوف أسافر أيضًا في العام التالي، وجلسنا نتحدث عن الدراسة فقال إنه قَلِق بشأن اللغة الإنجليزية فهو لا يكاد يعرفها، واشتكى من كلمة بعينها يراها تتردد في نصوص المبيدات، وقال إنه حارَ فيها وهي كلمة (approximately) فقلت له إن معناها «تقريبًا»، فتعجَّب وقال إنه سأل الكثيرين فاختلفوا بشأنها، ورأيت ذلك مُسَلِّيًا فضحكت فقال لا تضحك! هناك كلمات أخرى عُقْر، ثم سألته عن أحوال الأسرة فقال في هلَعٍ إنه لم يكن يتصوَّر رد الفعل الذي قابلوا به نبأ سفره ولم يَبُح به لهم إلا عشية سفره إلى القاهرة، فبدلًا من أن يفرحوا به ويهنئوه حاولوا إثناءه عن السفر، وجعلت والدته تبكي وتَنتحِب كأنما فقدته إلى الأبد، وحَذَّرَته أخته من مخاطر ركوب الطائرة، وقال لهم أبوه إنه سوف يحصل على الدكتوراه ويعود مظفَّرًا وفق رؤيا رآها في المنام، وأما زوجته فكادت ترقص طربًا عندما سمعت النبأ، وقالت له سوف ألحق بك في أمريكا فأتعلم الإنجليزية وأنجب أطفالًا أمريكيين، وسألني أحمد إن كان ذلك صحيحًا، وأردف يشرح سؤاله: يعني هل يُمكن أن يُنجِب ذرية أمريكية؟ وقلت له إنها ستكون ذرية مصرية ولو حملت الجنسية الأمريكية، فقال في حزن: يعني مافيش فايدة؟ وضحكنا، ثم تذكر شيئًا عاد بالغمام إلى وجهه إذ قال: أبوها قال لي إنه سوف يَستخرج جواز سفر لابنته ويُرسلها إليه حالما يعرف عنوانه في أمريكا، ولديه عقد الزواج اللازم لاستخراج الجواز والحصول على تأشيرتي الخروج (من المجمَّع) والدخول (من القنصلية الأمريكية) وهدَّدني بأنني إذا لم أرسل دعوة صريحة لزوجتي، أو إن حادثتني نفسي أن أنكص على عقبي فسوف «يرسل خلفي البوليس الدولي ويُحضرني إلى مصر مقيدًا بالسلاسل!» وسألني أحمد إن كان ذلك ممكنًا، فسألته بدوري عما التزم به في عقد الزواج — وبدا عليه عدم الفهم فقلت له إن من الالتزامات «مؤخر الصداق» في حالة الطلاق — لا سمح الله — أو ما إلى ذلك بسبيل، فقال إنه لا يعرف وإن همه الأول هو الانتهاء من الدكتوراه وإنه جادٌّ في مَطلبه ولن يعبأ بشيء سوى ذلك. واصطحبته في الصباح إلى مطار القاهرة الدولي حيث استقلَّ طائرة مصر للطيران بحقيبته شبه الفارغة، وجيب فيه خمسة جنيهات إسترلينية، وكانت تلك آخر مرة أراه فيها؛ إذ استقر في أمريكا، وقابلتُ أخاه (حسين) في القاهرة بعد ذلك بنحو عام واصطحبته إلى وزارة الخارجية في ميدان التحرير لتوثيق ورقة الطلاق الموثقة من القنصلية المصرية في أمريكا (لا أذكر في أي بلد) وسألته عن أحمد فقال إنه سعيد وجاد في دراسته كالعهد به.

إنها قصة عادية تتكرر كثيرًا، ولقد تكررت كثيرًا في حياتي مع أصدقاء الصِّبا وغيرهم، وهي من القصص «المفتوحة» التي لا نعرف لها نهاية، ولا تقبل الحكم أو التحليل باللونين الأبيض والأسود! وكثيرًا ما أتساءل في نفسي عن حقيقة ما حدث وقد رويته بصدق حسبما سجلت آنذاك من مذكرات صادقة، وأصحابها أحياء (معظمهم على الأقل) وقد يقرءون هذا الكتاب فيعجبون، وقد يختلف بعضهم معي في تفسيري للأحداث أو في رصدها، فأنا أروي القصة من وجهة نظر فرد واحد، وأُترجِم لغته العامية إلى فصحى، وأختصر وأوجز وأضغط، فأختار وأحذف مما وَسِعَتْه الذاكرة، وأستكمل ما ضاع منها من معرفتي بصاحبها وأهله وبالإنسان؛ أي إن لي وجودًا — شئتُ أم أبيْتُ — يَنفي أو يجعل من العسير إصدار حكم أو رأي نقي من الشوائب، فكيف يُفتي مُفْتٍ في أحوال الإنسان ويطلب اليقين وهو لا يستطيع حتى أن يتحقَّق مما حدث؟

أين الأبيض والأسود في هذه القصة؟ لو كانت من نسج الخيال لأَضَفْتُ الظلال لتأكيد اللونين وفق ما يتراءى لعيني، ولأَوْحَيْتُ للقارئ في ثنايا السرد بما أريده أن يتعاطَف معه وما أريده أن ينفر منه، فالقصة الخيالية حبل لا يُمكن شده إلا إذا أمسك القارئ بطرفه الآخر، ولكن الحياة تتكوَّن من حبال مقطوعة أو ذات أطراف سائبة، وقد يكون من اليسير أن ندين البطل أو البطلة وفق معايير دينية نحكم بها على الظاهر، ولكنَّ الظاهر خادع بطبعه، فقد يكون ما نرى ناقصًا، والنقص يبتعد بالرواية عن الصدق المنشود؛ إذ قد تكون لما خفي عنا دلالة تغير تمامًا من معنى ما نشهد، والله سبحانه وتعالى هو الذي يحكم على ما ظهر وما بطن، وهكذا سأدعو القارئ إلى النظر في «فجوات» القصة التي رواها أحمد، والاحتمالات التي يمكن أن تترتب على ملء هذه الفجوات، ولنبدأ بحكمنا باللون الأسود على الخطأ الظاهر والمؤكد، وهو المعاشَرة قبل الزواج.

نعلم أن الأسرتين يسكنان معًا في المنزل نفسه، وأنهما يتزاوران، وأن الفتاة البيضاء السمينة كانت تدخل إلى غرفة أحمد الطالب، وتُوقظه من النوم بشقة بطيخ، تحت سمع وبصر الأسرتين، ونعلم أن ذلك استمر سنوات، ومن المحال ألا يعلم أهل الفتاة بمَوقفها حتى وإن غابت عنهم التفاصيل، أو أن يجهل ذلك أهله؛ أي إن شرط العلانية متوافر منذ البداية، إلى جانب الرضا والقبول بطبيعة الحال، حتى ولو تصور أحمد غير ذلك، وسعد بجوِّ السرِّية الذي يُولع به المحب في فترة المراهقة، فيظن أن أحدًا لا يعلم والجميع يعلمون، خصوصًا في مجتمعاتنا العربية المغلقة، كما نعلم أن أباها كان يوافق على مشروع زواجها منه وإن لم يُعلن ذلك المشروع، وأنه استأجر شقة خصيصًا لها وأثثها انتظارًا

ليوم تخرُّجه وتنفيذ المشروع، فإذا افترضنا أن الوالد كان يعرف بمواعيد لقائهما، وإن كان يستبعد تجاوزهما الحد المعروف، فالجميع من المؤمنين الذين ينفرون من الخطيئة ويدينونها، وإذا افترضنا أنه لم يكن يعلم أنهما يذهبان إلى الكابينة وأنه حين علم غلى الدم في عروقه مثل أيِّ أبٍ مصري ففعل ما فعل، إذا افترضنا هذا وذاك وجدنا أن الخطأ الذي ارتكبه أحمد هو الزواج الفعلي قبل الزواج الرسمي، وهو خطأ بكل المقاييس، ولكن درجة السواد فيه تقل حين نذكر كل هذه العوامل مجتمعة، وتقلُّ كذلك حين نُشرك الفتاة في المسئولية، فالواضح أنها عاشت قصة حب عنيفة دفعتها إلى إغواء أحمد، وقد يشتط بنا الخيال فنفترض أن أحد أفراد الأسرة هو الذي أعطى الفتاة مفتاح الكابينة وكان يعلم بما يحدث، مما يُقلل أيضًا من درجة اللون الأسود، ولسوف تظلُّ هذه الاحتمالات قائمة ما قامت للإنسان قائمة على الأرض، وما دام البشر يخطئون ويتوبون، وما داموا يشتركون في تشكيل حياتهم معًا، فحياة أحمد لا تنفصل عن حياة أسرته الفقيرة، وربما كان يخشى الزواج على الرغم من نيته الصادقة فيه وحبه للفتاة بسبب التزامات مالية يخاف أن ترهق أسرته، فلقد أصبح عائلها الأول في الإسكندرية، وأخواته يحتجن إلى مساعدته المالية، والبنت لها الأولوية في مجتمعنا، أو قل إن ذلك هو ما درج عليه. نعم! إن ظلال السواد تخفُّ كثيرًا كلما أمعنَّا النظر في هذه القصة — سواء من وجهة نظر الفتى أو وجهة نظر الفتاة — ونحن نطلُب المزيد من العلم حتى نستطيع إصدار الأحكام، ولكن العلم الذي نطلبه محال، فهو يتضمن العلم بالظاهر والباطن وهو ما لا يُحيط به إلا الله سبحانه وتعالى.

لقد أدنْتُ السائق الذي يسرق مخدومه، وأدنْتُ الخاطئين وفقًا لما أعلم من علم، ولكن اليقين في الحالين بعيد المنال، ولذلك تظلُّ شكوكي قائمة في اللونين الأبيض والأسود، ويظل حذري كبيرًا من اليقين في أحكامي؛ فالبشر خطَّاءون، والأجدر بالخطَّاء ألا يحكم على الخاطئ.

٣

أرجو ألا يُفهم من كلامي أنني أنكر وجود اللونين الأبيض والأسود؛ فالخير موجود والشر موجود، ولكن الخير والشر مفهومان أو قيمتان مجرَّدتان لا نعرف إلا درجات من كل منهما، والدرجات مُتفاوتة في الواقع؛ أي في واقع الحياة العملية، لأن المطلق لا يوجد في دنيانا، بل هو مقصور على الله سبحانه وتعالى، فهو المطلق الوحيد — كما يقول هيجل —

ونحن نتوسَّل في سبيل الوصول إلى معرفة المطلق بالاستعارة، واعين بأن تلك المعرفة ذاتها ليست في طوق الكثيرين؛ ومن ثم فنحن نستعين بمصادر معرفية غير العقل المحدود، ونأمل أن توصلنا إلى الإحساس بالمطلق، مثل الروح، فللروح طاقات غير محدودة إذا انتبهنا لها ونمَّيناها — كما ذكرت في **واحات مصرية** — ومثل الفن بشتى طرائقه وأشكاله، ومثل الشعائر الدينية التي تُساعد الروح على الشفافية، وتساعدنا على الخروج من الاهتمامات الدنيوية الصغيرة ولو للحظات قصيرة من الصدق، ولكن الأقنعة التي تحدثت عنها في الفصل الأول تدفعنا في أحيان كثيرة — وتدفع العامة دائمًا — إلى الارتكان إلى اللون الأبيض المطلق واللون الأسود المطلق، فهذا حسنٌ وذاك قبيحٌ، وهذا خير وذاك شر، ونحن نفعل ذلك لأسباب عملية تتعلق بالفعل لا بالفكر أو الإحساس؛ لأن علينا أن نتخذ قرارات في حياتنا اليومية (أو نأخذ بخيارات) لا تحتمل الانتظار، ونحكم بالصواب الكامل على الصواب النِّسبي، وبالخطأ الكامل على الخطأ النسبي، ونستخدم في الحكم معايير مُستقاة من ضروب منوعة من أنساق القيم أو نظمها (systems of values)، مثل قيم الدين المطلقة، وقيم النفع الدنيوي؛ أي ما فيه صالح الإنسان في الدنيا، وقيم الجمال والقُبح، وقيم المشاعر أو الانفعالات، وأحيانًا ما يكون الخلط بين هذه المعايير راجعًا إلى تكامل أنساق القيم المذكورة في حياة الإنسان واستحالة فصل بعضِها عن بعض، فنفس الإنسان مركبة مثل حياته، وقيمها متداخِلة تداخُل العوامل التي تغرسها في النفس وتغير بعضها أو الكثير منها على مدار الزمن، وأخطر أحكامنا هي التي لا يتوافر لنا الوعي الكامل بها، ولكنها تتجلى فيما نقدم عليه من أفعال، وما نقوله من أقوال، وبعضنا يحاول أن يكون واعيًا كل الوعي بكلِّ ما يفعله أو يقوله، وهؤلاء ثُلة من المفكرين وقليل من المثقَّفين؛ فالوعي من وظائف العقل الخالص ولا يُقدم على الاستناد إليه وحده إلا من تعلم وقرأ فآمَن به، وأما أكثر الناس فهم يَعيشون حياة مركبة تشغلُهم بتفاصيلها حتى ما يكاد أحد يجد الوقت الكافي للاستئناس بالعقل الخالص — أي المجرَّد من الدوافع التي تحجب الوعي — ومن ثم فهو يجد في تفكير غيره منارًا يهتدي به، خصوصًا إذا كان هذا التفكير قائمًا على أنساق القيم ذات الأولوية لديه، مهما كانت الدوافع من ورائها لدى هذا أو لدى ذاك.

وحين يهتدي الفرد برأي غيره فقد يكون في الواقع يهتدي بهوى نفسه، وتعريف الهوى في هذا السياق يختلف عن معنى الكلمة الديني «ونهى النفس عن الهوى»، بل معنى الكلمة هنا هو ما قصدت إليه من تعبير **أنساق القيم ذات الأولوية**، ووصف القيم بالأولوية هنا مهم؛ لأن الإنسان لا يولي جميع القيم الأولوية نفسها، وإذا كان الجميع، فيما يبدو، يولون القيم الدينية الأولوية في حياتهم فإنهم يختارون منها ما يتمتع بأولوية أكبر

لأسباب ترجع كما قلت إلى دوافعهم الخاصة، فالغالبية يولون «التكاليف»؛ أي الفرائض الدينية أولوية قصوى، حتى ولو أهملوا فيها فأحسُّوا بالذنب، وأما قيم الدين الأساسية فهي تخضع للتأويل في ضوء أنساق قيم أخرى تحتل (ولو كان ذلك دون وعي) مكانًا أرفع في حياتهم، فالصدق قيمة تتلون بألوان الحياة العملية، فقد لا يتورع التاجر عن الكذب، من منطلق أن التجارة «شطارة» أو قل إنها حرب والحرب خُدعة، وقس على ذلك قيم الأمانة، والوفاء بالوعد، والإخلاص، والامتناع عن الأذى بـ «القول والفعل» وعن الغش، وعن الغيبة والنميمة، وعن التجسس، إلى آخر القيم التي يزخر بها الدين، والتي تنص عليها الشرائع السماوية و«تنصح» بها الشرائع الإنسانية، فكلها يخضع للتأويل ابتغاء تحويل إحدى القيم إلى قيمة أخرى، من باب «قولة الحق التي يراد بها باطل»، على حد تعبير عليِّ بن أبي طالب، أو من باب «إلباس طاقية هذا لذاك»؛ أي إلباس الشيء لباس غيره، فالرشوة تصبح «إكرامية» أو «حلاوة» أو «مكافأة»، ومَن يمتنع عن الغش في الامتحان يُصبح أنانيًّا محبًّا لذاته، والأجدر به أن يساعد أخاه المؤمن في محنته؛ فـ «الامتحان محنة»، ومن يتجسَّس يُصبح طالبًا للمعلومات في عصر المعلومات أو العلم الذي أمر به الدين، وقس على ذلك كثيرًا مما يعرفه القارئ خير المعرفة.

والواقع أنني لم أكن أريد هذا الاستطراد، بل كنت أريد التركيز على مفهوم القيمة نفسها، وربط هذا المفهوم بموضوع الأبيض والأسود — موضوع هذا الفصل من الواحات — ولكن فكرة الأولوية فرضت نفسها فرضًا؛ إذ لا يوجد في الدنيا ما يُمكن اعتباره قيمة مُطلَقة؛ فالقيم المطلقة مفاهيم مجرَّدة؛ أي إننا نُجرِّدها من الحياة العملية للإنسان وأحداث الدنيا الواقعية، ولذلك فهي مفاهيم يَعتمِد معناها على سياقها، وتخضع لشرائط كثيرة، وأخطر ما نُعاني منه في تفكيرنا هو نسيان ذلك السياق وتلك الشرائط، فنحن نتَّفق طالما نحينا السياق والشرائط ونَختلِف حين نُوردها ونبحثها، وأقرب الأمثلة هو خلاف المؤرِّخين في الحكم على ما فعله الظاهر بيبرس البندقداري، السلطان المملوكي الذي ترك آثارًا مجيدة في مصر ونُسجَت حول سيرته الأساطير، عندما طعن قُطُز، السلطان المملوكي الذي انتصر على التتار وكسر شوكتهم وأنقذ مصر والعالم العربي من خطرهم الداهم والذي اشتهر بصيحته المشهورة «وا إسلاماه!» فجمع الجند من حوله وحارب حتى النصر، لقد طعنه غِيلةً وغدرًا، وهُما في طريق العودة من الشام، أثناء توقُّف الجيش الظافر في بلبيس، ثم أعلن أنه أصبح السلطان الجديد، وبدلًا من أن تستقبل القاهرة السلطان المنتصر قُطُز، استقبلت وهلَّلت للسلطان الجديد «الخائن» بيبرس. لا خلاف على

الواقعة؛ فالمؤرِّخون المُعاصِرون يَروُونها بدقة، ولكن الخلاف يدور حول مفهوم الخيانة — وهي الكلمة التي وضعتُ أمامها علامة استفهام. لقد طعن قائدٌ حربيٌّ بخنجره سلطانًا وثق به وعيَّنه قائدًا لفيلق من فيالق الجيش المصري، ولكن بعض المؤرخين يقولون إن قُطُز كان قد وعد بيبرس بتوليته إمارة الكرك في الشام ثم نكث بوعده فـ «استحق القتل»، والبعض يقول إنه وعده بجارية، ومهما يُفِضِ المؤرخون في التبرير، نظرًا لعظَمة الملك الجديد، فلا مهرَب لنا من مواجهة واقعة القتل — وأقصى ما نستطيعه هو تحديد درجةٍ ما من درجات الخيانة، وأن نحبس حكمنا — أي أن نمتنع عن إصدار حكم أخلاقي — لأننا لا نحيط بدقائق السياق الحقيقي والشرائط الفعلية التي وقعت فيها تلك الواقعة. وقس على ذلك موقفنا من وقائع كثيرة في التاريخ البعيد والقريب، فهل كان علي بن أبي طالب، وهو مَن هو في الإسلام، على حق في حروبه ضد المسلمين؟ في حربه ضد عائشة، وضد غيرها؟ وهل كانت عائشة أم المؤمنين على حقٍّ في حربها ضده؟ وهل يجرؤ أحد على إصدار حكم يمس أحدهما؟ الإجابة تكمن في مفهوم كلمة «الحق»، والعيب يكمن في تفكيرنا الذي يعامل هذا المفهوم معاملة القيَم المطلقة الخارجة عن السياق وشرائط الحياة العمَلية، والمجرَّدة عن غيرها من أنساق القيم، فنحن نريد اليقين والقطع حتى نستريح، ولذلك فنحن نقلق من مجرد طرح السؤال؛ لأن السؤال معناه التساؤل، والتساؤل قد يعني الشك، والشك مرذول، والتشكيك جريمة في نظر أصحاب اليقين، سواء كانوا في القيادة السياسية أم في غيرها من القيادات الفكرية، مع أن التساؤل هو أول شرائط البحث العلمي، في التاريخ أو في غيره، بل هو الطريق المؤكد إلى درجة ما من درجات اليقين.

وانظر معي هذه القصة الموجزة التي بدأت أحداثُها في السبعينيات ولم تنتهِ آثارها حتى مطلع القرن الحادي والعشرين. إنها قصة موظف مصري في إحدى الهيئات الأجنبية جمعتني به صداقة عميقة، وجمعنا احترام مُتبادَل، وهو يَصغُرني بنحو عشرة أعوام. وبدأت فصول القصة حين اغترب صاحبنا، مثلما اغترب المئات بل والآلاف، طلبًا للرزق في أمريكا، لكنه لم يسمح لأمواج الغربة أن تجرفه، فلم يَضِع في الزحام مثلما ضاع صديقي أحمد (...) وضاع كثيرون غيره، بل ظلَّ على صلة وثيقة بأسرته في مصر، وكان يزور أهله بانتظام كلما سنحت له الفرصة، ولكن الوحشة في الغربة قد تُصبح قاتلة، والوحشة عندي هي الإحساس بالغربة والوحدة، ولقد كابدها الشاب أعوامًا وهو يكدُّ ويكدح حتى بلغ مرحلة الضجر، والإنسان قد يشعر بالوحشة ويصل إلى الضجر حتى وهو في بلده إذا لم يكن لديه مَن يأتنس به فكرًا ورُوحًا فيُبقي على الصلة الحيوية بينه وبين دنيا

الإنس، والائتناس إذن لون من الانتماء إلى الإنسانية وحياتها الثرية الحافلة، ولا بد لي هنا أيضًا أن أفرق بين الضجر الذي أعنيه وبين السأم أو الملل؛ فالضجر هو المرحلة الأخيرة من الملل التي يضجُّ فيها المرء من رتابة العيش وتكرار الصور حتى تفقد معناها، فإذا ضجَّ المرء أصبح مهيئًا للانفجار، وذلك ما حدث للأديب والمترجم فؤاد كامل الذي كان يعمل في اليونسكو ثم أصابه الضجر وبدأ زملاؤه يشهدون سأمه وقد بدأ يُؤثِّر في سلوكه؛ إذ أصبح عزوفًا كتومًا، وقال لي زميلي المترجم كمال عزت إنه شهد ذلك بنفسه، وكان يقول له بالفرنسية (J’en ai assez) أي «حسبي ذلك» أو «لقيت ما فيه الكفاية»، وإذا بفؤاد كامل ذات يوم يترك مكتبه أثناء العمل، ودون وداع أو كلام، يتَّجه إلى مطار باريس الدولي ويستقلُّ أول طائرة إلى مصر دون نظرة واحدة إلى الوراء كما قال كمال عزت الذي أردف قائلًا إنه يعجب من سلوك فؤاد كامل؛ لأن باريس فيها كل شيء ولكنه كان قد «زهق!» وأعجبتني كلمة «زهق» العامية لعلاقتها الوثيقة بصورتها الفصحى، ومعناها الذي يوضح معنى الضجر.

وقد يجد الإنسان وهو في هذه الحالة مخرجًا في الزواج؛ فالزواج علاقة حميمة تُتيح للزوجين إذا صدقت علاقتهما تمازجًا وثيقًا وألفة دافئة، وفي ظني أن ذلك كان سبب زواج صديقي من الفتاة الأمريكية التي آنسته فأنسَ إليها، ولا شكَّ أن الزواج قضى على الضجر فترة ما، وأتاح لصديقي لونًا من الاستقرار، ولكنه كان يعني أن يتكيف مع الحياة الأجنبية وينضمُّ بحكم الزواج إلى أسرة جديدة تختلف تقاليدها وأعرافها عن كل ما درَج عليه في مصر، وكان ذلك شاقًّا في البداية، لكنه استعان بقناع خاص، وما أمهر المصري في استعمال القناع، فاستطاع تجاوز بعض العقبات بنجاح، لكنه سرعان ما واجه عقبة كبرى هزت حياته هزًّا.

كانت لزوجته أختٌ أنجبَت بنتًا سفاحًا ثم وقعت في هوَّة الإدمان وفرَّ والد الفتاة فاختفى في أرض الله الواسعة، ثم حكم على الأم بالسجن، وأصبحت البنت دون مأوًى فتأثرت زوجة صديقي لما حدث وعرضت عليه أن يتبنَّياها، ورفض صديقي بطبيعة الحال، فالتبنِّي محرم شرعًا ولا يستطيع المسلم أن ينسب نسل أحد إلى نفسه، واشتعل الخلاف بينهما فلجأت إلى المحكمة فحكمت المحكمة لها بجواز التبنِّي رغم معارضة زوجها، وطعن صديقي في الحكم فقيل له إنه ما دام على أرضٍ أمريكية فلا بدَّ أن ينصاع إلى القوانين الأمريكية، وإن له أن يثبت رفضه لأسباب دينية، ولكن القانون يبيح لزوجته تبني طفلة أختها، والقانون يُناصر المستضعفين (the vulnerable) ولما جاء

حكم الاستئناف لصالح الزوجة، فُرِضَ على الزوج أن يوقع على استمارة «بيان حالة» (استخدمت فيما بعد للتدليل قانونًا على موافقتِه الضمنية).

وأظهرت المعركة القانونية أن ما كان صاحبي يَنشُده من ائتناس قد تحوَّل إلى كراهية باطنة غير معلَنة، والكراهية ليست عاطفة سلبية، فليس معناها غياب الحب، بل هي قوة دافعة في الاتجاه المضاد، والغريب أن الحب عندما يفشل قد ينقلب إلى كراهية مثل القطب الموجب في المغناطيس الذي يتحوَّل إلى قطب سالب، ينفر منه ما كان ينجذب إليه، وهو لا يتحول بين الزوجين عادةً إلى حالة حياد عاطفي أو لا مبالاة (apathy)، بل قد يُصبح نفورًا شبيهًا بالبغضاء التي تولِّد العداوة، مثل ما قد يحدث عندما تنقلب الكراهية إلى حبٍّ أو العداوة إلى صداقة ووُدٍّ بل وحبٍّ! وهكذا بات الطلاق السبيل الأمثل للخروج من وَهْدَة الكراهية، وبات صديقي نادمًا على زواجه غير الموفَّق، ولكن المكتوب مكتوب كما يقولون، والطلاق في الغرب كارثة بكل المقاييس، فهو يعني اقتسام كل شيء بين الزوجين من مال وعقار ومنقولات، مما يقتضي الاستعانة بخبير مُثَمِّن (valuer) قانوني، لتحديد قيمة كل شيء وحسم ما يخصُّ الزوج وما يخص الزوجة، وهي إجراءات طعمها مُر أو مقيت — على الأقل — ولكنَّ أمرَّ ما في الأمر هو الحكم بنفقة لتنشئة ابنة أخت الزوجة، بعد أن أصبح القانون يقول إنها ابنة صديقي (ولو بالتبني). ووكَّلت الزوجة أمهر المحامين الذين يعرفون دخائل القوانين الأمريكية ويُجيدون نصب الشباك القانونية لإيقاع «ابن العرب» فيها، فصدر الحكم بنفقة تُعادل نصف مرتبه؛ «حفاظًا على مستوى المعيشة الذي كانت البنت تتمتَّع به قبل الطلاق». ولم تكتفِ بذلك، بل حكمت بخصم هذا المبلغ شهريًّا من مرتبه الذي تدفعه الهيئة الأجنبية، وظلَّ صديقي يدفع نفقات فتاة غريبة عنه حتى بعد أن كبرت ولم تعدْ تستحقُّ النفقة، فرفع من جانبه قضية عن طريق محامٍ مصري يعمل في أمريكا لاسترداد ما خصم مِن مرتبه دون وجه حق، ولكن الهيئة التي يعمل بها ما زالت تخصم نصف مرتبه، ولا يجرؤ أحد على تغيير أي شيء؛ إذ يبقى الحال على ما هو عليه حتى تصدر المحكمة حكمًا نهائيًّا في القضية التي لا تزال المحاكم تنظرها حتى اليوم (٢٠٠٢م) ولا يجرؤ أحد في تلك الهيئة على أن يعترف بأن خطأً ما قد وقع؛ لأن ذلك معناه محاسبة المسئول عن ارتكاب ذلك الخطأ، وكيف يعترف أمريكي بخطأ أمريكي آخر في حقِّ عربي؟

هذا هو موجز القصة الموجعة، وقد يخفِّف من ألمها أن صديقي تزوج من جديد ولكن من فتاة عربية هذه المرة، ووُفِّقَ والحمد لله في هذا الزواج، وأنجب منها بنتًا جميلة، بل وترك أمريكا إلى الأبد ولم يعد يقبل الإغراء بالعودة إليها ولو في منصب أعلى، ولكن

الألم — ولو خفَّ — ما زال قائمًا، وأنا حائر فيما عسايَ أن أقوله بشأن هذه القصة التي لم تنتهِ فصولها بعد، فهل أخطأ صديقي بالزواج من أمريكية؟ أم هل أخطأ بالزواج من هذه المرأة تحديدًا؟ وهل أخطأ حين رفض التكيُّف الكامل مع المجتمع الأمريكي ما دام قد قبل الحياة فيه؟ وهل أخطأ حين وقَّع استمارة بيان الحالة — وهي التي استخدمت ضده في المحاكم فيما بعد؟ وهل كان عليه أن يُصرَّ على الطلاق قبل أن يقبل دخول الابنة المتبنَّاة منزله؟ إنني أميل — بطبيعة الحال — إلى تبرئته تبرئة كاملة، ولكن موقفي هو موقف العربي الذي يعتنق مبادئه نفسها ويتعاطف معه بسبب مشاركته قيمه وشتى ظلال الأبيض والأسود في تلك القيم، ومع ذلك فسوف أجد بين القراء العرب أنفسهم من يختلف معي، وقد يجيب بالإيجاب على سؤال أو أكثر من الأسئلة الخمسة التي طرحتها. وأما القراء الأجانب — أي من غير العرب — فلا أظن أنني سوف أجد من بينهم مَن يُشاركني موقفي، فإذا وجدت بين الأوروبيين من يتعاطف معي ولو لأسباب منطقية محضة، فلن أجد بين الأمريكيين مَن يُوافقني على مساندتي لموقف صديقي، بل سيرى في القصة انتصارًا للطفولة البريئة، وتأكيدًا لحق الإنسان في الحياة بغض النظر عن أي شيء! فأنساق القيم التي تحدِّد درجات اللونين الأبيض والأسود أنساق لا تخلو من العصبيات العرقية، وهي عصبيات تتنافى تمامًا مع القيم الدينية السماوية — سواء كان ذلك في المسيحية أو الإسلام — كما تتناقض مع قيم العدالة التي تنص عليها الشرائع التي وضعها الإنسان، ولكنها قوى حقيقية بل وأحيانًا ما تكون القيم الرئيسية التي تتحكم في الأحداث لا على المستوى الفردي فقط بل على المستوى الجماعي أيضًا، على نحو ما نشهد في السياسة الدولية، فليس صحيحًا أن السياسات الدولية لا تمليها إلا مصالح الشعوب وحدها، أو مصالح «الطبقات الحاكمة» وحدها، أو حتى «مصالح» أفراد بعينهم في حكومة هذا البلد أو ذاك وحدها؛ لأن افتراض دوافع المصالح يعني أن الإنسان يُحكِّم عقله دائمًا ويختار ما يخدم «مصالحه» دون غيره، والمقصود بالمصالح هنا الفوائد المادية التي تعود على الإنسان في الحياة الدنيا، وهو يعني أن الإنسان لا ينشد إلا الرخاء مثلًا وفرض السيطرة التي تؤمِّن الرخاء وتفي بمطلب الإحساس بالقوة، والرخاء مطلب تمليه طبيعة الحياة، والقوة من العوامل النفسية التي تحدث عنها الفلاسفة وعلماء النفس فأفاضوا، وسوف نجد تحليلًا لها في نظرية تصارُع الإرادات عند شوبنهاور، وفي نظرية الغلبة والسيادة عند نيتشه، وجدليَّة الخادم والسيد عند هيجل، ونظرية السلطة أو القوة عند عالم النفس أدلر، ولن يصح لنا افتراض المصالح المادية حتى لو ربطنا هذه الدوافع النفسية بدوافع اقتصادية خالصة، أو قصر

الدوافع التي تُحرِّك الإنسان على مقتضيات الحياة المادية المحضة؛ فقد يقدم البعض على أعمال يعرفون خير المعرفة أنها مدمِّرة لحياتهم الاقتصادية أو المادية إرضاءً لدوافع غير عقلانية — مثل المشاعر أو العصبية أو الثأر — وقد تبلغ المشاعر من العنف ما يجعلها تكتسي صورة العاطفة المشبوبة، حبًّا كانت أم كراهيةً، وقد تُعمي العصبية الإنسان عن مصالحه حتى الواضح والقريب منها، وأما الثأر فحدِّث عنه ولا حرج!

وعندما قصصت هذه القصة على الأستاذ دافيد فرانكلين، أستاذ تاريخ الفنون في جامعة بيتسبيرج في مطلع عام ١٩٩٩م، أثناء زيارتي للجامعة، قال لي ونحن في الطائرة المصرية التي ركبناها في طريقنا إلى القاهرة، فهو مولع بمصر وفنونها، قال لي: ومَن أدراك أن صديقك لم يتزوَّج الأمريكية إلا ليحصل على الجنسية الأمريكية؟ فلمَّا أنكرتُ ذلك وقلت له إنه لم يَحصل على تلك الجنسية، بل حافظ على جنسيته المصرية، وما زال يحمل جنسية بلده إلى الآن، قال لي: القضاء الأمريكي يفترض ذلك في كل الأحوال أو هو يظن ذلك في جميع هذه الحالات لتواتُرها وكثرتها، فقلت له أحاوره: ولماذا لا يحسن القضاء الظن بالناس فيُقيم العدل الذي يَسعى — تعريفًا — إلى إقامته؟ فضحك وقال: وهل العدل أن تتزوَّج وتطلق كما يحلو لك؟ ورأيت التعبير مُستفزًّا فقلت له إن صاحبي ليس مزواجًا بل هو اتبع السبيل القويم فختم علاقته بزواج مشروع! فازداد ضحكه وقال ما معناه إنني أتحدث بلسان المثل الأعلى الذي سقط وهوى في الغرب منذ زمن بعيد، فالزواج ليس ما تُصوِّره الفنون والآداب — أي ليس علاقة حب بين اثنين، بل هو مؤسسة «قانونية» (a legal institution) الغرض منها إضفاء الشرعية على الأبناء واستقرار صورة المجتمع، لكنه في جوهره يتجاوز العلاقة الثنائية، فيَسمح «باللعب» لكل من الزوجين إما سرًّا أو علنًا، وأضاف قائلًا «ولا تزعم أن ذلك غريب عن المجتمعات الشرقية! كل ما نَختلِف عنكم فيه هو أننا نخدع أنفسنا بإضفاء قداسة مطلقة على رباط الزواج، إيهامًا للعامة بأننا نقدسه من حيث هو رباط مقدس، وإن كنا نسخر عمليًّا من هذه القداسة، وكان الأجدر بصديقك أن يدرك ذلك» فقلت له إنه كان صادقًا مع نفسه، وأتوقع منه أن يكون كذلك دائمًا حتى لو أدرك ما تقول. واختتم فرانكلين الحوار قائلًا: لا يوجد في الغرب من يصدق مع نفسه كل هذا الصدق، وإن حدث فهو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ولا ينفيها، وكان يمكن لصديقك أن يعيش مع تلك المرأة دون زواج! فأسرعتُ أقول: حتى لو أنجب أطفالًا؟ فقال بلهجة من اكتفى بما قيل: وهل يُعارض القانون الأمريكي ذلك؟ وانظر ما حدث مع أختها وابنتها!

وذكرتُ حادثةً شهدتُ نهايتها ولم أشهد بدايتها؛ إذ ساقت الأقدار إليَّ فتاة في عمر ابنتي، قرَّر والدها ذات يوم أن يهجر عمله في القاهرة وأن يعود إلى قريته حيث يَملك أرضًا زراعية لا أعرف مساحتها ولكنَّها تكفي فيما يبدو لإعالته هو وأبنائه الكثيرين، ولكنها قررت استكمال دراستها في الجامعة، فكانت بذلك تعصي أمر الوالد، فكان يتنكر لها حينًا ويشفق عليها حينًا، فعاشت في ضنكٍ مع زميلة لها زمنًا ثم تزوجت زواجًا عُرفيًّا من أحد زملائها، وكانت فيما يبدو تأمُل أن يتحوَّل إلى زواج رسمي؛ إذ كان يُحبها حبًّا جمًّا — كما تقول — ولا يُطيق فراقها، ويبدي الإخلاص كل الإخلاص لها ويستأجر لها شقة مفروشة في حي شعبي يعترف بزواجهما ويباركه، فأحسَّت بأنها اقتربت من تحقيق أحلامها، وكانت تعرف أنها يجب أن تتجنَّب إنجاب أطفال في هذه المرحلة فاحتاطت لذلك ولكنَّها حملت وأنجبت، واشتعلت الخلافات مع زوجها، فانفصمت عرى الزواج، فعادت إلى والدها مهيضة الجناح كسيرة الخاطر فوقف إلى جوارها في هذه المحنة وعندما وُلد الطفل سجَّله في دفتر قيد المواليد باسمه هو، فأصبح ابنَها رسميًّا وأخًا لها، وتركتْه في البلد وعادت إلى القاهرة لاستكمال دراستها حتى حصلت على الدرجة الجامعية، وحصلت على وظيفة لا بأس بها، ولكنها كانت تعاني دائمًا من ضيق ذات اليد؛ ولم أبخل عليها بالنصح والإرشاد حين وثقت بي واعترفت لي بكل شيء، ثم أَتَحْتُ لها من الأعمال الإضافية ما قدَّرني الله عليه، فكانت تزورني في الجامعة بانتظام طيلة سنوات عملي رئيسًا للقسم، حتى جاء يوم قالت لي فيه إنها فوجئت برجل يتقدَّم لطلب يدها ولا تعرف ماذا تفعل، وقالت إنه رجل سبق له الزواج ويعمل في بلد أجنبي، وإنها ذكرت له الحقيقة كاملة فأبدى التفاهم والتعاطف، وكانت قد قدمته لها زميلة من زميلاتها المخلصات، وقالت إنه أكَّد لزميلتها أنه مُعجَب بصراحتها مع ومصرٌّ على الزواج منها. ولم أجد ما أقوله لها سوى أن تستشير والدها وحبَّذا لو اصطحبت هذا الرجل إلى «البلد» لمقابلته. وتوقَّفَتْ أنباؤها عني شهورًا ثم اتصلت بي تليفونيًّا لتقول لي إنها تزوجت وسوف ترحل مع زوجها بعد قضاء أسبوع «العسل» في أحد الفنادق، وتَناوَل السماعة زوجُها فشكرني على مساعدتي إياها، وأرسل لي فاكسًا بعنوانه في ذلك البلد الأجنبي، وفي أواخر أغسطس ١٩٩٨م رحلا معًا، ولم أسمع صوتها بعد ذلك إلا مرة واحدة إذ حادثتني بالتليفون بعد نحو عام لتسأل عن «صحتي»، ثم انقطعت أخبارها منذ ذلك الحين.

لقد حدث هذا في مصر، وحدث ذلك في أمريكا، فكيف نحدِّد — اهتداءً بأنساق القيم هنا أو هناك درجات اللونين الأبيض والأسود؟ إن افتراض أي معايير مُطلَقة للحكم يظلُّ

افتراضًا نظريًّا، وكل الافتراضات النظرية يَنهار أمام تعقيدات الواقع وتشابكاته، ويندر أن يحيط الإنسان علمًا بكل التفاصيل وكل الحقائق، ولذلك فقد تعلَّمت أن أتوقع من الأحداث أن تُفسر بعضها البعض، لأنها تكشف عن دوافع بشرية قد تظل طيَّ الكتمان أو قيد المجهول إلى الأبد، فلا يُماط اللثام عنها إلا يوم الحق (الحاقَّة) وأما الإنسان في هذه الدنيا فهو ينتقل بين كهوف النفوس التي لا تضيء الأحداث إلا جوانب محدودة منها.

٤

قد يكون تعبير كهوف النفوس من قبيل المجاز الشعري؛ إذ يتحدَّث وردزورث عن المغارات الخبيئة في النفس التي لا تنفذ أشعة الشمس إليها أبدًا قائلًا:

> Caverns there were within my mind, which sun
> Could never penetrate
>
> (*The Prelude*, 1805, iii, 246)

أي (كانت في نفسي بعض كهوف لا يصلُ إليها ضوء الشمس على الإطلاق).

ويتحدَّث غيره من الشعراء — مثلما تحدث هو — عن الكهوف البحرية (grottoes) التي كان يحب الغوص إليها في أعماق ذاته، وهي الصورة التي استعارها عالم النفس يونج (Jung) للإشارة إلى أعماق الوعي ثم اللاوعي (الفردي والجماعي)؛ ففي أعماق النفس مغارات نرثها من الطبيعة البشرية، بعضها مشترك بين أبناء البشر، ويتفاوَت بعضها من فرد إلى فرد، ومن يجهد نفسه في الغوص والتعمق؛ يجد المزيد من الألغاز التي قد لا تظهر إلا في الأحلام، سواء كانت من أحلام النوم أو أحلام اليقظة، ومواجهة هذه الألغاز عسيرة مرهقة، والاستبطان محفوف بالمخاطر، وقد تأتي الشاعر لحظة المواجهة دون انتظار فتفاجئه، وقد تأتيه بعد مجالدة طويلة، وقد يسعد بها أو يشقى، لكنه يدرك في الحالين أنه قد كُتب عليه أن يرى ما لا يراه غيره، ومن هنا كان تشبيه الشُّعراء بالأنبياء، فالوحي الذي يُوحى للأنبياء أو لذوي الشفافية الروحية قبس علوي يبعثه الله سبحانه وتعالى حتى يضيء لهم بعض تلك الأغوار، وقد لا يجد الشاعر مثل الصوفي سوى الرموز التي تشير وحسب إلى تلك الألغاز، فيعبر عنها بالرمز وبالاستعارة، وقد يشق فهمه على من يتجاهل تلك اللحظات الكاشفة، وما أكثر ما تشغلنا الدنيا حتى عن نفوسنا، وما

أندر مَن يرى في شعر الشاعر الحق تلك اللحظات ليدرك عبث سعيه اليومي في الكسب والإنفاق كما يقول وردزورث في مطلع إحدى سونيتاته:

ما أكثر ما تشغلنا الدنيا،
اليوم وبالأمس،
في الكسب وفي الإنفاق،
فنبدِّد طاقات النفس!

[The world is too much with us late and soon
Getting and spending, we lay waste our powers]

والواقع أن كلَّ إنسان يمرُّ بهذه اللحظات، ولكنه قد يمر بها أو تمر به دون أن يعرفها أو دون أن تستوقفَه، أو قلَّ دون أن يوليها ما هي جديرة به من اهتمام، فالذي لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع التعبير عنها، أي يعجز عن وضع إحساسه بها في كلمات؛ أي أن يُحيلها إلى أفكار واضحة، أو قد يترجم إحساسه بها إلى ما درج عليه من شعائر أو من عادات أو من أساطير، ولكن المعنى يظلُّ قائمًا، وقد نجده في قول من يقول لك: إنه قد هتف به هاتف، أو إنه قد رأى فيما يرى النائم ما يوحي له بفعل كذا أو الامتناع عن فعل كذا وكذا، وقد تتجاوز هذه الهواتف والرؤى ظلال الأبيض والأسود، بل قد تتجاوز منطق الحواس تجاوزًا تامًّا، لكنها في كل حال دليل على صدق حياة الروح، وكثيرًا ما أجد فيها عندما تمرُّ بي نورًا يذكرني بالنور الأعظم، ويساعدني في مجالدة الدنيا.

ولا أزعم أنني أقدر من غيري على الكشف عما يدور في كهوف النفس، ولكن إحساسي بوجود الكهوف قد ساعدني على امتداد سنوات طويلة في مواجهة من شغلتهم الدنيا حتى أنستهم أنفسهم، وقد يجد رجل الدين في هذا تفسيرًا لقول الله تعالى: إن هؤلاء قد نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ، على الرغم من كل ما يتبدى من حسن صنيعهم، (فَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)، وقد يجد الشاعر فيهم مثالًا لذوي الأرواح الخامدة — على نحو ما وصف شيكسبير في مسرحية **تاجر البندقية** من لا تدف الموسيقى بين جوانحه (على لسان لورنزو يخاطب حبيبته جسيكا):

The man that hath no music in himself
Nor is moved with concord of sweet sounds
Is fit for treasons, stratagems and spoils:

The motions of his spirit are dull as night
And his affections dark as Erebus:
Let no such man be trusted. Mark the music!

The Merchant of Venice, V, i, 83–88

من لا يَحمل بين جوانحه الموسيقى،
أو من لا يتأثَّر بالأصوات المتوافقة العذبة،
لا يربأ أن يرتكب خيانة،
أو يمكر أو يتآمر أو يَسلب أو ينهب!
جيَشان الروح لديه خمد،
شأن الليل الأبهم،
ومشاعرُه ظلماء،
مثل القبو المعتم،
لا تولي أيًّا منهم ثقتك! فلتُصغي للموسيقى!

ولكنَّني كنت أرى في هؤلاء وأضرابهم مثالًا للغافل فأشفق عليه، ولا أقيم له وزنًا، وما الموسيقى — عند شيكسبير وغيره — إلا مثال التناغم والتوافق داخل النفس، وأزيد على ذلك في سياق حديثي عن درجات اللونين الأبيض والأسود، أنها رمز للتناسق بين أولويات حياتنا، أو بين ألوانها المتباينة، أو قُل إنها تمثل نجاح محاولة إيجاد التناغم بين المتنافر من عناصرها؛ وذلك بالعودة إلى حقائق الوجود وتذكُّر أن الإنسان قد خلق ضعيفًا، ومن ثم فلا بد له من مصادر قوة تتمثَّل فيما يمتاز به على سائر الكائنات؛ ألا وهو الوعي — أي حياة الذهن والنفس معًا — وهي حياة حافلة بالمتناقضات التي تتطلب التنسيق والاتساق بجهدٍ واعٍ؛ أي بجهد متعمد، وقد يجد بعضنا أن العمل قد شغله حتى أنساه التناسق، أو — ويا للعجب — أن الراحة قد ألهته حتى أنسته معنى التناغم، وهو في هذا وذاك يجد من المبررات ما يساعده على تقبُّل واقعه والرضا عنه، بل إن أكثرنا لا يتوقف في العمل أو الراحة ليتساءل عما يريده لنفسه أو لمجتمعه أو لوطنه، وما أكثر ما تتبدل درجات اللونين الأبيض والأسود كل يوم حتى يختفي التناغم تمامًا ويسود النشاز!

بالقراءة وإلى البعض الآخر بالاستبطان، وأحيانًا كنت أجلس مع بعض معارفي لأستمع لما يقولون وقد جعلت همي محاولة النفاذ إلى بعض كهوفهم، فمُعظم الكهوف

مشتركة بين البشر، وكنت دائمًا أعرف أنني نجحت (أو أنني بسبيلي إلى النجاح) حين أنجح في دفع أحدهم إلى أن يقصُّ عليَّ طرفًا من حياته الأولى، فعادةً ما يبدأ الحديث بإطلاق العنان للقناع (persona) حتى يتكلَّم وهو يتوقَّع أن ينتهي بعد لحظات، فكأنما يلقي خطابًا حفظه من طول تكراره على نفسه وعلى السامعين، فإذا اطمأنَّ إلى أن القناع قد ثبتَت ملامحه أمامي، وكنتُ لا أزال أستحثه على الحديث بالتهوين من نقاط ضعفه الصغيرة (petty foibles) وتأكيدي له أنها نقاط ضعف بشَرية عامة لا يسلم منها إنسان، وخصوصًا إذا رسخ في يقينِه أنني أتعاطف معه كل التعاطف، ما دامت تلك طبيعة الإنسان التي خلقها الله، والله توَّاب رحيم، أقول إذا اطمأنَّ إلى ذلك بدأ يتخلَّى عن دروعه ويخرج بعض ما يخفي في كهوف نفسه، فإذا ما كان القناع يُصوِّره على أنه أبيض ناصع وقد اكتسى حلكة الليل، وإذا ما كان يصوره على أنه أسود وقد خفَّت درجات سواده كثيرًا حتى كادت تتلاشى، أو قل إنها أصبحت تتراوح بين درجات الأبيض والأسود، في مَواطن الزلل الطفيفة (peccadilloes) وفي الخطايا المتعمَّدة التي يقدم عليها المرء مدفوعًا بنوازع دفينة ومخاوف باطنة يُنكرها قناعه ويمجُّها عقله الواعي، ويستوي في ذلك غير المتعلم الذي لا يستطيع التعبير المحكم عما يدور في نفسه، ناهيك بما يختبئ في كهوف النفس المظلمة، والمتعلِّم الذي يتمتع بالقدرة على التعبير، مهما تكن حدود تلك القدرة، فهي قدرة يحكمها ما اكتسبه من المجتمع من مفردات اللغة ومصطلحها ومن دلالات هذا وذاك.

ولقد درجت على اختزان صور هذا وذاك وتذكر العبارات الدالة التي يلقون بها في غمار الأحاديث العامة أو العابرة، وكنت دائمًا ولا أزال أسعد بالاستماع إلى أحاديث هذا أو ذاك حتى ألمح فيها خيطًا يقودُني إلى ما قد يختفي في «الكهوف»، وأذكر أن الأقدار ساقتني إلى جلسة مطولة مع علي (...) التاجر المزواج الذي أشرت إليه من قبل، وذلك في أواسط الثمانينيات، وكنت في زيارة قصيرة إلى بلدي رشيد، وقد تعرفت عليه فور مقابلته، على كثرة ما كسا وجهه من الغضون وما كسا شعره من الشيب، ورحب بي ترحيبًا لم أكن أتوقعه، وكان يردِّد «حمدًا لله بالسلامة» واكتشفت أنه يقصد العودة من إنجلترا لا الوصول من القاهرة إلى رشيد عندما بدأنا الحديث في مقهى «أبو علفة» على شاطئ النيل (الذي كانوا يُسمُّونه كازينو أبو علفة في أيام طفولتي). وأحسست منذ البداية أنه يُريد أن يُحادثني على انفراد فكان يوحي لكل من يشاركنا المجلس بأن ينصرف، وكنا قد قصدنا إلى المقهى بعد صلاة العشاء، وأضواء الليل تنعكس في صفحة النيل الساجي

كالمرآة، ولاحظت أنه يسعل سعالًا خفيفًا كأنه «سعال عصبي»؛ أي لا يرجع إلى مرض في الصدر، لكنه كان يزداد كلَّما «أخذ نفسًا» من الشيشة، واستمرت أحاديثنا حتى امتدَّت ساعات طويلة، وكان قد بدأها بالشكوى مما فعله أبناء أسرته الذين هاجروا واستقرُّوا في الإسكندرية من تغيير اسم أسرتهم إلى الرشيدي كأنما يتنكَّرون لجذورهم، بل ولانتمائهم الحقيقي لهذه الأسرة العريقة (وكان ذلك ما فعله أسر رشيدية كثيرة في الواقع)، وما عتم أن حوَّل دفة الحديث إلى إنجلترا، فسألني عن الإنجليزيات وأوصافهنَّ، وكان يُطلق صفة «الإنجليزية» على أي امرأة أجنبية، أوروبية كانت أم أمريكية، من اللائي كان يشاهدهن في المسلسلات التي يُذيعها التليفزيون أو في أفلام السينما، وكنت أجيبه إجابات مقتضبة، فكان يستزيدني ويلح عليَّ أن أذكر التفاصيل الدقيقة، ثم انتقل إلى الرجال «الإنجليز»، وسألني عن حقيقة ما يسمع من افتقارهم إلى الفحولة.

ولم أُدرك الدلالة الكاملة لذلك إلا حين تحول الحديث إلى زيجاته الكثيرة، وأبناء مَن صاهر من العائلات «المحترمة»، وقضايا الطلاق والنفقة، وصِفات بعض زوجاته «المحترمات» الكتومات، وبدأ يركز على آخر زوجة طلَّقها ولم تكن «محترمة»؛ إذ أشاعت عنه عيبًا تستنكف المحترمة من الحديث عنه. وسألني إن كان هذا يحدث في بلاد الإنجليز، فقلت له إن المجتمع في الخارج مجتمع مفتوح لكنه يحترم الحرية الشخصية ولا يُفيض في تفاصيل العلاقات الحميمة (intimate) أو يلوك سُمعة أحد، إلا في بعض مناطق الريف، فتنهَّد وتأوَّه آهة كبيرة وقال إنه يحلم بالذهاب إلى إنجلترا، وأن يقضي بقية عمره بين هؤلاء «المحترمين»، وإنه يتساءل كم يكفي الإنسان من المال إذا أراد أن يعيش «مستريحًا» (comfortable) في إنجلترا دون حاجة إلى العمل. وذكرت له بعض الأرقام وأنا أعجب في نفسي لذلك الحلم الغريب، وإن يكن حلمًا مشروعًا، خصوصًا والرجل في خريف العمر.

وذكرت عاطف السيد، الضابط السابق الذي حصل على ليسانس التاريخ بامتياز وعلى الماجستير في تاريخ البحر الأحمر في حروب المنطقة، وكتب أكثر من كتاب في الموضوع، ثم جاءني قبل سنوات لإعداد خطة لدراسة الدكتوراه في الأدب المقارن، وساعدته، وأهداني دمية صغيرة لطائر يشبه الببغاء (من الفخار) وضعته فوق التليفزيون ثم انكسر، وكان يراسلني من جامعة إكستر بإنجلترا حيث كانت زوجتي تدرس للدكتوراه، وقد باع أرضًا زراعية كان يمتلكها أو — كما قال لي — «صفَّى أعماله في مصر» في سبيل الدكتوراه، ولا أعرف إن كان قد حصل على الدرجة أم لا، ولكن المقام قد استقر به في إكستر، كما علمت من الدكتور زياد الشكعة الذي كان يدرس في الجامعة نفسها، وبلغني أنه أصبح يُعين

الدارسين المصريين في كتابة رسائلهم الجامعية، وقد يكون ذلك الآن مصدر رزقه، وربما كانت لديه أرصدة حوَّلها من مصر إلى إنجلترا.

لم يكن الحلم محالًا إذن، وإن كان غريبًا بسبب دوافعه الغامضة، أو التي كانت غامضة آنذاك، فحينما توغَّل الليل وأقفر المقهى من رواده، وازداد إقبال «علي» على الشيشة حتى بدا عليه ما يُشبه الخدر وانتظمت نبرات صوته حتى أصبحت مثل النغمات الرتيبة المُنخفِضة، وتراخى جفناه كمن يغالب النوم، بدأت تخرج من شفتَيه عبارات كشفت عن بعض «الكهوف» التي قرأتُ عنها فيما قرأتُ من أعمال أدبية، والتي لم أكن أتوقَّع أن يُطلَّ منها أي شيء في جلسة واحدة، أو أنفذ إلى أحدها بهذه السرعة، فحدست «العيب» الذي قال إنه أشيع عنه، وأسرعتُ برواية قصة حقيقية وقعت لأحد أصدقائي في إنجلترا حتى أُهوِّن عليه الأمر، وهي قصَّةٌ مطابقةٌ لما كان يَكمُن في أحد تلك «الكهوف» وما حدست أنه يُمثل لُبَّ المشكلة، وقلت له إن مثل هذا «السر» يظلُّ بين المرء وزوجته إلى الأبد، وكنت أتصوَّره شبيهًا بما شاع عن امرئ القيس وما نقضه العقاد في كتابة اللغة الشاعرة، وتمنَّيت من أعماقي أن تجعله تلك القصة يصرح بما أخفى، ولكنه استمر في حديثه بالنبرات الرتيبة التي كست كلماته ببطء مَلَلْتُه، فحثثتُه على النهوض ونهضنا.

وشغلتني القصة — بطبيعة الحال — في اليوم التالي وجعلت أسأل كل مَن أعرفه من أصدقاء الصبا، ولكنهم كانوا لا يعرفون عنه إلا القناع، فهو المزواج الناجح، وكان بعضهم يتحدَّث عن ذلك بإعجاب؛ إذ كان معظمهم قد نزح إلى الإسكندرية فتلقَّى التعليم الجامعي والْتحَقَ بعمل أو وظيفة ما وتزوج من غير بنات البلدة ولم يَعُد هذا الموضوع يمثل له إلا ذكريات المراهقة واليفوع، وكان بعضهم يحنُّ شوقًا إلى حياة الفراغ وضعف الإحساس بالزمن الذي يبدو كأنما يمتد بلا نهاية في الريف، وربما كان البعض يحنُّ شوقًا إلى أسلوب الحياة المطمئنة، وهو الأسلوب الذي يُتيح الزواج وتعدُّد الزيجات أو الزوجات بلا مشاكل ظاهرة، وهو ما بدا أن عليًّا قد حقَّقه، وكدتُ أيئس من معرفة ما رأيت أنه أشباح تسكن «كهف» صاحبنا، حينما ساقت المصافحة إليَّ امرأة من «ألاضيشنا»؛ أي من المتردِّدات على منزل الأسرة اللائي عرفناهن صغارًا واعتدناهن كبارًا، فسألتها بلهجة لا تنم عن اكتراث عن صاحبنا، وكانت من «ألاضيش» أسرته كذلك، فإذا بها تُفصِح وتُسهِب فيما اعتَبَرَتْهُ عيبًا يعيب الرجال، وذلك بألفاظ صريحة إلى حد الصراحة المُوجعة، وكنا نقف في بهو المنزل، ويبدو أن والدتي التي كانت في غرفة بعيدة قد سمعت طرفًا مما كان يقال فصاحت بالمرأة تنهرها، فتوقفَتْ عن الحديث، ولكنها كانت قد قالت ما يكفي.

وعندما خلوت إلى نفسي وضممت أطراف القصة بعضها إلى بعض، وجدت أن أحد الأشباح التي كنتُ أبحث عنها هو سخرية أمه منه منذ الطفولة بسبب ما ضنَّت الطبيعة عليه بما حبَتْ به إخوته الذكور من دلائل الفحولة الظاهرة، وأن والدته كانت تُفصح عن ذلك دون مواراة ودون مراعاة لما قد يترسب في نفسه من مرارة، ولكن الأم الجاهلة لم تكن ترى في ذلك غضاضة، بل مصدر تفكُّه وتندُّر، بل إن أخواته كنَّ يتفاخَرْن بما حَبَت الطبيعة به أزواجهنَّ، ولا شك عندي في أن ذلك ترك آثاره العميقة في نفس الصبي، فلم يكن يُشارك الصبيان تفاخُرهم بهبات الطبيعة، بل كان يكتم في نفسه الغيظ ويحلم بيوم الزواج الذي يغادر فيه منزل أمه وتُصبح له زوجة تؤكِّد له أنه لا يختلف عن سواه، ووجدتُ شبحًا آخر يتمثَّل في رغبته الدفينة في تعذيب امرأته، إما بالعنف أو بالحرمان أو بالطلاق، كأنما لينتقم من أمه في كلِّ أنثى، ورأيت أن أمامي «حالة مرضية» — كما يقول علماء النفس — ولكنها حالة يصعب فيها التوغُّل في أعماق ما أسميته بالكهوف، وقد أكون مخطئًا في هذا «التشخيص»، وقد تكون هناك أسباب أخرى لولوعِه بالزواج والطلاق وانشغاله المبالغ فيه بذلك، ولكنني أذكر عندما قابلته قبل رحيلي بيوم أنه كان لا يزال يتكلم عن حلم السفر إلى إنجلترا، ويُوصيني بأن «أسأل وأستفسر»، وكنت أعجب لأنه لا يريد الرحيل إلى الإسكندرية مثلًا أو القاهرة، بل أن يترك مصر كلها وأهل مصر، كأنما ليهرب من تراث كامل يرميه في ذلك العذاب.

وكنت كلما زرت رشيد أو الإسكندرية وقابلت أحد معارفنا سألته عن «علي»، ولكن أخباره انقطعت، وإن كانت قصته الفريدة قد علمتني دروسًا أفيد منه في محاولة النفاذ إلى كهوف أخرى، ما أكثرها فيما نشاهد وما شاهدته بعد ذلك؛ إذ تكررت بعض ملامح هذه القصة، وشهدت بعض أطرافها من ناحية الرجل وناحية المرأة معًا.

٥

وأصل الآن إلى ذروة الحديث عن اللونين الأبيض والأسود ودرجاتهما — موضوع هذا الفصل، وأقصد بالذروة المفاهيم التي تُعتبر مسئولة إلى حد كبير عن أحكامنا المطلقة، ونزوعنا إلى التبسيط المخلِّ بل والمُضلِّل وعلى رأسها مفهوم الحرام والحلال، وهو المفهوم الذي نشأ في غمار التيار الذي اجتاح العالم في الربع الأخير من القرن العشرين، والذي يشار إليه عادةً باسم الأصولية الدينية، على ما في هذه التسمية من عدم الدقة، وهو ما ناقَشَتْهُ كارين آرمسترونج في كتابها الذي ترجمناه — الدكتورة فاطمة نصر وأنا —

في عام ٢٠٠٠م، بعنوان «**معارك في سبيل الإله: الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام**»، ولذلك فلن أعرض لما جاء في هذا الكتاب من نشأة التيار وأسبابه وظواهِره، ولكنَّني سأقف عند ما يخصنا نحن في مصر، وما لمسته بنفسي من آثاره على التفكير الفردي والجماهيري.

فأما أول تأثير فهو الخلط بين العبادات والمعاملات؛ فالعبادات التي تُسمى التكاليف في الإسلام شعائر محدَّدة منصوص عليها في القرآن وموضَّحة في السُّنَّة، وهناك من الكتب ما يُفيض فيها ويُفرِّق بين الأصول — أي أصول العقيدة والتكاليف المُرتبطة بها — وبين الفروع أي أساليب الوفاء بهذه التكاليف؛ فالأصول لا خلاف عليها، وأما الفروع فهي تخضع للاجتهاد، وقد اتَّفق المسلمون على أن المذاهب الأربعة (الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي) قد أوفت هذه الفروع حقها إلى جانب بعض ما يتَّصل بالفروع من أساليب المعاملات، والأخيرة محدودة إلى أقصى حد، وأما المعاملات فعلى رأسها «الحدود» أي العقوبات المنصوص عليها في القرآن، أو المستوحاة من نصوص القرآن، وهي العقوبات المفروضة على مَن ينتهكُ شرعة الله في **المجتمع**، وأنا أؤكد التعبير الأخير لأن المعاملات — تعريفًا — تفترض علاقة ما بين الفرد والغير، سواء أكان ذلك الغير فردًا أو جماعةً، وبعض هذه الحدود يردُ في القرآن مطلقًا وتُفسِّره السُّنَّة، وبعضها يخضع لتفسير أئمة المسلمين الأوائل فهم قريبو العهد بالسنَّة؛ ومن ثم فهم أقرب الناس إلى تفهُّم المقاصد الحقيقية للتشريع وتطويع التطبيق بما يلائم تطور المجتمع وتغيره، مثل الخلفاء الراشدين الأربعة (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) ومثل بعض المتأخِّرين نسبيًّا مثل عمر بن عبد العزيز. ولا نكاد نرى خلافًا في معاني هذه الحدود وتطبيقاتها في تفسيرات علماء الإسلام المحدثين؛ إذ تولوا وضع ما يُمكن تسميته «باللوائح التنفيذية» للشريعة، فنشأت علوم قائمة برأسها في كلِّ مجال، ولم يَعُد الفقهاء يختلفون حول المعاني والمقاصد وإن اختلفوا بعض الشيء في ظروف التطبيق وشرائطه وحدوده.

ولما كان تاريخ الناس على اختلافهم، تاريخ الأكثرية التي لا تقرأ ولا تعلم والأقلية التي تقرأ وتعلم وتفكر، فقد احتاجوا دائمًا إلى العلماء حتى يُصدروا لهم الأحكام أو الفتاوى في كل ما يختلفون عليه في كل مكان في العالم؛ فالفتوى حكم (ruling) يصدره العالم الذي يصبح في هذه الحالة قاضيًا يقضي بما يطمئن إليه ضميره من أحكام تُناسب الظروف والملابسات والشرائط التي أشرت إليها، وقد تُضاف أحكامهم إلى ما أسميتُه «اللوائح التنفيذية»، وقد يُصبح أحد الأحكام أو الفتاوى «سابقة» يُقاس عليها،

وهكذا أصبحت قواعد المعاملات (وتطبيق هذه القواعد) نظامًا قضائيًّا يستند إلى أصول نظرية وتفسيرات عملية مُستمَدة من الممارسة، فنشأ في مصر ما كان يُسمى بالقضاء الشرعي الذي ساد في عصور طويلة حتى إنشاء النظام القضائي الحديث فأصبحت المحاكم الشرعية مقصورة على المسائل الشخصية المحضة مثل الزواج والطلاق والوصاية، ثم أُلغيت في منتصف الخمسينيات بعد قضية الشيخ الفيل والشيخ سيف اللذَين اتُّهما بالفسق والفجور وأودعا السجن.

كل هذا معروف، ولكَم تناوله كبار المفكرين المعاصرين في كتاباتهم فأفاضوا فيه، سواء كانوا من المتخصصين في الفقه الإسلامي أو من غيرهم ممَّن قرءوا واجتهدوا فأصبحوا أهلًا للتصدي للموضوع، ولكنني أورده لتبيان الخلط في تفكير الجيل الجديد بين العبادات والمعاملات وما أدَّى إليه ذلك من الإيمان بوجود لونين خالصين لا ثالث لهما ولا درجات، هما الأبيض والأسود؛ إذ ساد الاعتقاد بأن من يؤدي الفرائض أو التكاليف الدينية يكتسي باللون الأبيض الناصع، ومَن لا يؤدِّيها — على صعوبة التحقُّق من ذلك — يَكتسي باللون الأسود الفاحم، وأن التميُّز في أداء الفرائض والنوافِل يسمُو بالمسلم على أقرانه فيصبح قادرًا على إصدار الأحكام في المعاملات، وأهلًا للإفتاء في شئون المجتمع، حتى دون درسٍ، استنادًا إلى ما قيل من أن الإنسان له أن يسأل قلبه إذا استشكل عليه الأمرُ، فقلب المؤمن لا يُخطئ، وهكذا أصبح الإيمان وحده منبع الأحكام، بل وأصبحت الألفاظ — حتى ألفاظ النصوص المقدسة — تعاويذ يُهتدى بوقعها وترديدها لا بمعناها، ووجدت من يسهر الليل في المسجد — كما حدث في ميت عقبة — حتى الصباح ليلة الجمعة أي مساء الخميس حتى صباح الجمعة في ترديد الأوراد والتسابيح تعميقًا للإيمان واستلهامًا للعلم اللَّدُنِّي، وفي ذلك يستخدمون مكبرات الصوت التي تُذهب النوم عن الجفون، فإذا اشتكى أحد، مثلما اشتكت الأستاذة «علية» (وكانت تلميذة لزوجتي في المعهد العالي للنقد الفني) وزوجها الأستاذ «ربيع»، تسابق الخطباء في الهجوم عليهما بأشد الألفاظ قسوة ورموهما بالكفر بأعلى صوت في الميكروفونات، حتى اضطرَّت الأسرة إلى الرحيل من القرية، فمَن يُعارض المؤمن كافر والتضاد بين اللونين الأبيض والأسود أوضح من أن يحتاج إلى دليل.

والذي شهدتْه في الثمانينيات هو أن يُعين أحد الأتقياء الورعين الغيورين على الدين نفسه حكمًا يصدر الفتاوي، ثم يَجتمع حوله نفر من المفتونين بمسعاه وقوة شخصيته وجاذبيتها والمدفوعين بغيرة مُماثلة على الدين، فينشأ ما درجنا على تسميتِه بالجماعة

الدينية، وهي تخوِّل لنفسها، بقوة إيمان أعضائها، مهمَّة إصدار الفتاوي، وقد تستقل برأيها حتى تُناوئ الفقهاء المتخصِّصين وتتَّهمهم بمُمالأة السلطة المدنية (أي الزمنية) بل قد تُناوئ جماعات أخرى إذا اختلفت معها، فغير الأبيض أسود، ولا توجد بينهما ظلال، وقد تشتعل حدة المزايدات وتتبارى الجماعات في إصدار الفتاوى والأحكام، فإذا وجدت إحداها من أهل الخير، في أيِّ مكان كانوا، مَن يُنفق على أنشطتها طبعت الكتب والمنشورات، وتصوَّر زعماؤها أنهم قادة مصلحون كُلِّفوا تكليفًا سماويًّا بهداية الأكثرية الضالة، وقد يتصور أحدهم أنه مبعوث العناية الإلهية، فيرتدي مسوح الرهبان ويتشبه بالأنبياء، ويكفيه في ذلك كله أن يظهر بمظهر التقيِّ الوَرِع، وقد يكون في الواقع تقيًّا ورعًا حقًّا، دون أن يكون مؤهلًا للحكم فيما حكَم فيه الفقهاء القدماء، فيُصدر «اللوائح التنفيذية» للأحكام الدينية العامة، ويأخذ على كاهله مهمَّة تطبيق أحكامه الجديدة، وهي أحكام قد تفتقر إلى الدقة أو إلى الصواب أحيانًا لأنه يستقيها كما قلت «من قلبه» أي من «وحي ضميره» أي من مصدر ذاتي، فنجده يخطئ في القياس، ويجهل قواعد الاستدلال، وقد يأخذ بالظن، مستعينًا بالهاتف الداخلي الذي قد يكون صادرًا من أحد كهوف النفس التي تحدثت عنها في القسم السابق، ولا يكفي التقى والورع لتولي مناصب القضاء — مدنيًّا كان أم شرعيًّا.

ولو كانت هذه الجماعات قد شغلت نفسها بمسائل الأصول (مثل العقيدة) لقلنا إنها فرق إسلامية جديدة تنسج على منوال الفرق التي تحدث عنها الشهرستاني والبغدادي وابن حزم، وكلنا يعرف ما أدى إليه تناحرها من تفتت في جسد الأمة الإسلامية وانهيار سلطانها الذي ساد يومًا ما، ولكنها جماعات شغل أفرادها أنفسهم بإصدار الأحكام وتنفيذها دون أن يَختلفُوا مع الناس في أصول العقيدة، والعيب الأول في هذه الأحكام هو اقتصارها — كما قلت — على اللونين الأسود الفاحم والأبيض الناصع، فكلُّ ما يخالف ما ذهبوا إليه من أحكام أسود فاحم السواد يُرمى صاحبه بالخروج عن الدين ومِن ثَمَّ بالكُفْرِ، مهما يكن حجم الخلاف أو تكن طبيعة المختلف عليه، وتسربت أحكام هؤلاء الأفراد، بعد أن شتَّتت الدولة شمل الجماعات، إلى المجتمع، فأصبح التفكير بمنطق الأبيض والأسود شائعًا ومقبولًا، ولم يَعُد التفريق بين درجات اللونين واردًا في فكر الناس، ولو كان ذلك مقصورًا على الغالبية التي لا تقرأ ولا تكتب لهان الأمر، ولكنه بدأ يؤثر في فكر الحاصلين على الشهادات الجامعية سواء اعتبرناهم من المثقفين أم التكنوقراطيين أي «أصحاب المهنة» الذي يتحكَّمون (أو يحكمون) في المجتمع؛ أي من بيدهم مصائر الأمور،

وكان منهم زعيم جماعة ميت عقبة الحاصل على بكالوريوس علوم، وأما الشبان فقد شغلوا أنفسهم بالمرأة، وجعلوا ذلك المجال الرئيسي لإصدار فتاواهم وأحكامهم، وكثيرًا ما كنتُ أَرِقُّ لحالهم وهم ينظرون إلى النساء نظرة جوع وحسرة، خصوصًا طلاب الجامعات الذين يَنتمُون إلى الطبقات الوسطى، فهم يرون الفقراء قادرين على الزواج وإن ازدادوا به فقرًا، والأغنياء وقد تزوجوا وسعدوا (فيما يبدو على الأقل) وهم لا يستطيعُون تحقيق حلم الثورة المصرية القديم في التخرُّج في الجامعة والالتحاق بعمل يعود بدخل يكفي لبناء أسرة جديدة، فعيونهم تتنازعها نوازع الرغبة والحرمان، فكأنما حُرِّمَ الزواج عليهم، وإذا كان قد أصبح مُحرَّمًا فِعْلِيًّا فلم لا يحرمُون المرأة نفسها نظريًّا، مع إيمانهم بأن الله قد شرع الزواج بل وحضَّ المؤمنين عليه؟

وتدريجيًّا أصبحت المرأة المجال الرئيسي لما يُسمى بالفكر الإسلامي الذي يتولاه الرجال بطبيعة الحال، ولما كانت المرأة قد خرجت إلى الحياة العامة رغم أنوفهم، فقد اضطرُّوا إلى تعديل مفهومهم على ضوء الواقع للَّونين الأبيض والأسود والإقرار بوجود درجات لهما، فأما اللون الأبيض الناصع فهو أن تحتجب المرأة عن العالم فهو عالم رجال، وحبذا لو لزمت بيتها حتى يأتي الفرج، وكان ذلك ولا يزال المثل الأعلى في نظر مَن يريدون اللون الأبيض الكامل، وكان لديهم من النماذج في بعض البلدان الشقيقة ما يدعم هذا المثل، وأما أُولى درجات اللون الأسود فتتمثل في الاختلاط الذي هو منشأ البلاء فهو يَسمح بزنا العين ويُثير شهوات أعتى وأشد ضراوة، وثاني الدرجات هو التخاطُب بين الجنسين، وثالثها هو تعرية بعض أعضاء الجسم، خصوصًا شعر الرأس لأنه — مهما يكن حاله — مكمَن الفتنة ومصدرها المؤكد في نظرهم، وكذلك الأطراف، فهي تجعل الرجل على وعي بأنوثة المرأة بسبب اختلافها عن أطرافه، كما قال لي الدكتور محمد (...)، وهو زميل قديم في مدرسة رشيد الثانوية قابلتُه ذات يوم في مبنى المجمع الحكومي بميدان التحرير أثناء تجديد جواز سفري عشية إعارتي إلى المملكة العربية السعودية في أكتوبر ١٩٨٢م، فخرجنا إلى الشرفة وجعل يحكي لي عن «المهازل» التي صادَفَها في كلية طب الإسكندرية من محادثات بين الطلاب والطالبات، بل وصداقات قد تنتهي بالحب والزواج، وينعي الحشمة الضائعة، ويبكي اليوم الذي كانت المرأة فيه «بيضة خدر لا يرام خباؤها»، وإن لم يكمل بيت الشعر المشهور، وقال لي إنه سمع فتوى صادقة مفادُها أن وجود المرأة مع الرجل باعث لأفكار الشر (في نفس الرجل طبعًا) فما بالك وهي تُجاورك وتجالسك وتحادثك؟ وكان الدكتور محمد على يقين من أنه يُحادث ابن رشيد الوفي وابن

الكُتَّاب الذي قضى سنوات يحفظ القرآن، وأنه سوف يتعاطف معه التعاطف كله، ولذلك أمسكتُ لساني وكنت أوشك أن أقول له إن النساء من الفلاحات والعاملات والتاجِرات يَختلطن بالرجال في رشيد وفي إدكو (بلده) وأن المرأة المسلمة طالما شاركت المسلم حياته في الزمن الغابر، دون مساس بحيائهن، وأيقنت آنذاك أن حديثنا لا بد أن يتوقف.

وما لبث اهتمام الشبان بقضية ستر المرأة أن ولَّد اهتمامًا موازيًا لدى الشابات، فاهتمَّت الأسرة المصرية بالموضوع، ورأت أجهزة الإعلام أن قضية ستر المرأة أي حجبها عن العيون قد أصبحت قضية قومية، وخافت أن تؤدِّي إلى قلق واضطراب في المجتمع، فأقامت مناقشة بين مذهبَين؛ الأول يقضي بستر المرأة كلها، فكلها عورة، وكلها محرم، والثاني يقضي بالسماح لها بالكشف عن الوجه واليدين والقدمين، وتبارى الكُتَّاب في الدفاع عن وجهتَي النظر، ثم حُسمت النتيجة لصالح الحل الأخير، وأصبح الحلُّ الأول يُسمى النقاب أو الخمار (وصاحبته منقبة أو مخمَّرة) والثاني يُسمى الحجاب (وصاحبته محجَّبة) وقد رضي الشبَّان ورضيت الشابات بالحل الأخير؛ فهو مُريح من جميع الزوايا، بل هو عبقري في نظري بمعنى أنه لا يتفتَّق عنه إلا ذهنٌ مصريٌّ قادر على التلاعب بالألفاظ والمعاني؛ إذ عمد ببراعة مصرية إلى تعديل مفهوم الاحتجاب أي الاختفاء والاستتار عن العيون، بحيث أصبح يعني تغطية الشعر فحسب، وهو يسمح للمرأة بجميع الحريات التي يتمتع بها الرجل بشرط ارتداء الطرحة أي غطاء الرأس، وهو ما يرتديه الرجال أيضًا في بلدان شقيقة، بعد أن أُطلِقَ عليه اسم الحجاب! وبدا أن الأزمة انفرجت، وسرعان ما رأينا محلات أزياء حديثة تبيع ما يَصلُح لتغطية الشعر من أغطية منوعة، وتبيع الفساتين الطويلة الجذابة للقادرات، والطرحة «السادة» (وهي كلمة فارسية تحوَّلت إلى ساذج العربية) أي العاطلة من «الزركشة»، للفقيرات (والزركشة فارسية أيضًا تعني الموشَّى بالذهب)، وكان من روافد تيار الحرام والحلال الجديد أن ظهر نوع من الكتابة أستطيع مُطمئنًّا أن أطلق عليه صفة البورنوغرافيا (أي الأدب المكشوف أو الفن المكشوف) المتستِّر بالدين، وهو ما سأُخصِّص له السطور التالية.

كانت البداية في أواخر السبعينيات حين أصدر أحد المحامين، واسمه «عبد اللطيف» كتابًا عن أحكام الزواج في الإسلام، وكان يُعلن عنه على الجدران بحروف كبيرة، الأمر الذي أثارني فحاولت شراءه لكنه كان قد نفد، فاستعرت نسخة من أحد أصدقائي بعد أن شاهدتُها معه مصادفةً أثناء زيارته لي في الجامعة للتوصية على ابنته التي التحقت بقسم اللغة الإنجليزية، وقرأتُ الكتاب في جلسة واحدة، وأعدتُه له بعد أن شعرت بتقديره البالغ

له، لكنَّني استوعبته؛ إذ وجدته يفوق في «صراحته» ما عرفناه في فترة المراهَقة من كتب مكشوفة؛ فهو في الظاهر يفسر آية كريمة مثل ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٣) ويفيض في تفسير «أَنَّى»، معارضًا من أباح التوسُّع في التفسير استنادًا إلى الآية السابقة عليها ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾ (٢٢٢) ثم ينتقل إلى بقية الآية وهي ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ (٢٢٣) فيُخصِّص فصلًا كاملًا للحديث عن ماهية «التقديم» المقصود؛ فالجمهور على أن ذلك بالقُبلة أو ما في حكمها، وبعض «العلماء» يذهبون مذاهب أخرى توسَّع المؤلف في شرحها وتبيانها، وهكذا وجدت أن الكتاب الذي يحمل عنوان لفظ «الأحكام» قد انصبَّ على الحياة الجنسية بين الزوجين، وكانت طبعاته التالية والمتوالية تنفد فور صدورها، وكان المؤلف يُبرِّر صراحته بأن ذلك كتاب في الدين، ولا حياء في الدين، كما أنه كتاب في العلم، ولا حياء في العلم أيضًا.

وتنبَّهت السلطات (في وقت متأخِّر) للغاية من الكتاب، وهو الكسب المادي لصاحبه، ولتأثيره غير المباشِر في نفوس الشباب فصادرته، فأصبح سلعة سرية تُباع بثمن باهظ، وكانت حجة المنع أو الحظر هي عدم موافقة الأزهر عليه، ولذلك حصل محمد جلال كشك على تصريح من الأزهر قبل نشر كتابه **تأمُّلات مسلم في المسألة الجنسية** وهو الذي أعاره لي صديقي (وتلميذي السابق) الدكتور محمد عبد العاطي، كما سلك الآخرون مسالك مشابهة، ولم يتوقَّف تيار الكتب التي تفصح عن تحوُّل الانشغال بالدين إلى المرأة، مهما يكن من مواقف مؤلفيها على اختلافها، مثل كتاب **زواج المتعة** لمؤلفه الدكتور فرج فودة، الذي اغتاله المتطرفون، ومثل كتاب **هداية المريد في شراء الجواري وتقليب العبيد** لمؤلفه محمد مختار الذي يقول في التصدير إنه يُريد وجه الله فيما يكتب، ويضع عنوانًا آخر لكتابه هو الأوضاع الاجتماعية للرقيق في مصر ٦٤٢–١٩٢٤م، ويطول بي الحديث إن أنا عددت ما اطلعت عليه من كتب على امتداد ربع القرن الأخير، ولكنني أورد هذه الكتب التي صدرت من نحو عام ١٩٧٧م حتى عام ١٩٩٧م فقد للتدليل على الوجهة المحدَّدة التي جنح إليها ما يُسمى بالتيار الديني، وما رسَّخه هذا التيار من منطق الأبيض والأسود في الأذهان، حتى أصبحت تغطية شعر الرأس للفتاة تُمثِّل نصف الإيمان أو الإسلام، وكانت إحدى تلميذاتي السابقات من أوائل من ارتدَين الطرحة في قسمنا، ثم تخلَّت عنها ثم عادت ترتديها وعندما سألتها عن ذلك قالت: «نصف العمى ولا العمى كله»، أي إنَّ الطرحة توفر لها ٥٠٪ من أركان الإسلام (ولا بأس لو نجحت هنا بتقدير مقبول).

ولما كان العيب في المنطق المذكور (الذي شغلني ويشغلني) قد امتد إلى منهج تفكير الشباب من الجنسين في سائر مناحي الحياة فلقد دأبت على مناقشة من يستطيعون النقاش منهم في ذلك المنطق، على ندرتهم؛ فالغالبية يتكلَّمون ولا يَستمعُون، وإذا استمعوا فهم لا يُنصتون، وإذا أنصتوا فهم لا يستوعبون، وأما مَن يفعلون فهم يفصحون عن حيرة وتخبط، فكثرة الدلالات التي تتزاحَم في عالم «ما بعد الحداثة» قد أحدثت من الخلط والبلبلة ما يَستعصِي على التصنيف باللونين الأبيض والأسود، بل وعلى درجات كثيرة من درجاتهما، الأمر الذي دفع الغالبية إلى نشدان الاطمئنان فيما يقوله أصحاب «الإفتاء»، والارتكان إلى ما يبعث على الراحة فيه من يقين، ومن العبث طرح الأسئلة أو التفكير المستقل فيما يسمعه المرء، فذلك يقتضي القراءة والبحث، وليس من تقاليد المجتمع الجديد تشجيع أيهما.

وأختتم هذا الفصل بالإشارة إلى ظاهرة تفشت أو هي تتفشى كل يوم، حتى جعلت أبناء الجيل الذي أنتمي إليه يشكُّون فيما أسماه طه حسين مستقبل الثقافة في مصر؛ ألا وهي ترديد ما يقال، إذا صادف هوى في نفس السامع، مسبوقًا بكلمة «سمعتُ»، أو «يُقال»، وعلاقة ذلك بموضوع هذا الفصل في حاجة إلى إيضاح؛ فالباحث عن اليقين يرسم في خياله صورة مثالية لحياته، تغيب منها جميع ظلال اللون الأسود وتنطق بالبياض الناصع، ولذلك فهو يَفتح أذنَيه لكل ما يقال ويَنتقي ما يبدو أنه يُؤكد له تلك الصورة، وأقول «ما يبدو له» عامدًا، فكهوف نفسه عامرة بالأشباح المُتصارِعة، وهو يبغي إشاعة السلم بينها فيستعين بما تُصوِّره ذاته في صورة الركن الركين والسند المَتين؛ أي إنه يَرجع في تحديد اللونين الأبيض والأسود إلى معايير ذاتية، وقد تتغيَّر هذه المعايير بتغير ظروفه وأحواله، فتتغير ظلال اللونين ودرجاتهما، وقد يعي ذلك أو لا يَعيه، ولكنه دائمًا ما يبحث عمَّا يؤكد له صحة موقفه، ولذلك كان أنجح المتحدِّثين في أجهزة الإعلام من المؤمنين باليقين، الذين يُؤكدون الانفصال التام بين اللونين الأبيض والأسود، والذين يتحاشون التفاصيل التي قد تُثير الشك في «القضية» موضوع الحكم، أو تدعو إلى إعادة النظر في المعاير الذاتية التي يستند إليها المستمع، وهل هناك يقين أعمق من يقين الإيمان الديني؟ ولذلك كان أنجح المتحدِّثين في كل موقع من مواقع الحياة العامة من الذين يستندون إلى هذا الإيمان **لدى المستمع**، خصوصًا إذا كان هذا المستمع ينشد ذلك ويسعى إليه، فالذين يَعمُرون مساجد الله مؤمنون بالغيب، وهم لا يتوقَّعون من خطيب المسجد أن يهديهم إلى الإيمان بالله، لكنَّهم يتوقَّعون أن يحكي لهم ما يؤكد صدق إيمانهم، فإذا خرجوا من

المسجد وانتشروا في الأرض ظنُّوا أن إيمانهم بالله يكفي دون غيره، أو يؤهلهم للحكم بالأبيض والأسود على ما يعرض لهم من شئون الحياة، وهم يستمدُّون مما سمعوه في المسجد قوةً على ذلك، بل ومما قد يسمعونه خارج المسجد مما يتفق مع نظراتهم في أحوال الدنيا وشئون العيش، فيزيدون في خيالهم من بياض الأبيض حتى يُصبح ملائكيًّا، ومن سواد الأسود حتى يصبح كالحًا (حالكًا) كالليل البهيم، ثم يؤكدون لأنفسهم عناصر الصورة المثالية التي يرسمها خيالهم لأنفسهم، دون وعي بكهوف النفس وما فيها، وفي ذلك مكمَن الخطر.

الفصل الثالث

١

قلت في التمهيد إن الدائرة صورة الخلود؛ فالعلماء يصفونها بأنها الشكل الكامل؛ إذ لا بداية لها ولا نهاية، وهي من الأنماط الفطرية (archetypes) وهو المصطلح الذي أتى به يونج (Jung) ويعني — كما يقول المعجم المتخصص:

> any of several **innate** ideas or patterns in the psyche expressed in dreams, art etc. As certain basic symbols or images (my emphasis)
>
> أي:
>
> إحدى الأفكار أو الأنساق **الفطرية** المتعدِّدة في نفس الإنسان، والتي يُعبر عنها في الأحلام أو في الفن وما إلى هذا السبيل، باعتبارها رموزًا أو صورًا أساسية.

والواضح أنني ترجمت المعنى الأساسي للمُصطَلح وضحيت بمعانٍ أخرى ثانوية أهمها صفة القِدم، واحتلال هذه الأنماط مركزًا رئيسيًّا بين شتى الرموز والصور التي تزخر بها نفس الإنسان، فأما صفة القدم فيُوحي بها المقطع الأول (arche) الذي قد يكون مُشتقًّا من الصفة اليونانية archaios ومعناه قديم والاسم منها arche ويعني البداية، والاسم archos ويعني الأول أو الحاكم، والفعل archein بمعنى يبدأ أو يحكم، وأشهر نماذج الكلمات التي تدخل عليها هذه البادئة في الإنجليزية كلمة (archaeology) أي علم الآثار القديمة وكلمة archaic بمعنى قديم (أو مهجور — في اللغة مثلًا)، وتتصل بهذا المعنى دلالة الرئاسة؛ فالحاكم رئيس، وهو الأول في المرتبة بين الناس، ولهذا دخلت

اللغة الإنجليزية كلمات مثل الملاك الأكبر archangel ورئيس الأساقفة (archbishop) وغيرها، كما استخدم أهل الإنجليزية البادئة المذكورة في تكوين كلمات أخرى على غرارها للإشارة إلى معنى الرئاسة، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل آخرين يُترجمون المصطلح بتعبير النماذج العليا أو النماذج القديمة، ولكن الواضح أن هذَين الخيارين قد يَنطبقان على ما ليس بفطري، وقد يكون النموذج القديم للطائرة مثلًا، مجرَّد نموذج مبدئي أو بدائي (prototype or primitive model) وأنا أُفضِّل ترجمة المعنى على أي حال، وألتزم هنا بالتفريق بين النمط (type) والنسق (pattern) والنموذج (model) ومِن ثم أَشَعْتُ في الستينيات مصطلح «الأنماط الفطرية»، وإن لم يثبت المصطلح حتى الآن، وأرجو أن تتَّضح في غضون مناقشتي للدائرة أسباب استمساكي به فيما قرأته، وفيما خبرته من الأحداث.

يقول علماء النفس: إنَّ الإنسان يولد ولديه إدراك فطري لصورة الدائرة، أي إنه ليس في حاجة إلى أن يتعلم إدراك هذا الشكل، وقد ذهب الفلاسفة في تفسير ذلك مذاهب كثيرة، بل إن علماء الفيزياء أدلوا بدولهم في هذا الدلاء، فنسبوا الإدراك الفطري (أي غير المكتسب) للشكل إلى خصائص مغناطيسية أو قل إنها كهرومغناطيسية ما دُمنا نُترجم (أو ما دام بعضنا قد ترجم) الإلكترون بالكهرب في كيان الإنسان بحيث تربطُه بصور الحركة الدائرية للأجرام السماوية، وأهمها حركة الأرض الكروية حيث يتحكَّم دورانه وجاذبيتها في أشكال الحياة على سطحها، وانتهى الباحثون في القرن العشرين إلى أنَّ نظرية «الطاقة الكروية» أو الدائرية قادرة على تفسير كل شيء بمعنى أن أصل كل شيء من أشكال الوجود هو الشكل الدائري، سواء كانت دائرة كاملة أم ناقصة، وجميع أنواع الحركة مساراتها مقوسة ولو بدت للعين مستقيمة، لأن الأرض في حركة دائمة وما تراه يسير مستقيمًا عليها أو يسقط مُستقيمًا فوقها يسير في الواقع معها في سيرها أي في مسار مقوس، كما أنه إذا سار شيء في الفضاء في خط ظاهر الاستقامة حول الأرض، أو سقط شيء من السماء وبدا أنه يهبط في خط مُستقيم مارًّا بطبقة شبه الفراغ وطبقات الهواء المخلخل ثم الغلاف الجوي الذي يتحرَّك مع الأرض، فإنه يتحرك في الحالين إزاء شيء دائري يدور دائمًا، مما يغير من مسار حركته وسكونه بالنسبة إليه، فيُحوِّل الخط المستقيم إلى قوس، وإذا كان الأمر كذلك بالنِّسبة للأرض فهو يصدق بدرجة أكبر إذا رأيناه بالنسبة لسائر كواكب المجموعة الشمسية، وهي جميعًا تتحرَّك، بل إن المجموعة الشمسية نفسها تتحرك داخل المجرة الخاصة بنا (galaxy) والمجرَّة نفسها تتحرَّك، وقد

طبق ألبرت أينشتاين ذلك على كل شيء (فكلُّ شيء وفق نظريته طاقةٌ، وإن اختلفت صورها وتفاوتت في عيون البشر) حتى الضوء نفسه، وانتهى من نظريته النِّسبية العامة، القائمة على أخذ قوانين الحركة في الحسبان، إلى إدراج بُعْدٍ رابع هو الزمن إلى الأبعاد الثلاثة المعروفة وهي الطول والعرض والارتفاع في حساباته للكون وحالات الوجود الكبير من حولنا، ولم يكتشف العلماء صدق ما ذهب إليه أينشتاين إلا في السنوات الأخيرة من القرن العشرين بفضل التطور المذهل في الكمبيوتر أو الحاسوب، وهو الذي مكَّن ستيفن هوكنجز (Hawkings) من إعداد حسابات لم يكن في مقدور أبناء جيل أينشتاين أن يُنجزوها. ويطبق العلماء نظرية الدائرة على الذرَّة التي تعتبر في معظمها فراغًا كرويًّا، ولا تشغل فيه الشحنات الكهربية (أي الطاقة ونسميها النواة والإلكترونات) التي تمثل الوجود أو الكيان الذي يمكن للإنسان أن يدركه أي أن يستدل ذهنيًّا على وجوده (وإن لم يشاهده أو يسمعه) إلا حيزًا بالغ الضآلة إلى الحد الذي يسمح بتجاهله في حساباته الأخرى للوجود والعدم القائمة على المعايير المادية. وهذه الشحنات تدور في دوائر دائمة دائبة، ولو لم تكن هذه الحركة لما أمكن للعلماء إدراك وجودها أصلًا، وهكذا أقرَّ العلماء أخيرًا فكرة الدوران أو الدائرة في تفسيرهم أو محاولة تفسيرهم للظواهر التي أعيَت الأسلاف في الطبيعة والكون.

وأما الشعراء وأصحاب البصائر النافذة فقد سبقُوا العلماء «الطبيعيين» في التوصُّل عن طريق الحدس والشفافية إلى فكرة الدائرة أو صورة الدَّورة الدائمة، وأشد ما اجتذبني في هذه النظرة التي تصدق مهما تكن الزاوية التي تنظر إليها منها هو الدوام فالدَّوام معناه الخلود، وهذا ما وَضَعْتُهُ نُصْبَ عيني وأنا أتابع حلقات البرنامج العلمي الذي قدمته محطة بي بي سي بعنوان عالم ستيفن هوكنجز (عام ٢٠٠١م)، وعجبتُ من تفكير كاتب البرنامج الذي يحاول اجتذاب المشاهد بأن يسأل في كل لحظة عن نظرية البداية — كيف بدأ الكون؟ — ونظرية النهاية — كيف سيَنتهي؟

وعندما شاهدت الحلقات مرةً ثانية، وكنت قد حرصت على تسجيلها جميعًا، بدا لي أنه — أي الكاتب — يخطئ الخطأ الذي حذر منه وتجنشتاين (Wittgenstein) وغيره ألا وهو تطبيق قانون مُستقًى من حياة الإنسان (المحدود الفاني)، ومن حواسِّه الضئيلة المقيَّدة، على كونٍ يختلف اختلافًا شاسعًا عن الإنسان وعن دنياه! فافتراض البداية وافتراض النهاية افتراضان مستقان من مولد الإنسان وموته، ومن نشوء النبات وذبوله! وإذا سمحنا لهذين الافتراضين أن يسودا تفكيرنا أو أن يجعلانا نتوقَّع لكل شيء

بداية ونهاية فسوف نكون قد نقضنا حقيقة الدائرة وحقيقة الديمومة وهما حقيقتان مُتداخلتان اهتدى إليهما الإنسان ببصيرته قبل أن يؤكدهما العلم الطبيعي وما اكتشفه في ختام القرن العشرين! صحيح أن فكرة الأزل (اللابداية) عسيرة مثل فكرة الأبد (اللانهاية) وأن الإنسان يَنفر من العسير ويهوى اليسير، ولكن الدائرة تُرغمنا إرغامًا على قبول العسير، ولعلنا واجدون فيما اهتدى إليه علماء النفس من نظريات الأنماط الفِطرية عونًا على تقبُّل ذلك العسير!

وإذا كان وتجنشتاين وغيره قد اعتمدوا على ما أشرت إليه من قبل باسم العقل الخالص، دون أن أُشير إلى أنَّ هذا المصطلَح من وضع الفيلسوف الألماني إيمانويل كانْط (Kant)، فإنَّ غيره من علماء فلسفة اللغة (linguistic philosophy) أو ما اصطلح على تسميتِه بفلسفة التحليل اللغوي بالعربية، قد اكتشفوا مثالب أعماق في هذا القياس الخاطئ (false analogy) لأن الاستدلال (deduction) هنا يتجاهَل طبيعة العدد، وهي طبيعة لا نهائية، ولكن هؤلاء لا يقولون بما قاله فيثاغورس من أن العدد هو أصل الأشياء جميعًا، بل يقولون — ابتداءً من برتراند راسل (Russell) — إن النظام العددي هو النظام التجريدي الوحيد القادر على ربط العدم بالوجود عن طريق الإحالة دائمًا إلى موجود، فأنت حين تقول «ناقص واحد» أي حين تُعبر عن قيمة سلبية، فإنك تفترض وجود زائد واحد أي وجود قيمة إيجابية، فكلامُك عن «غياب الواحد» يَفترض وجوده، سواء كان وجوده حقيقة ذهنية خالصة أو حقيقة مادية، وكذلك حين تقول «صفر»، وهو التعبير الذي نعبر به عن نقيض الوجود أي العدم، فإنك بذلك تعبر عن افتراض وجود شيء ما، وهكذا فإن جلبرت رايل (Ryle) يُرجِع أخطاء التفكير في هذا الباب إلى عدم دقة التعريفات التي درجنا عليها، ويُقيم الحجة في كتابه **مفهوم العقل The Concept of Mind** (وهو كتاب لم يلقَ حظه من الاهتمام في الوطن العربي، ولا أعرف إذا كان قد ترجم إلى العربية أم لا) أقول إنه يُقيم الحُجة على أن عدم دقة المفاهيم واختلاطها هما السبب في أخطاء تفكيرنا، ويَضرب عشرات الأمثلة بأسلوب متَّئد ومنطق متمهِّل لا يلبث أن يقنعك بدعواه، فما نُسمِّيه البداية لا يعدو أن يكون نقطة مُفترضة أو مُصطلحًا عليها على محور الدوام (continuum) وهو خطٌّ دائري مُستمرٌّ لا يُمكن تحديد بداية مطلقة له، وكذلك ما نُسميه نهاية، ولكننا نُغيِّر على الدوام من تعريفاتنا ومن أوصافنا المضمرة (implicit definitions and qualifications) لهذه النقاط التي لا بد أن تنسب إلى غيرها أي أنَّ تُرى في علاقتها بغيرها، وإلا ما عادت بداية ولا نهاية؛ فبداية السباق في حلبة ما تتضمَّن

إضمار مفهوم للمضمار، مفترض أو متفق عليه، وكذا نهايته، وفي ظني أن الكتاب المذكور قد أثر تأثيرًا كبيرًا في تفكير أصحاب الذين يَدرُسون علم الدلالة، وهما فئتان؛ فالفئة الأولى تختص بعلم الدلالة الصوري (formal semantics) القريب من علم المنطق الصوري (formal logic) والفئة الثانية تختص بعلم الدلالة اللغوي، ويشار إليها أحيانًا باسم (informal semantics) أو باسم قريب المأخذ هو (linguistic semantics) وقد برع من الفئة الأولى جاكندوف (Jackendoff) الذي كتب كتابًا بعنوان علم الدلالة والمعرفة (Semantics and Cognition) عام ١٩٨٣م، ومن الثانية جون ليونز (Lyons) الذي كتب كتابًا بعنوان (Linguistic Semantics) عام ١٩٩٥م يُطوِّر فيه آراءه القديمة، وقد تأثَّرت أنا كثيرًا بكتاب أصدره إيمون باك Emmon Bach عام ١٩٨٩م بعنوان:

Informal Lectures on Formal Semantics

قبل أن أنتقل إلى كتابات جاكندو وغيره من الفئة الأولى ثم إلى ليونز (١٩٩٥م) وغيره من الفئة الثانية، في غضون انشغالي بِعلم الدلالة بفرعَيه، وبأهميته لدارس اللغة وللمترجم، وهو ما أفادني كثيرًا في تناول ما أعدتُ قراءته من كتب فلاسفة التحليل اللغوي، فوجدتني أزداد قدرة على تفهُّمها واقترابًا من إدراك مراميها، ووجدت إجلالي يزداد للمعلم العظيم زكي نجيب محمود، الذي اعتمد تلك الفلسفة منهجًا نجح في تطبيقه في دراسته للثقافة العربية.

أقول إنني دُهشتُ لوقوع كاتب البرنامج المذكور في خطأ تصور بداية ونهاية، لكنني عندما أنعمت النظر فيما قيل وجدتُ أن الخطأ يرجع إلى أنني لم أُفرِّق بين الكون والوجود (أي The Universe and Existence) إذ وازيت بينهما بالعربية فكل منهما مصدر لفعل يفيد الكينونة أي الوجود؛ فالفعل كان من الأفعال الناقصة بالعربية (أي an auxiliary) لكنه قد يأتي كاملًا إذا كان يعني الوجود، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢) و﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر: ٦٨) وأمثال هاتين الآيتين في سورة البقرة (١١٧) وآل عمران (٤٧) و(٥٩) والأنعام (٧٣) والنحل (٤٠) ومريم (٣٥)، وفي كلٍّ منها يعني الفعل الأمر بالوجود فالوجود ويماثله فعل الكينونة في اللغات الأوروبية وفي الكتاب المقدَّس بطبيعة الحال، وإن كان فعل الكينونة لا يستعمل فعلًا للدلالة على الوجود إلا في سياقات محدودة، ولذلك فإن اللغويين المحدثين يسمونه فعل الوجود أو الفعل الوجودي (existential verb) ونقرأ في سفر التكوين (١/ ٤): (God said, “Let there *be* light”, and there was *light*)

وهكذا وجدت أنني أخطأت؛ لأن المقصود بكلمة الكون الإنجليزية (universe) يختلف عن المقصود بالوجود (existence)، فكلمة الكون هنا تعني النجوم والكواكب وما عليها وما بينها، والمقصود بالبداية هو تَشكُّل هذه الأجرام السماوية في الصورة التي نعرفها اليوم، لا الوجود (Being) الذي هو نقيض العدم (nothingness)؛ ومن ثم فلنا أن نعتبر تلك البداية نقطة على مسار دائرة الوجود، الذي قد لا تكون له بداية، فقد يكون أزليًّا، وقد لا تكون له نهاية، فقد يكون أبديًّا ومن ثم لا يكون كاتب البرنامج قد أخطأ!

ولا شك أن تجربة المرض الذي كدت أرى الهلاك فيه رأي العين كانت من وراء انشغالي بصورة الدائرة وتجلياتها في الفكر والأدب، فالصورة عسيرة؛ لأنها توحي للأذهان التي لم تعتدِ التفكير النظري بالعودة إلى نقطة البداية أو إلى نقطة من نقط البداية، وذلك — كما هو واضح — محال، فالدائرة تعني الحركة مثلما تعني التغير، والحركة والتغير هما أساس الدوام الذي أشرت إليه في البداية، وتفكيرنا المستمد من الفِطرة السليمة يقبل الحركة والتغير والدوام، لكن منطق الحياة الواقعية قد لا يقبل ذلك؛ فكما ذكرت في التمهيد كثيرًا ما يقلق الإنسان من التغيير لظنِّه أنه يناقض الدوام أو ينفيه، فهو يحس فطريًّا بمعنى الديمومة ويخشى أن يقبل التغيُّر (الصيرورة) فيفسد هذا المعنى أو ينقضه، والإنسان يحسُّ فطريًّا بالحركة، فجيَشان الدم في جسده أكبر دليل عليه، ونشاط ذهنه، مهما يكن من خمول بدنه، دليل عليه، وحركة الكون من حوله في الأرض وفي السماء تشهد به، ولكنه يخشى أن تؤدِّي الحركة إلى سكون أو خمود وهمود فيفزع، فهو دون أن يشعر يطبق فكرة البداية والنهاية، أما إذا تأمل معنى الدائرة الحقيقي فسوف يجد أن الدوران يعني أن الدائرة تفضي إلى دائرة أخرى تختلف معانيها ومبادئ صيرورتها عن الدائرة الأولى، لكنها تشترك معها في جوهر الحركة الدائرية الدائمة؛ أي إنه يخشى الدائرة لأنها قد تعني له العودة إلى ما كان عليه أو انتهاء ما هو فيه، ولذلك يقصي التفكير في موضوع الحركة الذي يوحي له بالنهاية، ولكن الدائرة قد تتغيَّر في حركتها وقد تفضي إلى دوائر أخرى دون أن تتوقَّف أبدًا.

أقول إن تجربة المرض أفادتْني في هذا الباب؛ لأن العزلة التي فرضها القدر عليَّ في المستشفى خمسة أشهر كاملة أتاحت لي أن أقرأ على مهَل وأن أتأمَّل ما أقرأ ليلة بعد ليلة، كما أن ظلال المجهول كانت تُواجهني في ظلام ليل الشتاء الطويل في باريس فتشحذ في نفسي القدرة على نوع جديد من الحدس، وأنا أصفه بالجدة لأنني لم أكن خبرته من قبل، وإن كنت عرفت فيما بعد أنه مألوف لكل من استغرق في التأمُّل حتى غاب

عنه «وعي اليقظة» بما حوله، وما أكثر هؤلاء بين الشعراء والفنانين والمتصوِّفة، وبين الكثيرين ممَّن يُخلصون في عبادتهم لله حتى تشفَّ أرواحهم وتصفو نفوسهم فيعرفوا معنى السكينة الحقة، ولو كان مظهرهم لا يدلُّ على وجود مثل هذه القدرة على الحدس، ووجدتني أستعيد لحظات بعد بها الزمن حتى كاد العقل الواعي أن يَلفظها أو ينكرها، ولكنها كانت لحظات صفاء مؤكَّد أتاحت لي هذا الحدس نفسه على امتداد حياتي كلها، ووجدتني — مثل الشاعر وردزورث — أرجع إلى الماضي لأشهد من جديد هذه اللحظات، وهي التي يُسميها (Spots of time)؛ أي بقاعًا زمنية، ويقول إن ارتيادها يهبه طاقة نفسية ترسخ إيمانه وتُتيح له رؤًى قشيبة، وكان ارتيادي هذه اللحظات أول الأمر في الأحلام أو — إن شئت الدقة — فيما بين النوم واليقظة، خصوصًا قبيل الصحو حين تدب الحركة في أطراف المستشفى، أو تَعصِف ريح الشتاء الباردة بذوائب الشجر العاري خارج النافذة في المساء، أو تهطل شآبيب الربيع في غسق الصبح فتُحدِث هديرًا خافتًا يتردَّد صداه في أذني فأسمع ما يشبه صوت والدي وهو يُلقي الشعر العربي (وكان جميل الإلقاء) وأرى كأنما يسير معي في حديقتنا في رشيد، وكأنما نسمع أصوات طيور الشمال المهاجرة، وكأنما أرى ضوءًا خافتًا ينبعث من مسكن الحاج غضبان شعير حارس الحديقة المقيم فيها، فأتصور أن الوقت مساءً وأنه أوقد الكانون لزوجته «أم سميح» لإعداد العشاء، بل وأكاد أشم رائحة اشتعال الوقود الريفي، وكانت تلك الرؤيا تتكرَّر فأجد أن بعض عناصرها قد اختلط بعناصر معاصرة فلا أعجب أو أدهش، كأن أرى أحد أصدقاء القاهرة معي في رشيد، أو أرى المشهد وقد أصبح يضم غرفة مكتبي في منزلنا في «داربي رود» في إنجلترا، فأكاد أفرح لوجود كتبي معي، وكنت حين أصحو على ضجيج الممرضات أو زيارة الطبيب أحس بنشوة عميقة تحيل مشهد الصحو حلمًا والحلم حقيقة لا تقبل النقض!

ودائمًا ما كنتُ أعود إلى تلك «البقاع الزمنية» (وهي التي أسمِّيها «الواحات» الآن) في كلِّ عزلة، وكنتُ أسعد فيها بالإحساس بالزمن؛ ففيها وُلِدَتْ صورة الدائرة بل الدوائر، فكنتُ إذا أحسست بالعزلة في أيِّ مكان، في مصر أو خارجها، أشعر بتداخل لحظات الزمن، ويعتادني الحدس الذي تولَّد أولًا في باريس، فأرى الشارع الغريب وقد أصبح مألوفًا كأنما تُوجد صورته في أعماق النفس، أو أرى الشارع المألوف وقد اكتسى شكل شارعٍ آخر رأيته فيما يرى النائم، فأدرك دورات الزمن، وأذكر أنني كنت في زامبيا ذات يوم للعمل في مؤتمر تابع لمنظمة الوحدة الإفريقية، وخرجت ذات يوم لشراء بعض الهدايا للأصدقاء من دكان تديره أسرة إنجليزية، وعندما طال بنا الوقوف أدرت رأسي لأنظر

مصدر صوت سمعته فشاهدت ما بدا كأنه حديقة مدرسة سعيد الأول في حي محرم بك بالإسكندرية، واستغرقتْني الرؤيا حتى غفلت عن البائعة، ولم أتبين أن دوري قد جاء إلا حينما كررت نداءها لي عدة مرات.

أعرف ما يقوله العلماء عن هذه اللحظات، ولكنَّ ما مررت به لم يكن «ذكريات» أو ما يمكن إدراجه في عداد لحظات التجلِّي المعروفة، فلقد عرفت هذه وتلك، ولهذه صفاته ولتلك صفاتها، أما ما أعنيه هنا فهو لحظات الإدراك التي تتجاوَز الذكريات وتتجاوَز التجلي في كونها ذهنية ونفسية معًا؛ فكنت عندما أخبرها أحس بيقظة ذهنية تربطني بأمكنة وأزمنة وأشخاص ممَّن أعرف ولا أعرف، وتستعصي عليَّ الكلمات حتى يتوقَّف الصوت الداخلي ويتملَّك نفسي إحساسٌ بالتداخل والحركة معًا، فهذا يشتبك مع ذاك، ويتحرَّك الجميع في عدة اتجاهات معًا وفي نفس الوقت، وكان التداخل والحركة معًا يُمثلان الدافع الأول لي على استكناه معنى الدائرة، ويقيني آخر الأمر بفكرة الدورة، وأذكر أن هذه الفكرة رسخت في أعماقي حتى أثَّرت فيما أكتب بل فيما أترجم، بل إنها بدأت تتسرب إلى أسلوبي نفسه، وقد انتبهت إلى ذلك عندما اعترض الأستاذ عبد الناصر عيسوي على تعبير «دار الزمن» في أثناء مراجعته لترجمةٍ قمتُ بها، وظننتُ أن التعبير خطأ، فسمحت له بتغييره، ولكن الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم (الشاعر أبو همَّام) أكَّد لي فيما بعد أنه صحيح، والأقرب إلى المنطق أن يكون صحيحًا؛ لأنَّ آباءنا خبروا الحياة مثلما خبرناها، وربما بأعماق ممَّا خبرناها، فكان التعبير مألوفًا لديهم.

٢

وإذا كان الإحساس بالزمن هو أهم سمة من سمات تأمُّل الدائرة، ولا أقول ثمرة من ثمار تأملها؛ إذ ربما يكون الإحساس بالزمن هو الذي يدفع بصورة الدائرة إلى بؤرة الوعي، فإنَّ الحياة التي تتدفق أنهارها حولنا تَزخر بما يُعمِّق هذا الإحساس ويُؤكِّد صورة الدائرة في الوقت نفسه، وأنا أرى في بعض الأحداث التي شهدتها نماذج على دوائر تشبه دوائر القدر، وهي جديرة بقلم نجيب محفوظ حقًّا؛ فالإنسان يشترك في صنعها مع قُوى لا أظنُّني أخطأت حين نسبتها إلى الأقدار، وفي داخل هذه الأحداث نفسها تبرز «بقاع زمنية» يزداد جمالها، ولو كانت غاصة بالآلام، كلما ابتعد بها العهد وطوتها الأيام، فإذا رأيت نظائر لهذه الأحداث من حولي أدركت أن دائرة جديدة قد بدأت، وأن أحداث الأيام تأبى إلا أن تفضي دائرة إلى أخرى، وأن الماء الذي يصبُّه النهر في البحر فيَختلِط بمائه الملح

لا يَلبث أن يحمله الهواء سحائب تعود لتغذو منابع النهر حتى يصبها في البحر من جديد. إن دورة الزمن التي تتبدَّى في أحداث الزمن تأكيد للدورات الكونية، وكنت ولا أزال أرى فيها النماذج المادية لدَورات الروح البشرية، أو قل إنني كنت ولا أزال أستقرئ فيها فِكرة الدائرة التي تتخطَّى حدود الحياة الملموسة. وليأذن لي القارئ بإخفاء أسماء بعض الأشخاص فيما سأرويه؛ لأنهم لا يزالون بقيد الحياة، حتى لا يتضرَّر أحد منهم من نشر قصته على الملأ، وإن كان من المحتوم أن يتعرَّف أحدهم على نفسه، وأنا لا أجد في ذلك بأسًا ما دام هو الذي روى لي القصة وما دمت قد التزمت في روايتها بما رواه لي.

كان إبراهيم (...) زميلًا لي في المدرسة الثانوية في رشيد، وكان يَكبرني بنحو ثلاثة أعوام، وكان من «قادة الطلبة»، وهو الوصف الذي أطلقه عليه ناظر المدرسة أحمد السعيد جاد، فكان يقود المظاهَرات المعادية للملك، ويشتهر بصوته الجهوري، وكان على ضآلة جرمه ذا شخصية جذابة تَستميل الآذان والقلوب، فكان فصيحًا يقرأ الصحف ويلقي الخطب ويُنافس فوزي أبو العلا — الخطيب المفلق — في زعامة السنة الثانية الثانوية (الإعدادية) بل وزعامة المدرسة كلها، وكان جريئًا يجاهر بمُيوله الاشتراكية، ويردِّد ما يقوله الأستاذ ونيس، مدرس الجغرافيا، عن حتمية الثورة، وكان الوحيد الذي يحصل على مجلة روزاليوسف ليلة الأحد أي قبل صدورها بساعات وقبل أن يُصادرها الرقيب أو يحذف منها ما يمس الأسرة الملَكية أو يُغالي في انتقاد الحكومة، فكان يَنفرِد بأقاصيصِه عن القصر وعن أسرة زينب الوكيل، زوجة النحاس باشا، وعبود باشا، واللواء النجومي باشا (مدير حديقة الحيوان) وآخرين كثيرين، وكنا نستمع إليه في دهشة وإعجاب وهو يسرد نماذج للفساد الذي يضرب أطنابه في الحكومة، وعن الإقطاعيِّين وما يفعلونه بالبسطاء، فإذا حدث ما يراه جديرًا بالتظاهر أمر بمُقاطَعة الدروس والإضراب، ثمَّ صاح بالطلاب أن هُبُّوا فإذا هم يهبون في مظاهرة تطوف بشوارع البَلدة مُردِّدة الهتافات، وكنا نحن — الصغار — نُهرع خائفين إلى منازلنا، وكان مُدرِّس التاريخ الأستاذ عبد المنعم درويش (زوج ابنة عمي كوثر) يُساند هذا «الزعيم» معنويًّا وينحاز إلى صفه حين تغضب عليه إدارة المدرسة، وأذكر مرة استدعينا للشهادة أنا ومصطفى النقيب (وكان من إدكو ويجلس إلى جواري في الفصل ودارت الأيام فتزوج ابنة عمتي) وكانت التُّهمة الموجهة إلى إبراهيم هي التعدي على الذات الملَكية بما لا يليق من ألفاظ، وكان الناظر قد استدعى للحكم في الشكوى الأستاذ هندي مدرس أول اللغة العربية، الذي كان — كما علمت فيما بعد — مُدرِّسًا لوالدي وللدكتور عبد العزيز كامل رحمهما الله في الفريدية

الثانوية بالقاهرة — وأسر إلينا الأستاذ عبد المنعم درويش ألا نقول شيئًا لأن التُّهمة يُعاقب عليها بالفصل النهائي. وعندما سئلنا التزمنا الصمت، ولم نقل ما يثبت أو ينفي، وصاح الأستاذ هندي: «ولا تكتموا الشهادة يا عناني! ولا تكتموا الشهادة يا نقيب!» ولكن صيحاته ذهبت عبثًا ونجا إبراهيم وساد المدرسة فرح غامر، وسرعان ما أرسل إبراهيم رسالة سرية إلى جميع الطلاب يَنصحُهم فيها بالامتناع عن الحضور في اليوم التالي احتفالًا بالنصر، ويحذرهم من المجيء، ولكنني لم أستطع بطبيعة الحال أن أمتنع عن الذهاب، وعندما وصلت وجدت الباب موصدًا، وعم سليمان الفراش واقفًا على غير عادته، وسرعان ما وصل الأساتذة الذين يأتون بالقطار من الإسكندرية، وسألنا الأستاذ صليب — مدرس الرياضيات — عن الخبر فلم نعرف ماذا نقول، وبعد دقائق خلناها دهرًا انصرفنا في حيرة، فلا مظاهرة ولا دراسة — بل ولا لعب!

وعندما قامت الثورة — في العام التالي — كان إبراهيم يرى نفسه مُمثِّل حكومة الثورة في المدرسة، وكان الوحيد — تقريبًا — الذي يُعارض «شلة» الإخوان المسلمين، وهي «الشلة» التي تحدثت عنها في **واحات العمر** (ج١)، وقلت إن أفرادها كانوا يتصوَّرون أنهم وزراء المستقبل، وكان إبراهيم يجاهر بهذا العداء، وكان أنصاره يَحملونه على أكتافهم في مظاهرات التأييد للثورة، ولا أعرف مَن الذي ألَّف بيت الشعر الحلمنتيشي الذي كانوا يُردِّدون شطرًا منه تأييدًا لإبراهيم وهو «أنت الزعيمُ وكُلُّهمْ رَكَشُ!» وقد يكون أحدهم قد قرأه في إحدى المجلات، وربما يكون له مؤلف مجهول من بين الطلاب، لكنَّني أذكر أن إبراهيم سألني عن الشطر الثاني فلم أعرف فطلب منِّي استكمال البيت، فطلبت منه أن يُمهلني حتى «آخر النهار»؛ أي إلى ما بعد انتهاء الدروس فوافَق، فجهدت نفسي طيلة الحصتين الأخيرتين حتى كتبت له شطرًا حلمنتيشيًّا آخر لا يبرح خيالي أبدًا وهو «الحقُّ جاءَ ورَوَّحَ البَكَشُ!» فلدهشتي الشديدة وجدته يَصيح صيحة الظفر كأنما عثر على شعار الثورة!

وانقطعت أخبار إبراهيم عني سنوات طويلة، ثم قابلته ذات يوم من عام ١٩٦٢م في مقهى الأزهار بباب اللوق، وكان يجلس وحده وهو يدخن بشراهة وبجانبِه حقيبة أدركت على الفور أنها حقيبة معلم، فأقبلت عليه مرحبًا فإذا هو كالعهد به يتقد حماسًا، غير أنه ازداد نحولًا كأنما صغر حجمُه، وعرفت منه أنه كان يُحاول الانتهاء مِن إجراءات السفر إلى الجزائر (التي كانت قد حصلت لتوِّها على استقلالها) لتدريس اللغة العربية والمشاركة في حملة التعريب التي قادَها بن بيلا وواصلها بومدين، وجعل يتكلَّم عن مشروعات

المستقبل، وعلمت أنه حصل على دبلوم المعلِّمين وهي شهادة متوسِّطة، وأنه يَطمح إلى استكمال تعليمه بالجامعة عندما يعود من الجزائر، وأخذ يقصُّ عليَّ طرفًا من أخباره وأخبار زملائنا بعد أن فرقتنا الأيام، وأنا أنهل من حديثه كأنه الشهد الرضاب، ولم أشأ أن أفارقَه حتى بعد أن وصل فاروق خورشيد وعبد الغني أبو العينين (من مركز الفنون الشعبية)، وكنتُ أنتظرهما لتسليم ترجمة مقال، فقدمتُه إليهما بسرعة وأنهيت المقابلة وعدت إلى مائدتنا حتى تأخر الوقت، فأعربَت له عن أطيب الأماني وودعته.

وعرفت باقي قصة إبراهيم من بعض أصدقائنا بعد عودتي من إنجلترا عام ١٩٧٥م، فلقد قضى سنوات لا أعرف عددها في الجزائر وعاد إلى مصر فاستقرَّ في مدرسة في الإسكندرية، ويبدو أنه تخلَّى عن حلم استكمال تعليمه، ويبدو أن حماسه الثوري قد فتر أيضًا؛ إذ اشترى عمارة في حي شعبي (لا أعرف تحديدًا مكانها) وأصبح له دخل يُعينه على الزواج، ولم يكن يُريد الاقتران بأيِّ فتاة من رشيد فهو الآن «أفندي» محترم وجدير بأحسن المتعلمات من بنات الإسكندرية.

وقال الصديق الذي قص عليَّ القصة: «كانت العمارة جديدة، وإيجار الشقة لا يقلُّ عن ١٢ جنيهًا في الشهر، وقد حجز لنفسه شقة فيها، وإبراهيم — كما تعرفه — يحب الشعارات [يقصد المبادئ والمثل العليا]، ويبدو أن إحدى الساكنات في الشقة المقابلة لشقتِه، وكانت طالبة في السنة النهائية بمدرسة الحكيمات (التي أصبحت المعهد العالي للتمريض) أدركتْ ذلك، وكانت أصغر أخواتها وتعيش وحدها مع والديها المسنَّين، فجعلت تختلق الفرص لترديد الأفكار الثورية التي تَستهويه كلما قابلته بالمصادفة أو لدفع الإيجار أو في المناسبات الاجتماعية المصرية، ويبدو أنها فعلت كل ما تستطيع الأنثى بفطرتها أن تفعله لاجتذاب نظره، وانتهزت فرصة زيارة بعض أفراد أسرته (والدته وأخته) من رشيد فوطدت علاقتها بالأسرة، وعندما مرضَت الوالدة لم تكن «الحكيمة» تبارح موقعها بجوار فراشها حتى شفاها الله، ولم تكن تضن بالأدوية التي تحصل عليها من عيِّنات الصيدلية في مدرستها، وكان ذلك كفيلًا بإثارة اهتمام إبراهيم، خصوصًا عندما كانت تتحدث عن تطوعها للعمل بالقوات البحرية بالإسكندرية في حرب ١٩٦٧م، وكانت تطَّلع الأم على تفاصيل عملها ونشاطها في الرعاية الطبية، مع أنها لم تكن قد تخرجت بعد، وتدريجيًّا بدأت الفتاة تكتسب في عيون الأسرة صورة الفتاة المصرية الجديدة، المتحررة، صاحبة المبادئ والمؤمنة بالعمل إيمانها بالحياة، فكانت أخت إبراهيم تغار منها ولا ترحب بها، وكثيرًا ما كانت تتشاجَر مع والدتها بسبب إعجابها بتلك الفتاة الإسكندرانية وتتهمها

بأنها تفضلها عليها، ولكن الأم كانت قد قررت أمرًا وعقدت عليه العزم، فما إن انتهت «الحكيمة» بعد شهور من دراستها وأصبحت تَحمل لقب الدكتورة حتى أمرت ابنها بالزواج منها! تصور يا أخي [قال صديقي] إلى أي مدى يبلغ مكر النساء! والواقع أن إبراهيم لم يكن بحاجة إلى «أمر» فالفتاة تشغل خياله و«تملأ» حياته فعلًا! وسرعان ما تمَّ الزفاف، ولم تعد أسرة إبراهيم تزوره إلا في المناسبات، خصوصًا بعد أن أنجب وتمكن منه حب زوجته إلى الحد الذي جعله ينقل إلى ابنه مِلكية العمارة، بعد أن أفهمته زوجته أن ذلك أمان للولد، فهو الذي سوف يرث المبنى في آخر الأمر، وتدريجيًّا تقطعت علاقة إبراهيم بأسرته في رشيد، وكنت عندما أزوره أراه ناحلًا هزيلًا لا يتوقف عن التدخين، وكان أحيانًا يشرد ببصره فلا أعرف إن كان يسمع ما أقول أم لا.»

وقال لي الصديق إنه كان دائمًا يستريب بالحكيمة وبأسرتها بسبب جشعهم وحبهم للدنيا، وكان يُتابع أخبار الأسرة بانتظام فهو لا ينسى أصدقاء الصبا، ودلَّل على ذلك بزيارته لي في القاهرة قائلًا إنه يَغتنم كل فرصة لتجديد العلاقة معهم، فلا شيء أثمن من صداقة الطفولة والصبا، وكان كثيرًا ما يتردَّد على القاهرة للانتهاء من بعض الأوراق الخاصة بعمله في الجمرك، وكنت ما زلت أسعد سعادة بالغة بلقائه والاستماع إلى اللهجة الرشيدية الصادقة بعد أن كدت أنساها. وكانت قصة إبراهيم قصة واحدة من عشرات القصص التي كنت أختزنها وأحيانًا ما أرويها أو أناقش تفاصيلها مع أحد أخويَّ الأصغرين حسن أو مصطفى، فهما يُتابعان بعض هذه القصص خيرًا مني، ولهما من الأصدقاء مَن قد يملأ بعض الفجوات فيها.

وفي أغسطس ١٩٩١م كنت أزور الإسكندرية لإلقاء محاضرة في قصر ثقافة الشاطبي، وكان قد أُعلنَ عن المحاضرة في باقي قصور الثقافة، فسعى إلى الشاطبي بعض مَعارفي وأصدقائي القدامى وكنت أتوقَّع أن أرى إبراهيم بينهم، ولكنَّني قابلت الصديق الذي روى لي قصة زواجه، وكان واجمًا مكتئبًا، فسألته ما الخبر فقال لي إن إبراهيم قد تُوفي في العام السابق، ولم يَعرف أحد سبب وفاته، وقال إنه يَظن أن زوجته هي التي قتلته، فقلتُ له أن يُحسن الظن بالناس وألا يتَّهم أحدًا دون دليل، وسألته عن الولد فقال لي: «هذه مُصيبة أخرى!» وفاجأتني كلماته فخرجت معه إلى طريق الكورنيش نَستروِح نسمات المساء، فقد كان اليوم حارًّا رطبًا ولم تُخفِّف كلماته من الحرارة أو الرطوبة! فحثثتُه على الحديث فانطلق:

«عندما عُدنا إلى الله في السبعينيات كانت زوجة إبراهيم أول من ارتدى الحجاب بين أترابها، وأنشأت ابنها تنشئة دينية قويمة، فلم يكتفِ بالشعائر الدينية بل أصبح

واعيًا بالحلال والحرام، وأصبح يتردَّد بانتظام على المسجد، مما أثلَج صدورنا جميعًا، وتدريجيًّا أصبحت والدته تتكلَّم باسم الإسلام وتتحكم في حياة أسرتها الصغيرة (زوجها وولدها) وأسرتها الكبيرة التي تُقيم في الشقة المقابلة، وأصبحت مرهوبة الجانب، ويبدو أنها تعرف الكثير عن الطب؛ إذ كانت تقوم بمهام الأطباء لدى الأسر التي تَستنكِف نساؤها استدعاء أطباء من الرجال، أو لا تثق نساؤها في الطبيبات السافرات، وعلى مرِّ الأيام تحول «تديُّن» الولد — واسمه خليل إلى «دروشة» فهجر التعليم، وطلب من والدته مَبلغًا من المال (فهي التي تتحكَّم وحدها في دخل الأسرة) وذلك للقيام بمشروع تجاري يُبعده عن فساد الجامعة (بسبب اختلاط الجنسين فيها) فوافقت، وباعت إحدى الشقتَين اللتين كانت قد أمرت ببنائهما فوق أدوار العمارة الأربعة (دون تركيب مصعد) وأعطته ما يريد، وساعدتُه أنا شخصيًّا عدة مرات في تخليص ما يريد من الجمرك، وكان قد أطلق لحيته وارتدى الجلباب الأبيض، فساعده مَن بهَرَهم ورعه واجتذبتهم تقواه، على صغر سنِّه، فلم تلبث تجارته أن ازدهرت، وأصبح يقضي حياته ما بين العمل والمسجد والبيت، فكان مثالًا للشباب المؤمن العامل المجتهد، بل إنه أشرك في العمل عددًا من «المؤمنين» فأصبح المحلُّ كعبة الجمهور والناس كلهم لا في الحي وحده بل في الإسكندرية كلها.»

ولم أجد في ذلك كله مُصيبة فعدت أسأله الإيضاح، فقال: «بداية «المصيبة» هي أنه سجَّل العمل باسم والدته، وأما والده فقد كان قد انسحب آنذاك من الساحة انسحابًا كاملًا، وكان مهملًا في مظهره، وازداد نحوله وعزوفه عن الطعام، ولا بدَّ أن ذلك كان بسبب أسرار لا نحيط بها عن علاقته بزوجته المسيطرة، ولو كان له شأن بما يجري لَما قَبِلَ تسجيل العمل باسم الزوجة، فكان يمكن تسجيله باسمه هو مثلًا، وذلك حتى يبلغ خليل سن الرشد، وعلى أي حال، فنحن الآن نواجه المصيبة الحقيقية؛ ألا وهي أن خليل قد تزوج من ابنة أخت الزوجة (أي من بنت خالته) التي تَكبُره بخمسة عشر عامًا أو أكثر، فهي تخطو نحو الأربعين إن لم تكن بَلغتْها — وهي على ما سمعت لا تتميز بأي ملاحة، ومن الصعب التيقن من أي شيء عنها فهي منقَّبة ومُفرطة السمنة، لا تكاد تغادر المنزل أبدًا، ولا يبدو أن أحدًا تقدم لخطبتها قبل خليل.»

وسألت صديقي مُخلصًا عن سبب معارضته لهذا الزواج، فقال إنه يظن أن والدة خليل هي التي فرضتْه عليه، فليس من المعقول أن ينتهي الأمر بهذا الشاب «المثالي» إلى هذه الزيجة غير المتكافئة، فأوضحت له أن أساس الزواج هو التناغم والتوافق، وما داما متناغمين متوافقين فليسعدا وليهنآ، وقلت له إن ما يحزنني حقًّا هو ما حدث لإبراهيم؛

فهو صديق أعرفه ويُدهشني أن تتحول حياته هذا التحول، فأنا أذكر شخصيته القوية، وأستبعد أن يكون قد استسلم بسهولة لزوجته ولا بد أن أمرًا قاهرًا هو الذي جعله «ينسحب» كما تقول من «الساحة». واستمر نقاشنا ونحن نسير الهوينى في اتجاه محطة الرمل، وكانت أضواء المساء مضاءة وتتلألأ على صفحة البحر، وعلى البُعد يلوح مسجد أبي العباس المرسي فيثير حنيني لأيام الصبا، وكان صديقي لا يكف عن رمي زوجة إبراهيم بصفات قاسية، فقلت له إنه لا ينبغي أن يدين طرفًا واحدًا في أي علاقة بين اثنين (أو بين مجموعة)؛ فالإنسان مخيرٌ في علاقاته، ولا بد أن عدة عوامل (لا عاملًا واحدًا) هو الذي دفع إبراهيم إلى الاكتئاب، وربما يكون قد حزن بسبب انهيار الاشتراكية — مثله الأعلى — أو بسبب انهيار بعض أحلامه الفردية، فهو لم يكمل تعليمه، وكذلك لم يُكمل ابنه تعليمه، وربما يكون قد مرَّ بتجارب معينة في الجزائر لم يفصح عنها لأحد فشعر بالإحباط، وكنا قد وصلنا إلى الفندق الذي أنزل فيه فدعوته لشرب الشاب معي لكنه اعتذر لتأخر الوقت، فقلت له قبل أن نفترق ألا يُغالي في الهجوم على المرأة، لكنه قال بلهجة تنم عن الألم، إن خليلًا قد أصبح يقضي في المنزل من الوقت أكثر مما يقضيه في العمل، وإنه يَنسب ذلك كله إلى مصيبة زواجه من تلك الفتاة. وافترقنا.

ولم أجد في القصة ما يُبرِّر وصفها بالمصيبة، بل رأيت فيها ما يشبه الدائرة! لقد افتتن إبراهيم بزوجتِه بسبب تحرُّرها وأفكارها (التي يسميها صديقي «الشعارات») وافتتن خليل ابنه بابنة خالته بسبب نقابها وربما بسبب غياب الأفكار أو «الشعارات»! وهكذا دارت الحياة دورتها وتغير المجتمع، وربما تكرر في حالة خليل ما حدث في حالة أبيه إبراهيم، وقد يكون قد أنجب ولدًا يواجه موقفًا مشابهًا (إن لم يكن مُماثلًا) مع إحدى قريباتِه من سليلات الأسرة العجيبة! وكم كنت أتمنَّى أن أُتابع أحداث هذه الأسرة، فروايتها قد تصنع «رواية» فنية محبوكة، إذا توافرت للكاتب الإحاطة الكافية بدقائق حياة كل شخصية من الشخصيات، ولكنَّني لست روائيًّا بل أضع نفسي في موقع قارئ رواية الحياة، وأحاول أن أجد فيما أقرؤه بعض المعاني، وفي ظني أن هذا جوهر كل سيرة ذاتية أدبية، ولما كان معنى ما حدث لهذه الأسرة قد برز كواحة من واحات الزمن الذي ما فتئ يدور، ويظل يدور حتى قيام الساعة، فقد أثبتُّ أحداثها — كما سمعتها وكما شهدت بعضها ولو من مسافة ما — لأنها أحداث تؤكد ما ذهبت إليه من الدوران! إن وفاة إبراهيم لم تكن نهاية؛ لأن ابنه واصل مسيرة قوس الدائرة، لا في المضمون ولكن في الشكل، أو قل — إن شئت — لا في مواد البناء بل في شكل المبنى! أو قل — إن شئت —

لا في التفاصيل بل في الصورة، فنحن إذن نواجه دائرتين؛ الأولى تُفضي إلى الثانية، ومَن يدري ما تكون الثالثة؟ وفي جوهر الدوران نفسه يَكمُن جمال قول المتنبي:

صَحب الناس قبلنا ذا الزمانا عناهم مِن شأنه ما عنانا

وقول شوقي:

سنون تُعاد ودهر يُعيد لعَمرُك ما في الليالي جديد!

٣

لم يُكتب لي أن أتابع تفاصيل قصة خليل، إذ شُغلتُ في العام التالي بالمرض ورحلة العلاج، وشغلت بعد العودة بمُحاولة الرجوع إلى نشاطي السابق، وعندما أتيحت لي في منتصف التسعينيات فرصة استئجار شقة في عمارات الأوقاف بالشاطبي لم أتردَّد ودفعت المبلغ المطلوب لمستأجرها القديم اللواء محمد رأفت ولهيئة الأوقاف المصرية، وكانت تُصور في ذهني أقرب مكان إلى مَراتع الطفولة والصبا في رشيد والإسكندرية، وأقرب مكان تستطيع فيه والدتي في أعوامها الأخيرة — رحمها الله — أن تستمتِع فيه بصُحبة أبناء الأسرة المقيمين في الإسكندرية والتواصُل مع أهل رشيد أيضًا، وكان موقع الشقة مُغريًا فهي تقع تمامًا تحت الشقة التي تُقيم فيها خالتي الحاجة لطيفة بدر الدين، مدَّ الله في عمرها؛ فهي أصغر خالاتي وأخوالي — وكانت والدتي رحمها الله تحب صُحبتها، وكان يزور والدتي الأقارب جميعًا، خصوصًا خالي الدكتور مصطفى كمال بدر الدين وأبناءه، وكان قضاء شطر من الصيف فيها يهيئ لنا جميعًا اللقاء مع أفراد الأسرة الكبيرة، وكنت كلما ذهبت إلى الإسكندرية سألت عن صديقي الذي حكى لي قصة خليل فلم أوفَّق في العثور على عنوان له، وسألت الشاعر عبد المنعم الأنصاري — رحمه الله — كما سألت الشاعر مهدي بندق، وتردَّدت كثيرًا على قصر ثقافة الشاطبي، ولكن جهودي جميعًا باءت بالفشل. وعندما يئست من العثور على ذلك الصديق قرَّرت أن أزور المحلَّ التجاري الذي أنشأه خليل في حي الجمرك، فاصطحبت ابنتي سارة فيما يُشبه النزهة بالسيارة، وذهبنا إلى مقرِّ المحل الذي كان صديقي قد أعطاني عنوانه فوجدته مُغلقًا. أوقفت السيارة ونزلت فسألت أصحاب المحلَّات المُجاورة فجاءتني إجابة واحدة لا تتغيَّر، وهي أن صاحبه صادف مشاكل مع الضرائب فأغلق المحلَّ وسافر. وكنت أعود كل عام فأمرُّ على المحلِّ بالسيارة

فأجده لا يزال مغلقًا، فأيقنت أن المشاكل لم تحل، وإن كان ولا يزال من الصعب عليَّ أن أقتنع بأنه «سافر» كما يَزعُمون، وقلت في نفسي لعله قد فضَّل الاختفاء هربًا من مشاكله، ولعلَّ هؤلاء التجار يقولون ذلك تضامنًا معه وخوفًا من أن أكون جاسوسًا حكوميًّا.

كنت أريد أن أعرف باقي القصة لأرى كيف سارت دائرة الحياة به (وبأبنائه؟) فأنا مشدود إلى تلك الدوائر التي يبدو أن القدر يحكم رسمها، وفي ذهني الآن قصص تؤكِّد مسار تلك الدوائر، ومسارنا فيها إلى غايات لا يعلمُها إلا الله سبحانه وتعالى، وأنا أصف هذه القصص أو الأحداث بأنه «قدرية» لأنَّ الدائرة صورة قَدرية محتومة، فنحن ندور فيها مدفوعين بما رُكِّبَ فيها من صفات، يفسرها العلماء اليوم بأنها «الجينوم البشري» أو الخصائص الوراثية الفطرية التي تميز كل فرد عن سواه، فكأنما هي «المكتوب» بلغة الحياة الجينية (the language of life) فهي لغة لا تَقتصِر على الصفات الجسَدية بل تتعدى ذلك إلى الصفات النفسية والذهنية، وما زلت مفتونًا بهذا «المكتوب» في أعماق خلايا أجسادنا منذ الولادة، وما زلت أتساءل عن مدى حرية الاختيار المتاحة للإنسان و«المكتوب» مكتوب! هل قُدِّرَ علينا إن أردنا الاختيار حقًّا أن نكافح ما لا نُحبه من «المكتوب» فنغيره أو نُعدِّلَه؟ إنه لسؤال يظل بلا إجابة، حتى يكشف لنا الله عن بعض أسرار هذا الكائن الذي كنا نظنُّ أننا قادرُون عليه.

لقد قلت لصديقي في عام ١٩٩١م إننا نتمتَّع بحرية الاختيار في علاقاتنا، وهو قول لن يعارضني فيه إلا القليل؛ فنحن نحب أن نتصور أننا أحرار، وربما يقول أحد القراء: إن إبراهيم كان بإمكانه ألا يتزوج تلك الفتاة، ولو قدر لها أن تقرأ رواية صديقي لقصة زواجه فربما عارضتها وقالت: «ما حدِّش ضربه على إيده.» وقد يقول قارئ آخر إنه أخطأ حين أسلس لها قياده بعد الزواج، فله شخصية يقر الجميع بجاذبيتها، وقد يعارض ذلك قارئ آخر استنادًا إلى التفريق بين الشخصية الجذابة والشخصية القوية وهو ما نستخدم له في العامية الإنجليزية تعبير charming personality وتعبير strong character، ويقول علماء النفس: إن الشخصية الجذابة هي الشخصية القادرة على اجتذاب الأسماع والأنظار وإمتاع القلوب والعقول حتى دون أن تترك فيها أثرًا باقيًا، فهي شخصية ناجحة اجتماعيًّا وإن كان من المحتمل أن تخفي نقطة ضعف أو نقاط ضعف، وأما الشخصية القوية فهي القادرة على التأثير في الناس أولًا بالقُدوة؛ بسبب استمساك صاحبها بالمبادئ مهما تكن تلك المبادئ، وقدرته على التحكُّم في نفسه بقوة إرادة مؤكدة، ومن ثم فهي شخصية قيادية. وربما كان إبراهيم صديق الصبا يَنتمي إلى الفئة الأولى،

وربما كانت زوجته تَنتمي إلى الفئة الثانية، وغني عن القول أن هذا التفريق ليس من قبيل الأبيض والأسود؛ فلكلِّ إنسان حظه من إحدى الفئتين، بل قد تجتمع الفئتان كثيرًا في بعض الأشخاص، خصوصًا في الزعماء، وإن كان المألوف أن تغلب سمات إحدى الفئتين على سمات الأخرى. وكان لإبراهيم حظه من الفئة الثانية، بدليل قيادته للطلاب في المدرسة الثانوية، ولكن صفاته القيادية كانت في رأيي مُستمَدة من عوامل خارجية لا من قوة داخلية، ولم تَعُد جاذبية شخصيته قادرة على القيادة بعد أن تولت الثورة قيادة الجماهير، فسلبتْه القوة التي كان يستمدُّها من معارَضة النظام القديم. أقول إن هذا محتمَل، وقد أكون مخطئًا، ولكنَّني أرى في تسليمه لزوجته بما تريد دليلًا عليه، وأرى الآن — على بُعد المسافة — أن إحساسه بالإحباط يُشبه إحساس الكثيرين الذين غلبتهم قوى الأحداث العامة، فـ «انسحبوا» — كما يقول صديقي — إلى داخل ذواتهم فلم يجدوا القوة الكافية، فأصابهم الاكتئاب وهزلت أجسامهم مثلما هزلت نفوسهم. وربما كان الوقت الذي قضاه في الجزائر مُعلِّمًا لمبادئ اللغة العربية عاملًا من عوامل الإحباط؛ فالثورة قوة ما دُمْتَ تشارك فيها بقُوَّتِكَ، وأما إذا رأيت أن تعمل على جمع المال وقرَّرت تأجيل أحلامك ولو لفترة معينة، فقد تذوي هذه القوة وتضمحلُّ، وقد تتراجع الأحلام أو تتلاشى، وقد يكون انهيار المثَل الأعلى للاشتراكية عاملًا من عوامل هذا الاضمحلال، على نحو ما ذكرت لصديقي، ولكن المجهول سيظل دائمًا قائمًا في العلاقة الحميمة بين الزوج وزوجته، سواء في حالة إبراهيم أو في حالة ابنه خليل، وهيهات أن نَنجح في النفاذ إلى الأصقاع الخبيئة في نفس أي منهما، أو نطَّلع على حقائق ارتباط كلٍّ منهما بزوجته، وما دمنا لن ننجح في ذلك أبدًا فمن التعسف أن نصدر الحكم الذي أصدره صديقي والذي يقضي بإدانة الزوجة وتحميلها المسئولية الكاملة عما حدث لإبراهيم — وربما عما يحدث الآن لخليل.

وقد يكون هذا المنهج في التفسير — الذي يعتمد على تحليل العوامل البشرية وحدها — مستمدًّا من مناهج الأدب، أو مناهج الدراما بصفة أخص، فالنقاد يجعلون مجال دراستهم — منذ عصر النهضة — نفس الإنسان، ويستخفُّون بالأعمال الأدبية (وخصوصًا الدرامية) التي تَتناول الأقدار فيما تتناول، فتتيح للمصادفة أن تلعب دورًا في الأحداث أو تفسح مجالًا أكبر مما ينبغي للظروف أي الأحوال الخارجية المحيطة بالإنسان؛ فالنقد الحديث يهتمُّ بما يُسمى عناصر الشخصية (traits of character) التي تتحكَّم في الإرادة قوةً وضعفًا، ولو أن نظريات «ما بعد الحداثة» تنكر وجود الشخصية أصلًا وتعتبر نفس الإنسان موقعًا تلتقي فيه التيارات الاجتماعية والفكرية المُتغيِّرة؛ ومن ثم

فهي تعارض الثبات وتنكر على المذاهب النقدية الراسخة اهتمامها بـ «الشخصية». ولكن الحياة تفرض علينا، مهما يكن موقفنا من فكرة الشخصية، أن نُدخِل الأقدار في حسابنا؛ فالجينوم البشري قدر، والبيئة التي لا فكاك منها قدر، ودورة الحياة قدر، والأدب الحديث يَتناول ذلك كله مثلما تناوله الأدب القديم — شاء النُّقاد أم أبوا — ولذلك فأنا أرى أن دوائر الحياة لا تكتمل صورتها حقًّا إلا حين ننظر للإنسان نظرة متكاملة، وإذا جنح الكاتب (وخصوصًا كاتب الدراما) إلى الاتكاء على بعض العوالم دون غيرها، أو إلى تأكيد بعض ملامح الصورة دون غيرها، فلغاية فنية يقصدها، وأما نحن — قُرَّاء كتاب الحياة — فلا غاية لنا إلا الفهم، ونحن نستند في محاولة الفهم إلى كل ما نشهده ونعلمه، وهو ما لا يسمح لنا أبدًا بتجاهل دور الأقدار في دورات الحياة.

لقد اكتملت إحدى الدورات في حالة إبراهيم وابنه خليل، ومن الصعب ألَّا أنسب إلى الأقدار دورًا في اكتمالها، وهي دورة بين جيلين، ولكن دورة أخرى تعيش في ذهني وتختلف ملامحها عن هذه الدورة؛ ألا وهي دورة حياة فرد واحد اسمه هنداوي، تصدى لأقداره وبدا أنه انتصر عليها، وصعدت به الدائرة إلى الذروة، ثم هبطت به إلى الحضيض، وكنت أراه في صباي وهو يجلس في المقهى المقابل لمسجد النور في رشيد، بلا أنيس أو جليس، مرتديًا حلة إفرنكية بالية، يحدق في المنضدة أو في الفضاء، ومع ذلك فقد كانت تبدو عليه آثار عز قديم، ثمَّ توحي بأنه رأى ما لم يرَ كل من حوله، وكنت أسأل عنه فلا أتلقَّى إلا إجابات مُقتضبة لا تشفي الغليل، ثم عدت في الستينيات فسمعت أنه تُوفي فأصررت على أن أعرف قصته، وعدت للسؤال بإلحاح هذه المرة فوجدت أن الحرص والحذر ما زالا يَمنعان الناس عن الإفاضة في «سيرته»، إلى أن ساقت المصادَفة إلى منزلنا السيدة «روما القلوعي» وكانت من أصدقاء الأسرة، وزوجة لجلال الجارم الموظف ببلدية رشيد، وكانت تعلم الكثير عن الجميع، فاجتهدتُ حتى جعلتها تحكي لي قصة هنداوي، وعملتُ بعد ذلك على استكمال الفجوات في القصة من بعض كبار السن الذين كانوا لا يَلتزمون بالتسلسُل الزمني في روايتهم، لكنَّني تمكنت آخر الأمر من تجميع الأجزاء في سياق شبه كامل، ووضعت على الورق ما يشبه القصة الكاملة، واحتفظت بها سنوات طويلة فيما احتفظت به من أوراق في حقيبتي التي كنت قد تركتها في مصر طيلة سنوات الغربة، وكنت أطَّلع عليها من حين لآخر في غضون اختياري لنماذج أوَّلية لبعض مسرحياتي، لكنَّني لم أوفَّق حتى الآن في وضعها على المسرح أو استلهامها، بل إنني لم

أجد لها مكانًا في واحاتي السابقة وها أنا ذا أحكيها باعتبارها مثالًا لدورة من الدورات التي تزخر بها الحياة.

يختلف الرواة حول عُمْر هنداوي، ولكنَّهم يتَّفقون على أنه كان كبير السن دائمًا بمعنى أنهم لا يذكرون متى كان شابًّا، وضرب لي أحدهم المثل بالمرحوم عبد الوارث عسر، الممثل الذي كان يلعب دائمًا دور الرجل الهَرِم — أو على الأقل منذ ظهور السينما في الثلاثينيات وعلى امتداد نصف قرن تقريبًا، وحدست أن هنداوي قد ولد في أواخر القرن التاسع عشر، وكان شعره الأشقر يخفي الشيب، ووجهه الأحمر يخفي غضونًا عميقة، وكان ضخم الجرم عظيم الهامة بطيء الحركة، وكان يتفاخر في شبابه بأنه سليل أسرة تركية تخلَّى مؤسسها عن لقبِه التركي بعد استقراره في رشيد وهو في طريق عودته من حج بيت الله الحرام، وبعد أن أنشأ تجارته الرابحة في العطور والتوابل الهندية؛ ومن ثم أطلق عليه لقب «هنداوي». ويتَّفق الرواة في ذلك كله، وإن كان من العسير التحقُّق من صدق بعض ما يروى، مثل قصة كراماته؛ إذ قال لي الشيخ عبد المحسن عرفة — شيخ مسجد أبي النظر (أبو مندور) الذي يقع على شاطئ النيل جنوبي رشيد ويَبعُد عدة كيلومترات عنها — إنه لن ينسى «بركات» هنداوي، و«الكرامة» التي أبداها حين كشف لأهل البلد عن بئر مُغلَقة مهجورة، فاهتدوا إليها وأعادوا استغلالها فكانت خيرًا وبركة على المصلِّين في المسجد، وقال لي حسن باشا (والد توفيق زميلي في المدرسة) وصاحب مقهى باشا الشهير إنَّ رشيد نجت من قنابل الحرب العالمية الثانية بسبب كرامات «هنداوي». وعلى أيِّ حال، فقد كان الجميع يتَّفقون على الكثير مما يسهل تصديقه، ولذلك فسوف أحاول التركيز على ما يبدو من الحقائق وإغفال ما جعله الخيال شبه أسطوري.

نشأ هنداوي في الفترة التي سبقت قيام الحرب العالَمية الأولى، وكان من النادر آنذاك أن يُغادر رشيد أحدًا طلبًا للعلم، ولكن الصبي كان طموحًا فغادَرها والتحق بمدرسة المعلمين العليا بعد تميزه في الدراسة بمعهد أزهري، وكان يدرس الرياضيات ويهواها فترك مهنة التعليم بعد تخرُّجه والتحق بعمل «فني» هو إمساك الدفاتر لشركة أجنبية في الإسكندرية، وسرعان ما أصبح مضرب الأمثال في دقة حساباته وبراعته في التخاطُب باللغات الأجنبية (ولا بد أن المقصود بها الفرنسية أو الإنجليزية أو اللغتان معًا) فازدهرت أحواله وبنى لنفسه قصرًا في ضاحية فكتوريا (ولا بدَّ أن «القصر» كان «فيلا» بلغة اليوم) وعندما سمع به طلعت حرب باشا عيَّنه مديرًا لفرع من فروع بنك مصر، لكنَّه ظلَّ على صلته القديمة بمسقط رأسه رشيد، فكان من أوائل من امتلكُوا سيارة حديثة يَنتقِل بها

بين منزله القديم في رشيد وقصره في فكتوريا بالإسكندرية، وقيل لي إنهم كانوا يسمُّونه «البيك» دون أن يحصل على «البكوية»، وعندما أُنشئ بنك التسليف الزراعي بالإسكندرية، عُيِّنَ مديرًا له، فبدأ ارتقاؤه سُلَّم الشهرة.

والمؤكد أن ذلك كان في فترة ما بين الحربين، فالرواة يقرنون أحداث تلك الفترة بأحداث عالَمية وقعت آنذاك مثل بزوغ نجم «هتلر» والأزمات الأوروبية المصاحبة لذلك، ويتحدَّثون عن عبقرية هنداوي الفذة التي تجلَّت في ذاكرته الخارقة، فلم يكن يحتاج إلى كراسة وقلم، بل كان يذكر كم أقرض البنك عملاءه، تفصيلًا وتحديدًا، ويذكر الأسماء والتواريخ، فأحبَّه الناس، ووثقوا به، وكانوا يتطلعون إلى زيارته لرشيد حتى يعرضوا عليه شئونهم، فلم يكن يرد طالبًا أو محتاجًا، بل رُويت عنه روايات تدل على كرم عجيب وسماحة نفس لا يوحي بها مظهره؛ إذ كان كتومًا لا يحب الكلام، ولم يفصح لأحد في رشيد عن تفاصيل حياته العملية أو العائلية في الإسكندرية، ولكن أحدًا لم يهتمَّ بذلك، وكان الخيال يرسم في أذهان الناس الصور التي يُريدونها له، فبعضهم يُصوِّره في صورة مليونير مثل عبود باشا، وبعضهم يصوره في صورة «شيخ له كرامات»، وبعضهم يقول إنه من الأسرة المَلَكية، وقال لي أحد الرواة ممَّن أثق في رجاحة عقلهم إن أحدًا لم يستطع التحقُّق من طبيعة عمل «هنداوي» وحياته في الإسكندرية، لكن الجميع كانوا يقرُّون بفضلِه على أهل البلدة؛ فمُعظمُهم مُزارعون أو يعملون بحرف متَّصلة بالزراعة، ويَندُر بينهم من لا يحتاج إلى بنك التسليف الزراعي الذي افتُتح له فرع في رشيد، بجوار مقر البوسطة (البريد) وأُنشئت بجواره «شونة» كبيرة لتشوين (تخزين) التقاوي (البذور) والأسمدة والمبيدات وما إلى ذلك بسبيل، وكانت «سُمعة» هنداوي باعتباره رجل الخير قد ثبتت في قلوب أهل البلدة قبل أن تثبت في عقولهم؛ ومن ثم كان الذهول الذي تلقَّى به الجميع نبأ القبض عليه وإيداعه السجن بتهمة الاختلاس.

ومثلما أحاط الغموض بحياة هنداوي في الإسكندرية، أحاط الغموض والدهشة وما يقرب من الاستنكار بتفاصيل الجريمة المنسوبة إليه، وكان النبأ قد أذيع في خضمِّ أنباء الحرب العالَمية، فلم يشغل الكثيرون أنفسهم به، خصوصًا حين اقتربت جيوش ألمانيا من الإسكندرية، وانتقل كثيرون من أهلها إلى الإقامة في رشيد تحسبًا للعواقب كما انتقلت إلى منزلنا أسرة خالي الدكتور محمد علي بدر الدين (من القاهرة) ووجد أهل البلد في مُشكلات ما يسمى بـ «الهجار» (وهو ما أشرت إليه في واحات العمر) ما يُلهيهم عن مشكلات أفراد مثل هنداوي أو غيره. وقال لي أحد الرواة إنه واثق أن تلك التُّهمة ظالمة، وأن هنداوي

من المحال أن يمد يده إلى «المال الحرام» فهو رجل «يعرف ربنا»، والأرجح أن التهمة قد لفَّقها له أعداؤه، ومَن يدري — قال لي — لعلَّ عذاب السجن تكفير عما لا نعلم من سيئات، ومحنة من الله يبتلي بها عباده المؤمنين!

ولا أعرف كم من السنين قضاها هنداوي في السجن، لكنه عندما خرج كان قد أصبح شيخًا مهدمًا، فباع الفيلا وعاد إلى رشيد ليُقيم فيها بصفة دائمة، وكان يقضي أيامه بين المسجد والمقهى، شارد النظرات، لا يكاد يعرفه أحد ولا يكاد يعرف أحدًا، وعندما كنتُ أراه في مطلع الخمسينيات وأنا ذاهب إلى المدرسة أو خارج منها (فهي تُجاور مسجد النور المذكور) كنت أقف لأتطلع إلى الرجل الذي يُمثِّل أيام العز الغاربة، وكنت أحيانًا أطيل التأمُّل والكلمات تتردد في أعماقي حتى نظمت بعض الأبيات التي قد تكون السبب في الإيحاء لي بفكرة الدائرة، وقد تكون السبب في تذكر هذه الحادثة دون سواها بسبب الخلافات التي نشبت بشأنها وهي:

قل كيف دار به الزمان وأقفرت أيامُهْ
وتكاثرت سحب الهموم وبُدِّدَتْ أحلامُهْ
فقد الكلام فلا تسلني كيف ضاع كلامُهْ
أتراه يبكي مجده المسلوب أم يبكي عليه غمامُهْ؟
أتراه ينظر في الغد المجهول سجنًا لا يحول ظلامُهْ؟

وما زلت أذكر كيف كنتُ سعيدًا بهذه الأبيات؛ فقد كنت صبيًّا أروض الشعر وأفرح بنظم الكلام، فعرضت الأبيات على زميلي خميس سعد خضر، فقال لي إنَّ «ينظر» ضعيفة والأفضل أن تقول «يُبصر» فقلت له إنني أقصد بالنظر الانتظار، فقال إنَّ هذا لا يجوز وسمِعَنَا زميلُنا محمود نجيب عبد الحليم فأيَّدني بشواهد من القرآن (إذ كان يحفظه) لكنه عندما قرأ الآية ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الأعراف: ١٤) رد خميس قائلًا: إن معناها أَمهِلني أو أخِّر عذابي، فقلت له إنَّ قراد بن أجدع يقول:

فإن يكُ ظهر هذا اليوم ولَّى فإن غدًا لناظره قريبُ

وهو البيت المشهور في القصة التي قصها عليَّ والدي — رحمه الله — واستقاها من كتاب **مجمع الأمثال** للميداني (وقد قُدِّر لي فيما بعد أن أنشر مختارات منه في مكتبة الأسرة)، ولما اشتدَّ الخلاف احتكمنا إلى مدرس اللغة العربية الأستاذ علي الخياط

(الذي غيَّر اسمه إلى الرشيدي) فضحك وقال إنَّ بالأبيات عيوبًا أخطر، وهي عيوبٌ عروضية؛ فالبيتان الأخيران يتكوَّن كلٌّ منهما من خمس تفعيلات وذلك لا يجوز، كما قال إنني أستخدم ألوانًا مختلفة من الزحاف والعلل (القطع؛ أي حذف آخر الوتد المجموع مع إسكان ما قبله في ضرب البيتين الأولين، مع الإضمار؛ أي تسكين الثاني المتحرك، ثم التحوُّل إلى ضرب مجزوء، والضرب هو آخر تفعيلة في البيت، ومقطوع في الأبيات الثلاثة التالية) وهذا في رأيه لا يجوز، وقلت له إنَّ الإضمار نوع من أنواع الزحاف ولا ضرورة للالتزام به في سائر الأبيات وأنا ألتزم بعلَّة القطع في الأبيات الخمسة جميعًا، لكنه نهرني فسكتُّ رحمه الله رحمة واسعة، فقد سمعتُ أنه توفي، ولكن تلك المناقشة ثبَّتت الأبيات في ذاكرتي، فسجَّلتها في بعض ما سجلت من نَظمِ الصِّبا، وكنت فرحًا بتصوير القبر في صورة السجن، وبصورة «يبكي عليه غمامُه» مع ما يبدو لي الآن من شيوع هذه الصور والمعاني.

قلت إنني حاولت أن أجد مكانًا لهنداوي في إحدى مسرحياتي لكنني فشلت، وما زالت صورته التي ارتسمت في ذهني قائمة دليلًا على دورة الزمان العجيبة، وهي تزداد رسوخًا بسبب ما أحاط بحادثة السجن من ألغاز، وبما أحاط بالرجل نفسه من أساطير، ولكن العودة إلى البلدة بعد الازدهار في المدينة في عصر التحولات الحضارية الحديثة ما زالت تمثل لي دائرة من نوع خاص؛ فهي دائرة العودة إلى الأرض — إلى «الأم الرءوم» كما يُسمُّونها — ولقد اختفى فيها سِرُّه وانطوت فيها حقبةٌ كاملة من تاريخ مصر، فلا شك أننا لو نبشنا حياة هنداوي في الإسكندرية (وفي فيكتوريا) لخرجنا بأسرار ممتعة عن الشركات الأجنبية والاحتلال الأجنبي ونشأة الرأسمالية التجارية المصرية، ولاطَّلعنا على طرائق عمل بنك التسليف الزراعي في أول عهده، ولعرفنا وجوه إنفاق ما اختلسه هنداوي من مال إن صحَّ أنه اختلس مالًا، فلقد جعلني حديث الحاج «محمد شبابو» — رحمه الله — عندما سألته عن ذلك أعيد النظر فيما رواه الآخرون؛ إذ قال لي ما موجزه إن هنداوي مات معدمًا أو شبه معدم، ولم يكن يملك حين دخل السجن سوى الفيلا التي بناها «طوبة طوبة» و«من عرق جبينه» في مستهلِّ حياته العمَلية، وذكرت أيضًا ما قيل لي عن ذاكرته التي كانت تَختزن الأرقام والأسماء، ورأيت من العجيب في أعمال البنوك الاعتماد على الذاكرة، فهي خئون، وهمس لي هامس أفلا يجوز أن الخطأ الحسابي الذي «كيَّفه» المحقِّق على أنه اختلاس يرجع في الحقيقة إلى زلل في الذاكرة؟ ولو صحَّ أنه اختلَس المال حقًّا فأين ترى ذهب ذلك المال؟ وفي أي الوجوه أنفقه؟

هذا الغموض الذي يُحيط بالقضية يبتعد بتصنيف القصة عن نمط الحادثة ويدخلها في عداد «الأنماط القدرية»، فالرجل كافح واغتنى وبرَّ أبناء بلده، وشاع عنه من أعمال الخير ما جعله يكتسب أبعادًا أسطورية؛ فالعودة هي آخر نقطة في مسار الدائرة التي ندور فيها على هذه الأرض، ولكن الدائرة — تعريفًا — لا تتوقَّف، فهو ما يزال يعيش في وجداني ووجدان بعض الأحياء، بل إن الدائرة قد تتجاوز التربة التي نعود إليها ويختلط رفاتنا بها، وقد تكتسب في عين الشاعر حركة ووجودًا من نوع جديد، يؤكد صورة الدوران والدائرة الدائمة، على نحو ما صوَّره الشاعر وردزورث في إحدى القصائد التي يَرثي بها فتاة خيالية اسمها «لوسي»، وهي القصيدة التي يُسمِّيها النقاد «الرثاء الرفيع» (Sublime Epitaph)، وقد ترجمتها إلى العربية نظمًا بمزيج من بحري البسيط والكامل — بالتناوب — بزحافاتهما وعِلَلهما، وأهم الزحافات الخبن والوقص، وأهم العلل الحذف، وها هو النص الإنجليزي وترجمته العربية:

A slumber did my spirit seal,
I had no human fears;
She seemed a thing that could not feel
The touch of earthly years.
No motion has she now, no force;
She neither hears nor sees,
Rolled round in earth’s diurnal course,
With rocks and stones and trees.

ران النعاس على روحي وغيَّبها،
فمَحا مخاوفَ البشرِ.
كانت بعيني فتاة ليس تلمسُها؛
يد السنين والقدرِ.
فالآن قد سكنت، والقوة اندثَرت،
ومضى زمان السمع والبصرِ.
باتت تدور ببطن الأرض دورتها،
في صحبة الصخر والأحجار والشجر.

٤

والدائرة تمثل نموذجًا للحركة في الأعمال الأدبية والفنية وتياراتها، مثلما تمثل نموذجًا يصعب تجاهله في حياة الإنسان، وهو نموذج لا للحلقة الهندسية المُحكَمة فقط (circle) بل لأيِّ دورة (cycle أو circuit) ولو تفاوتت أبعاد (أي أطوال) أقطارها، وقديمًا تعلَّمنا في الهندسة ما يُسمى بالقطع المخروطي (conic section) والمخروط هو الشكل الهرمي الذي استدارت جوانبه فأصبحت له قمة مدببة وقاعدة مستديرة، فإذا أخذنا قطاعًا أي قَطْعًا موازيًا للقاعدة أصبحت لدينا دائرة محكمة، فإذا كان القطع مائلًا أي غير موازٍ للقاعدة أصبح بيضيًّا (بيضاويًّا) وهو ما نسميه (ellipse) فإذا كان القطع يقوم على القاعدة ويَميل عنها — يمنةً أو يسرةً أصبح قطعًا ناقصًا قائمًا أو مائلًا (أي parabola أو hyperbola) والأصل في ذلك كله هو التقوُّس أو شكل القوس، وقد اهتدى علماء الفلك منذ كبلر (Kepler) في مطلع القرن السابع عشر، بل منذ كوبرنيق (Copernicus) ابن القرن السادس عشر، إلى الحركة الدائرية للكواكب، وانتهَوا اليوم إلى أنها تدور في دوائر ناقصة (elliptical) يتفاوَت فيها بُعد المسار عن المركز (focus) فتُصبح منبعجة أي أقرب إلى الشكل البيضي، كما أننا قد نغفل عن هذا الشكل في تفسيرنا لكثير من حقائق الحياة فإذا اكتشفناه اهتدينا وفهمنا، وهذا ما حدث عندما اكتشف العالِمان البريطانيان الشكل الحلزوني أي الشكل الذي يتكون من دوائر متصلة صاعدة (spiral) الذي تتَّخذه حروف لغة الحياة داخل الخلية البشرية، ففازا بجائزة نوبل عام ١٩٦٦م، وقد وجدت من تأمُّلي للحياة وللأدب الذي يُصوِّر الحياة أن شكل الحلزون هو أقرب الأشكال التي تعتمد على الدوران وتستطيع تفسير ما لا نفهمه من أحداث، وربما تأثَّرت في ذلك بنظرية هيجل — الفيلسوف الألماني — عن القضية والنقيض والتركيب (Thesis, antithesis and synthesis)، واستفدتُ بهذه النظرية في تحليل قصيدة طويلة للشاعر وردزورث لم يَنشرها في حياته بل أدرج أبياتها في قصيدة **المقدمة The Prelude**، ولقد قمتُ بتحقيق مخطوطات هذه القصيدة (كما سبق لي أن ذكرت في الأجزاء السابقة من واحات العمر) ونَشرِها عام ١٩٨١م وأسميتها «المقدمة الصغيرة» **The Little Prelude** وجعلت للكتاب عنوانًا يدلُّ على ما جاء في المقدمة وهو «جدلية الذاكرة» (**The Dialectic of Memory**) ويتلخَّص ما ذهبت إليه في أن بناء الصور في القصيدة (التي تقع في نحو تسعمائة بيت) يعتمد على الحركة الدائبة بين شيء ما ونقيضه، بحيث ينتج من هذه الحركة أو هذا «الجدل» شيء جديد يمكن اعتباره مُركبًا منهما (التركيب) ولا يلبث هذا

المُركب أن يُصبح فكرة جديدة أو صورة جديدة تمثل ما يسميه هيجل بالقضية، فإذا تبلور هذا الجديد برز له نقيض، ثم اشتبك معه فنشأ منهما تركيب جديد، لا يلبث أن يصبح قضية بدوره تستدعي نقيضًا جديدًا وتركيبًا جديدًا، وهكذا دواليك. أي إنَّ الحركة الدائبة هنا حركة دائرية قد تكون صاعدة أو هابطة، ولكن الدوران هو عنصرها الأول.

وقد وجدت فيما قرأت من الشعر العربي نماذج للبناء الجدلي، أي البناء القائم على الحركة الدائبة بين الشيء ونقيضه والتركيب منهما، وقد درجنا على إطلاق صفة «البناء الدرامي» على هذا النوع من البناء؛ لأنَّ الدراما أوضح الفنون الجدلية، وقد نُبسِّط الأمور فنطلق على الجدل تعبير «الصراع» الذي قد يُوحي بالقتال، ترجمةً لأحد معاني كلمة conflict — فمن معانيها الأخرى التنازع أو التضارب (كما في قولك conflicting reports أي أنباء مُتضاربة أو conflicting opinions أي آراء متناقضة) والمعنى ليس عسيرًا على الإدراك — مهما يكن تفسيرنا له، فنحن نواجه في كل عمل درامي مجموعة من القوى التي ما تفتأ تشتبك وتتنازع السيطرة فإذا انتهى التنازع (أو الصراع) بالموت، على نحو ما نرى في الأعمال الكلاسيكية، قُلنا إنها مأساة (أي تراجيديا)، وإذا انتهى بالتصالُح والتوافُق والتناغُم قلنا إنها ملهاة (أي كوميديا) والمصطلحان العربيان من وضع الدكتور محمد مندور، ولقد شاعا حتى اكتسبا دلالات المصطلحين الأجنبيَين، وإن كان البعض لا يزال يستخدم الكلمتَين الأجنبيتين المعربتين، والبعض يطلق على المأساة صفة «الفاجعة»، ويعاف البعض مصطلح «الملهاة» لما توحي به من اللهو، ولكنني أقصد من إيراد هذه وتلك أن أشير إلى أن التنازع لا ينجح في أيٍّ منهما إلا إذا كانت القوى التي تُسيِّر الأحداث مُتكافئة إلى الحد الذي يسمح بنشوء جدلية تؤكد صورة الدورة، ولذلك نجد أن الصراع الكلاسيكي تسير خطوطُه الصاعدة في دوائرَ صغيرةٍ أو حلقات يمر مركزها بالدائرة الكبيرة (epicycles) فإذا وصَل المسار إلى الذروة فقد يَلتقي مركز إحدى هذه الحلقات بمركز الدائرة الثابتة فنرى ما نُسمِّيه النهاية، وقد تكون هذه الحلقات ذات مسارات متداخلة أو متقاطعة، وقد تكون مُنفصِلة على نحو ما نشهد في بعض الأعمال الدرامية التي تتضمَّن عدة أحداث تبدو وكأنما تسير في حلقات منفصلة، في حين أن أقواس محيطها (epicycloids) مُتماسَّة مما يتيح الاشتباك آخر الأمر.

ويُفسر أنصار مدرسة البنيوية في النقد الأدبي (structuralism) وجود هذه الدوائر على أساس التضاد الثنائي أي (binary opposition) بمعنى وجود قوتين لا أكثر تَنْتُجُ

الحركة من تضادهما، ولكنني أفضل صورة الدائرة الجدلية فهي التي تستطيع إيضاح التغير في معنى القوة الدافعة أو الفاعلة من دائرة إلى دائرة، ولو كانت القوى ثابتة كما يقول البنيويون لما تقدم الحدث الدرامي قَيْد أُنملة، حتى في الكوميديا أو كوميديا الأقنعة التي لا تتغيَّر فيها القوى إلا تغيرًا طفيفًا، والمثال الحاضر على ما أقول مسرحية ماكبث لشكسبير؛ فالشاعر العظيم يقدم لنا أول دائرة صغيرة في شخص ماكبث وبانكو، فهما قائدان ظافران، يعودان من معركة انتصَرا فيها على بعض المتمرِّدين على سلطان ملك اسكتلندا (دَنْكان الطيب) ويجسد لنا شيكسبير القوتين اللتين تبدآن الحدث في هذه الدائرة في صورة العرافات أو الساحرات الثلاث اللائي يُمثِّلن ما يعتمل في منطقة ما من مناطق اللاوعي عند ماكبث، وهذا التجسيد حيلة مسرحية فنية قديمة ومألوفة، وهكذا فهو يجعل أولى قضايا الجدلية الدرامية قضية الولاء للملك، ويجعل نقيضها نازع الطموح وأحلام تولِّي العرش، وتتقاطع مع هذه الدائرة دائرة صُغرى هي دائرة النظام والخلل، أي منطق الصحة ومنطق المرض، وعندما تتحقَّق أولى نبوءات العرافات بتولي ماكبث إمارة مقاطعة «كاودور» ينشأ التركيب في الجدلية الأولى؛ ألا وهو الدافع الواضح على تولي المُلك، وهو تركيب لأنه يتضمَّن في أعطافه نوازع تأنيب الضمير والاستراتبة بعواقب الطموح الجائح، وتبدأ دائرة أخرى تحيي دائرة النظام والخلل عندما يلتقي التركيب الجديد بما يؤدي إلى غلبة دافع الطموح، وهو الذي يجعله شيكسبير مُمثَّلًا في زوجة ماكبث، إذ يبدأ مسار الخلل، ويُقْدِم ماكبث على الخيانة وقتل الملك الذي حلَّ ضيفًا عليه، فتَكتمل الدائرة الثانية، ولكنها تُصبح نفسها تركيبًا جديدًا، فتولي ماكبث عرش اسكتلندا يُولِّد نقيضًا هو يقظة ضميره وإحساسه ببشاعة الجرم، ومن التنازع بين هاتين القوتين — قوة الدافع وقوة النفس الخاطئة — ينشأ تركيب جديد يدفع بالملك الجديد إلى ارتكاب المزيد من القتل، في حين يظلُّ إحساسه بالندم والعار قائمًا، فيتشكَّل في صورة قوة جديدة هي الخوف! ولا أريد أن أفيض في تحليل المسرحية؛ فهي ليست موضوعي هنا، وأعتقد أن ما ذكرته يكفي لتبيان جمال هذا التناجز بين القوى وتحولاتها، فالقوى تؤدِّي إلى أفعال، والأفعال تُغيِّر من طبيعة القوى حتى لكأنَّها قوى جديدة تدخل الساحة، وهكذا تفضي دائرة إلى دائرة، في مسارات مُتداخِلة، بعضها صاعد وبعضها هابط، إلى أن نصل إلى ما نسميه بالنهاية من باب المجاز، فما هو إلا نهاية حلقة من الحلقات. ولهذا السبب يَعتبر النقاد مسرحية ماكبث من أنجح مسرحيات شيكسبير إن لم تكن أنجحها على الإطلاق، وأعني بالسبب أنَّ جدلية الحدث المسرحي تنجم عن التغيُّرات والتحولات (mutations) في طبيعة القوى

الدافعة وأشكال ما تؤدِّي إليه من أفعال، وذلك — بطبيعة الحال — إلى جانب الشعر الرائع الذي كتَبَه ذلك العبقري على ألسنة شخوص المسرحية.

فإذا طبَّقْنا نظرية البناء الدائري (cyclic structure) على بعض الأعمال الأدبية وجدنا أنه يعني — في معظم الأحوال — بناءً دراميًّا قد يتكوَّن من دائرة واحدة وقد يتكوَّن من دوائر يفضي بعضها إلى بعض، وقد تتداخل وقد تتقاطع، حتى في الأنواع الأدبية التي نعتبرها — وفق التصنيف التقليدي — أنواعًا غير درامية مثل الشعر الغنائي، أي الشعر الذي يتحدث فيه الشاعر بصوته المميز الخاص به مباشرةً إلينا أي على لسانه هو، لا على لسان شخصية أخرى، أي لا بلسان قناع (persona) أو بألسنة عدة شخصيات، وهو ما يحدث في الدراما. وأبرز نماذجه التي حللتها في العربية بعض أشعار صلاح عبد الصبور، ومعظم أشعار فاروق شوشة، فكلاهما من أساتذة البناء الدائري، وهما يتوسَّلان — أحيانًا — بأقنعة تخفي بعض المسارات الدائرية أو تظهرها، وقد حللت قصيدة عبد الصبور «أغنية إلى القاهرة» في كتابي **الأدب وفنونه** (بالعربية) وقصائد كثيرة لشوشة في الدواوين الثلاثة التي ترجمتها له [**لغة من دم العاشقين، وقت لاقتناص الوقت، وجه أبنوسي**] (بالإنجليزية) وقد وجدتُ أن كلًّا منهما يستعين بالأقنعة في هذا البناء، وإن كانت بعض هذه الأقنعة نفسها تتخفى على القارئ. والإحساس بالدورة — في رأيي — من الأحاسيس التي يهتدي إليها الشاعر في غمار الحَدسِ الشعري (poetic intuition) مهما يكن من ثبات معاني الصور الأساسية في ذهنه، وقد يلجأ بعض كبار الشعراء إلى تأكيد هذا الإحساس باستخدام قرار (refrain) أي سطر أو سطرَين يتكرَّران بين كل دورة والدورة التي تليها، مثلما يفعل إليوت (Eliot) في «بروفروك» (Prufrock) وباوند (Pound) في بعض أناشيده (Cantos)، وقد يلجأ إلى تكرار صورة أو كلمة تُؤدِّي دور الواسطة التي تربط بين الحلقات أو تصل الأقواس المتقاطعة بعضها بالبعض، مثلما يفعل كولريدج (Coleridge) في كريستابل (Christabel) ووردزورث في «خاطرات الخلود» (The Immortality Ode)، وقد يَعتمِد بعضهم على الإيقاع الموحي بالدورات مثلما يفعل ديلان توماس (Dylan Thomas) في شعره القصصي، وأكاد أجزم بأن البناء الدرامي يبلغ أعلى ذروة له حين تتداخَل هذه الدورات فلا يكاد القارئ أن يشعر بها، إذ يجد أن خيوط الفكرة أو الصورة (أي الثيمات) قد تغيرت دون أن يلحظ، وأنَّ الشاعر يسير به في دورات ترجع به إلى نقطة ما من نقط البداية، وتكاد أن تعده ببداية جديدة، حتى في الشعر الغنائي كما قلت، ولا أدلَّ على ذلك من قصيدة تنيسون (Tennyson) الطويلة

للذكرى (**In Memoriam**)؛ فهي تتكوَّن — صوريًّا — من قصائد غنائية منفصلة في رثاء صديقه الصدوق آرثر هالام، ولكنها تتكون نسجًا وفنًّا ودلالةً من حلقات تأمل شعرية متداخلة، لا تستطيع أن ترصد لها بداية ولا نهاية.

ونحن نتعلم ذلك من الأدب مثلَما نتعلَّمه من الحياة، وما القصص التي رويتها عن أصدقاء صاحبتهم سنينًا وانفصلَت عنهم سنينًا إلا نماذج لذلك التداخل بين الدوائر والاستمرار فيها، فدائرة إبراهيم تلتقِي مع دائرة زوجته، والدائرتان بقُواهما المتصارعة (أو المتنازعة) يُفضيان إلى دائرة ثالثة هي دائرة خليل، والقوة الكامِنة فيها والتي تعتبر «التركيب» الناجم عن قوى الدائرتين السابقتَين، تلتقي بقوة التديُّن في صورته المعاصِرة، وهو الذي صرف خليل عن مواصلة تعليمه، ولكن إحدى القوى التي انتهت إليه من إحدى الدوائر السابقة تلقيه على الزوجة التي يصفها صديقي بأوصاف تتناقض كل التناقض مع أوصاف والدته حين أحبها والده وتزوَّجها، فإذا بدائرة جديدة تنشأ ويعلم الله كيف ستَنتهي، ومهما تكن صورة «انتهائها» فهي لا بد مفضية إلى دوائر أخرى، وما يقال عن هذه القصة يمكن أن يقال عن أي قصة، ولكننا أحيانًا ما نَفتقِر إلى الحقائق التي تُنير لنا السبيل أو توضح لنا مسار تلك الدوائر، وأحيانًا ما يتوقَّف الناظر عند مشهد يشده ويستولي على ذهنه فيصرف بصره عما يشتبك معه ويَرسم موقعه ومساره على دائرة من الدوائر! وكثيرًا ما كنت أقول في نفسي ليتني كنت كاتبًا روائيًّا حتى أطلق لخيالي العنان فأملأ الفجوات التي تحُول دون إدراك تفاصيل دورة القدر الكبرى التي انتهت بهنداوي إلى ذلك الكرسي في المقهى المواجه للمسجد! ليتَني كنتُ قادرًا على متابعة حياته منذ مولده في القرن التاسع عشر — فنحن لا نَعرف إلا أن أسرته قد تفرقت في صباه واستقر أفرادها في الإسكندرية وغيرها من المدن، فما الذي كان يشدُّه إلى رشيد ويجعله يحتفظ بمسكن الأسرة القديم بل ويكثر من زيارته تاركًا القصر الذي يَعيش فيه في فكتوريا؟ ترى ما الذي كان يشده إلى حي بحري في رشيد ويدفعه إلى هذا الانتماء النادر؟ ترى هل تزوَّج وهل أنجب؟ وهل أنفق كل ما يكسبه في وجوه الخير حتى أصبح معدمًا أو شبه معدم — كما قال لي الحاج محمد شبابو؟ لا بد أن حياة هنداوي حافلة بالدوائر الناقصة وما أكبر الإغراء الذي تُمثِّله للروائي! ولقد سبق لي أن قلت إنني لم أجد مكانًا له في أي من مسرحياتي، إذ ما زال هنداوي صورةً تكتسي من جمال الشعر أكثر مما تكتسي من صراع الدراما، ويبدو أن يد القدر قد تدخلت هنا بأكثر مما هو «مسموح به» في الدراما.

٥

أحيانًا ما تبدو دوائر القدر محكمة دقيقة، وأحيانًا ما تبدو وكأنما تسير بلا منطق ولا غاية، وكان الرومان يصورون القدر في صورة عجلة (تُسمى The Wheel of Fortune) تديرها فتاة معصوبة العينين، وهي عجَلة دائمة الدوران لا يعلو فيها أحد حتى يهبط؛ وذلك مُستقًى — بطبيعة الحال — من حياة الإنسان الفرد وهو ما كان الإمام الشافعي يَعنيه بالبيت المشهور: (ما طار طير وارتفع. إلا كما طار وقَع)، ويُطبِّقه المفكرون على ما يتجاوز الأفراد أو حال الإنسان الفرد، أي ما قد ينطبق على الجماعة أو على نظام الحكم، فالدورة تأتي بدولة، والإبدال واضح بين الكلمتين، أي إبدال الراء لامًا، وكذلك بين دار وثار، وكلمة (revolution) تَعني الدورة مثلما تعني الثورة، والإبدال واضح بين دال وزال، فالدولة تدول أي تزول، وبين دال وحال، فما يدور يحول، ومعنى هذا كله أن الدورة تعني التغيير لا العودة إلى أيِّ نقطة من نقط البداية — كما سبق أن ذكرت — وأن ذلك عميق الجذور في الفكر الإنساني، ويُورد ابن هشام في سيرته حادثة التشابك بالأيدي مع لبيد الشاعر المخضرم المعمَّر الذي أنشد بيته المشهور:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ وكلُّ نعيم لا محالة زائلُ

فوافقه أحد الحاضرين ممَّن اعتنقُوا الإسلام على ما في الشطر الأول، لكنه اعترض على ما جاء في الشطر الثاني قائلًا: «إلا نعيم الله فإنه لا يزول أبدًا» وهي حادثة طريفة كان من نتيجتها أن «اخضرَّت عينه»؛ أي إنه تلقَّى لكمة على العين أحدثت كدمة "black eye" وهي تذكرنا بأن فكرة الدوام كانت جديدة إلى حدٍّ ما على أذهان بعض العرب حينذاك، مثلما كانت غريبة على المسيحيين الأوائل؛ إذ يروي الرواة أن الإمبراطور قسطنطين، أول إمبراطور روماني يَعتنق المسيحية ويجعلها الدين الرسمي للإمبراطورية، شعر بالندم بعد أن قتَل بعض أفراد أسرته فلجأ إلى كبير الكهنة في قصره يسأله ما العمل، فاقترح عليه الكاهن أن يغسل ذنوبه بماء العماد ويرتدي أثوابًا بيضاء؛ فهي أثواب التوبة الأبدية، ويقول الرواة: إنَّ فكرة الأبدية أذهلت الإمبراطور فصمت لحظات ثم عاد يسأله عن معناها، فقال الكاهن: إنَّ معناها عسير على ذهن الإنسان الفاني والأجدر به أن يقبلها ولو دون فهم، وأضاف قائلًا: إنَّ من معاني الكلمة «ألا تدور عليك الدوائر» وقد توقفت عند التعبير لأنه يشبه الاستعمال العربي، والصور العربية للدائرة (يتربص به الدوائر — دارت عليه الدائرة — بل والتعبير العامي، دارت الأيام عليك).

وقد مررت في حياتي بحالاتٍ عَجَز الإنسان فيها عن الخروج من الدائرة، وكان ذلك أحيانًا بلا منطق مفهوم — أي بمنطق لا يستطيع الإنسان أن يخضعه لقواعد التفكير المكتسبة — وأقربها ما حدث لرجل أعرفه وسأُطلق عليه هنا صفة الصديق وحسب، وكان قد مرَّ في فترة اليفوع والشباب الأول بما يُشبه ما مرَّ به صاحبي الذي أخفيت اسمه (وأنا أتحدَّث عمَّن تَنبَّه لوجود القناع فانتزعه) فلقد كافح هذا «الصديق» أيضًا حتى حصل على الثانوية العامة مع طلبة المنازل، وانتسَب إلى كلية نظرية، ولم يرضَ أن يَقضي حياته مغمورًا في وظيفة كتابية بمصلحة حكومية أو شبه حكومية فسافر إلى بلد عربي شقيق لكنَّه لم يكن موظفًا بل شارك أحد أبنائها في تجارة لم تلبث أن ازدهرت، وكنت لا أراه إلا في العطلات في أواخر السبعينيات، وما أكثر ما كنت أفرح وأبتهج وهو يُحدثني بجذل طفولي محبَّب عن المشروعات التي يقومان بها، وكان قد أخفى تمامًا مبادئه الاشتراكية القديمة عن الجميع (مثل صاحبنا)، وأصبح يجدُ لذة غامرة في السفر مع شريكه العربي المخلص في طائرته الخاصة إلى بعض أملاك هذا الشريك في أوروبا، وقال لي ذات يوم إنه يدعُوني للسفر معهما؛ فضحكت وقلت له: إنَّ السفر بهذه الطريقة يحرم الإنسان لذة الإحساس بالسفر، فإجراءات الجوازات والجمارك والخروج من المطار مع المسافرين طقوس تُشعر الإنسان بالانتقال إلى بلد آخر، فدهش وقال «إنت بقيت غاوي فقر؟» فضحكت ولم أجد ردًّا.

وقرأتُ ذات يوم في مُنتصَف الثمانينيات نعيَ الشريك العربي — شريك صديقي — في الصحف، فحدست أن ملكية الشركة سوف تئول إليه، لكنه لم تمضِ شهور حتى وجدته يتصل بي تليفونيًّا، وكان رقم تليفون منزلنا قد تغيَّر — الأمر الذي منعه من الاتصال قبل ذلك — ويقول: إنه يريدني لأمر هام. وعندما قابلتُه قال إنه فقد كل شيء بموت شريكه؛ فالشركة كانت باسم الشريك، على نحوٍ ما معمول به في ذلك البلد الشقيق، وأنه لم يَعُد يملك إلا الحساب الجاري في البنك، وهو لا يَكفي للشروع في عملٍ تجاري على نفس المستوى السابق، لكنه لن يستسلم، بل سوف يكافح من جديد للوقوف على قدمَيه مرة ثانية، وسألته ماذا يَنتوي أن يفعل، فقال إنه سوف يَقترِض من أخوَيه، فهما كريمان ولن يَبخلا عليه بشيء، وافترقنا، وانقطعت أخباره فترة، وكنت أعرف أن والده كان قد ترك للأسرة دكان بقالة في حيٍّ شعبي في أعماق الجيزة، وكنتُ أزوره فيه أيام أحلام الاشتراكية، وقبل أن تُحلِّق الطيور الجارحة للرأسمالية العربية، ففكرت في زيارة الدكان، للسؤال عنه، واسترواح أنسام الماضي في ذلك الحي الذي كان مرتع صبانا أنا

وسمير سرحان، لكنني كنت أؤجل التنفيذ يومًا بعد يوم، إلى أن ساقتني المصادفة إلى شخص يعرفه خير المعرفة، وهو المحامي سمير جمعة — صديق سمير سرحان — وكنا نُعزيه في وفاة زوجته التي سقطت مِن الشرفة، فسألته عنه، وكنا في منزله في مدينة نصر، فقال لي إنه قد حُكِمَ عليه بالسجن ظُلمًا في قضية مخدِّرات، وقلت له إن صديقي لم يقرب المخدرات ناهيك عن الإتجار فيها، فقال لي المحامي إنه كان مؤمنًا ببراءته وكان ينصحه بأن يوكله للدفاع عنه، ولكن صديقي رفض بعناد وقال إن المحكمة لا بد أن تكتشف أن التهمة ملفَّقة وأن البراءة مضمونة، وكان النتيجة أن محاميًا آخر — من ملاعين المهنة — نجح في إلصاق التهمة به مقابل تبرئة موكله. وشرح لي سمير جمعة أن التُّهمة تَنحصِر في إخفاء حقائق وفي التواطؤ ولذلك فعقوبتها هينة.

كان الغموض الذي يُحيط بمصير صاحبنا دافعًا كافيًا لي على زيارة دكان الأسرة؛ أي متجر البقالة القديم، فزرته واستمعت إلى رواية تفصيلية عن الظروف المريرة التي أدَّت إلى القبض عليه وسجنه، من أخيه الأكبر إسماعيل، وحزنت حزنًا شديدًا، وظلَّت صورة الشاب المُكافح الذي كنت أعرفه تلحُّ على ذهني، ثم شغَلني مرَضي وسفري للعلاج، لكنني لم أتخلَّ عن مشروع زيارة الدكان من جديد على أمل أن ألقاه، وأخيرًا وُفِّقْتُ. وكان ذلك في عام ١٩٩٦م وأنا في طريق العودة ذات مساءٍ من أكاديمية الفنون.

لم أصدق عينيَّ عندما رأيته، فلقد بدا لي شيخًا مُهدَّمًا مطحونًا، تكسو وجهَه الغضون ويتناثَر الشيب في لحيته غير الحليقة ويرتدي حلة قديمة فضفاضة تشي بالهزال الذي أصابه، وكان يذكرني — للوهلة الأولى — بهنداوي الذي لا تبرح صورته ذاكرتي، لكنه يختلف في أنه كان قادرًا على الكلام ولا يزال مُتماسكًا رافع الرأس، وكان ترحيبُه بي يكتسي مرارة عميقة أحسست أنها مرارة من خانَته الحياة أو خانته آماله، وشعرت بأن المسافة الزمنية التي تفصل بين هنداوي وبين صديقي لم تمنع من بروز أوجه شبه كثيرة — أهمها دائرة القدر — مع اختلاف مهم سأحكيه بإيجاز.

عندما خرج صديقي من السجن كان — حسبما يقول — ما زال على إيمانه العميق بالكفاح وضرورة مُواصَلة الحياة، فعقد العزم على إحياء مشروعه القديم الذي كان قد أفلس، ولم يجد أملًا له سوى ابنه الوحيد، الذي كان يعيش مع جدته بعد تخلِّي زوجته عنه بالطلاق وزواجها من رجل آخر، ووضع همه في تلقينه أصول التجارة وغرس حب المخاطرة فيه، ولم تمضِ شهور على خروجه من السجن (وكان قد خرج في عام ١٩٩٣م، وأنا بعد في المستشفى) حتى أحسَّ بأن الغلام أصبح قادرًا على العمل، فوكل إليه قيادة

الشاحنة، وعاد يتردَّد على موقع مصنعه القديم في طريق الهرم، ويتَّصل بزبائنه القدامى، فلاح الأمل من جديد في نهضته من عثرته، فأعاد تشغيل المصنع، وصرَّف بعض المخزون القديم من الطوب الطفلي، وانطلق يُسدِّد بعض ديونه تمهيدًا لإلغاء «الإفلاس»، فأحسَّ بأنه بدأ يعود إلى الحياة من جديد، لكنه لم يكدْ ينقضي عام واحد حتى تُوفي ابنه فجأةً بمرضٍ مجهول. وكانت تلك هي الضربة القاضية. فلقد دفن مع ابنه كل أمل له في مواصلة الحياة، وعاد يقنع بموقعه في الدكان، لا يأكل إلا لمامًا ولا يكاد يتحدث مع أحد، وكان يعجب من أنني كنت لا أزال أذكره، وشغلتني الأيام بعد ذلك عنه، لكنَّني عندما زرت الدكان في عام ٢٠٠٠م علمت أنه قد تُوفي وأن أخاه إسماعيل باع الدكان لمالك آخر.

إننا نقف عاجزين أمام أمثال هذه الأحداث، فكل ما يتجاوز الإرادة البشرية لا مكان له في دنيا التحليل العقلي أو الفني؛ ومن ثَمَّ فلا مكان له في الآداب والفنون، أو قل إن ذلك ما تعلمناه، على نحو ما سوف أشرح، فنحن نتأسَّى ونقول لا حول ولا قوة إلا بالله، ثُمَّ نتعمد نسيان الفاجعة أو الحادثة، وقد يجد الشاعر مكانًا لها في شِعره، مثل وردزورث الذي كان يصور وفاة الأطفال في صور تربط الموت بالعودة إلى الله، أو إلى الطبيعة التي تَنبض بروح الله، وقد يجد الروائي مكانًا لها في نثره، مثل توماس هاردي وغيره ممن أفسحوا للقدر مكانًا في أعمالهم الأدبية، ولكنَّ الدراما الحديثة التي عُلِّمناها هي فن الفعل الإرادي، ولا مكان فيها لدوافع أخرى سوى دوافع البشر؛ أي لا مكان فيها لدوائر القدر، ومع ذلك فإنني لا أملك إلا أن ألمَح في هذه الدوائر عناصر درامية من نوع أكمل وأشمل، أو قل من نوع آخر يَختلف عما تعلَّمناه؛ لأنَّ تراث الدراما الحديثة يقوم على مفاهيم عصر النهضة الأوروبية التي تضع الإنسان في بؤرة الصورة، وتُعلي من شأن العقل إلى حدٍّ تتويجه ملكًا على سائر القوى في الإنسان وفي الطبيعة، وهي من ثم تُحلُّ الإرادة البشرية أرفع محل، فلقد أصبح الإنسان في نظر مفكري عصر النهضة «سيد مصيره»، ولقد نجح الأوروبيون إلى حدٍّ بعيد في تحقيق ذلك في الحياة المادية الملموسة، ودفَعهم هذا النجاح إلى أن تصوَّروا أن الإنسان أصبح إلهًا جديدًا، وأنَّ الأقدار خرافة، إلا إذا قيل إنَّ القدر أو المصير هو ما يصنعه الإنسان. وهكذا فإن للدراما الحديثة أسسًا فكرية قد نتفق معها وقد نختلف، والحياة التي نحياها قد لا تشهد بصحة هذه الأسُس وقد تشهد بصحة بعضها دون البعض الآخر.

وأذكر أنني عندما عدتُ من البعثة الدراسية عام ١٩٧٥م، كنت حريصًا — كما ذكرت في **واحات مصرية** — على إعادة وصل ما انقطع من علاقات مع أصدقائي، وإقامة

علاقات مع مَن لم أكن أعرف وكان من أقرب هؤلاء إلى قلبي مدرِّس تعرَّفت عليه في القسم يتميز بشفافية نفس نادرة، وصفاء قلب خالص، وكان يُسِرُّ إليَّ بأسراره جميعًا ويأنس إليَّ وآنس له داخل القسم، فامتدَّت حبال الود بيننا، وشهدتُ كفاحه في الحياة منذ أن عُيِّنَ في القسم مدرسًا للغة الإنجليزية (وهي درجة توازي درجة معيد) بعد أن تخرَّج وتفوق في دراسته، وقص عليَّ كيف لاقى من شظف العيش الكثير في صباه؛ إذ لم يرضَ بالعمل اليدوي الذي استهلَّ حياته به، فحصل على الثانوية العامة والتحق بقسم اللغة الإنجليزية وظل يجمع بين العمل وبين الدراسة حتى نال بُغيَته، ومن ثَمَّ اجتهد فحصل على الماجستير في علم اللغة (تحليل أزمنة الفعل في العامية المصرية) ثم سنحت له فيما بعد فرصة السفر إلى إنجلترا لاستكمال رسالة الدكتوراه فاغتنمها، وكنت دائم الصحبة له قبل البعثة، وكان يُطلعني على مشكلات حياته الخاصة، خصوصًا الصعوبات المادية وكيف كان يستكمل دخله المحدود بتدريس اللغة الإنجليزية خارج الجامعة، وسأتوقَّف هنا عند محطة غريبة من محطات حياته — ولا يعرفها إلا أقرب المقربين إليه.

ساقت إليه المصادفة رجل أعمال ليبي، ولم يكن يُريد دروس الإنجليزية لنفسه بل لزوجته «سيدة المجتمع»، وهي مصرية تزعُم لنفسها كرم المحتد وعراقة الأصل كما كانت تُصرُّ على نشر صورتها أسبوعيًّا في بعض المجلات في سياق الإعلان عن أنباء أعمال الخير التي تنسبها لنفسها، وأهمها أنباء التبرعات النقدية والعينية للجمعيات الخيرية والأفراد من المعوزين، وقيل: إن زوجها الليبي لم يكن يبخل عليها بشيء، بل قيل إنه كان يبسط يده كل البسط، وسألني صديقي بعد نحو شهر من الدروس عما عساه أن يطلبه من أجر على ذلك فلم أجد لديَّ إجابة حاضرة، فأجرُ التدريس في الجامعة لا يقاس عليه، وكان يتراوح آنذاك بين ثمانين قرشًا للساعة (كحد أدنى لأي مدرس) وبين نسبة ٢٪ من المرتب الأصلي للدرجات الأعلى، وطلبت منه أن ينتظر تقدير الرجل، فهو معطاء سخي حسبما يقال، ولكن الانتظار طال، ومضت ثلاثة أشهر دون أن يتقاضى صديقي شيئًا فسألني عما ينبغي فعلُه، وكنت حاسمًا هذه المرة فنصحته بأن يُطالب بحقه كاملًا وألا يتهاون في ذلك، والغريب أن الزوج الذي كان يسمح لزوجته بالظهور في «المجتمع» وحضور الحفلات ونشر صورها كان يغار عليها غيرة شديدة، فكان يحضر دروس اللغة الإنجليزية، ويُقاطع صديقي أحيانًا ليسأله عن معنى عبارة ما خشية أن يكون فيها إلماح أو تلويح بشيء غير مقبول، وكان صديقي صبورًا هادئ الأعصاب فكان يُترجم له كل شيء، وكثيرًا ما كان يلجأ إليَّ كي أُترجم له ما لم يَستطِع ترجمته، وكان

صديقي يضيق — بطبيعة الحال — بتدخل الزوج الغيور وإفتائه فيما لا يعرف من اللغة الإنجليزية، خصوصًا أنه كان يطالب صديقي بإضافة وقتٍ إلى زمن الحصة يوازي الوقت الذي استغرقه في التدخل (مثل الوقت الضائع في كرة القدم injury time) ووجد صديقي ذلك مسلِّيًا فلم يَعترِض، وعندما سألته إذا كان قد طالب بأجر الدروس؛ قال إنه استحى أن يفعل ذلك بصورة مُباشِرة، بل كلَّف صديقة لسيدة المجتمع بأن تُثير معها الموضوع، وكانت هذه الصديقة فلسطينية الأصل أردنية الجنسية، وتُكثر من التردُّد على القسم لدينا للاطلاع على المراجع في مكتبة القسم المُتواضِعة ومكتبة الجامعة الزاخرة، وقد شاهدتها وحادثتها عدة مرات دون أن أفتح معها الموضوع — طبعًا — ولكن صديقي كان يُطلعني على التطوُّرات أولًا بأول.

وكان من ثمار جهود الصديقة أن اتَّفقت «سيدة المجتمع» مع زوجها على تقديم سيارة مُستعمَلة يابانية الصنع إلى صديقي سدادًا لأجر الدروس، ولم يَعترض صديقي إذ كان يتطلَّع إلى الحصول على أيِّ أجر، وكان يعدُّ العدة للسفر ليَستكمِل دراسته العليا ويحتاج إلى المال أكثر من أي وقت مضى، خصوصًا بعد أن ترك زوجته الأولى وترك معها ابنه، واستأجر شقة أخرى استقرَّ فيها مع زوجته الجديدة. وكان صديقي يُسرُّ إليَّ بأن ذلك كان لأسبابٍ قاهرة، ولم أشأ أن أعرف المزيد، لكنَّني كنت أعجب لسلوك «سيدة المجتمع» — «صاحبة الأيادي البيضاء» على المعوزين — وزوجها الذي اشتهر بسخائه وكرمه، وهما يُماطلانه في دفع أجر الدروس، ثم يقدمان إليه سيارة قديمة لا يفي ثمنها (مهما يكن تفاؤلنا) بأجر الدروس التي كانت تَستغرق من صديقي ساعات كثيرة — بل أكثر مما يقضيه في الكلية، ووجدتني أصارحه ذات يوم بضرورة ترك تلك الدروس والتفرُّغ لبحثِه الأكاديمي، فوافقني وأفضى إليَّ — في ساعة صفاء — ببعض أسرار أعمال الخير المزعومة؛ إذ اكتشف بمحض المصادفة أن نشر الصور في المجلات كان فعليًّا «إعلانات» مدفوعة الأجر، وأن «الحفلات الخيرية» كانت في الحقيقة مُناسبات لعقد الصفقات المُريبة والمُستترة بستار الانفتاح الاقتصادي، وقال إنه يظنُّ أن بعض أصدقاء الزوج كانوا من التجار الذين يتفنَّنون في إدخال البضائع الأجنبية إلى مصر برًّا، وربما دون دفع الرسوم الجمركية — كلها أو بعضها — وقال إنه ينتوي الإقلاع عن هذه الدروس لكنه لا يَزال يأمُل أن ينال أجره كاملًا ما دامت الأسرة بهذا الثراء. وحَدَسْتُ أنه يخشى أن يتلاشى ذلك الأمل لو توقف، فلم أقل المزيد، ولم تمضِ أيام على هذا الحوار حتى علمت أنه، عَرَضًا، وكأنما لم يكن يُفضي إليَّ بسرٍّ مهم، أن الزوج الليبي — رجل الأعمال الكبير — قد تُوفِّيَ.

والتزم صديقي الصمت إزاء هذا الموضوع أسبوعًا أو أكثر، واحترمت صمته إزاء جلال الموت لكنَّني كنتُ أريد المعرفة، فسألت الأردنية صديقة الزوجة أن تُطلعني على الأخبار لكنها التزمت الصمت هي الأخرى ثم اختفت. واغتنمَت فرصة خلوة سنحت في غرفة الأساتذة، وسألته عن سر الحزن الذي يتملَّكه فسرح ببصره من الشباك كأنما يتطلَّع إلى السماء، ثم واجهني وتساءل فيما يشبه التأمل الحائر «ما كُنْه الموت؟» ودُهِشْتُ ووَجِمْتُ. فعاد يقول «لقد كان الرجل في صدر شبابه، وكان ممتلئًا قوةً وحيوية.» وقلت له: إن الأعمار بيد الله، ولكنني لاحظت أن وفاة الرجل صدمته صدمة أقوى من احتماله، فحاولتُ تغيير الموضوع وقلت — كأنما بلا اهتمام — «لكن دفَع لك كل حاجة؟» فابتسم لأول مرة منذ أن جلسنا معًا، وقال إن الرجل كان قد كتب شيكًا بالمبلغ كله في اليوم السابق لموته ووعَده بأن يأتي بالنقود من البنك في اليوم التالي، وقال إنه طلب منه تسليمه الشيك لكنه أصر على تسليمه المال نقدًا وعدًّا، وقالت الزوجة التي كانت شاهدةً على هذا الحوار: إن تأخير يومٍ لن يؤثر في المبلغ، وقال إن التاجر أكَّد له أنه وحده الذي يستطيع صرف الشيك، وعاد صديقي إلى النظر من الشباك فعلمتُ أن ذلك أقصى ما كُتب لي أن أعرفه عن هذا الموضوع، وحدست أن الشيك من الشيكات المقفولة (a crossed cheque) وطرحت الموضوع جانبًا.

وكاد النسيان أن يطوي هذه المحطة من محطات حياة صديقي لولا أن علمت بأنَّ الموت كان على موعد آخر معه؛ إذ عندما عدت من باريس، بعد الجراحات التي يَسَّرها الله لي فشُفيتُ بفضله وكرمه من المرض اللعين، سمعتُ أن صديقي المذكور قد تُوفي، وقيل إنه لقي حتفه في حادث سيارة راحت ضحيته زوجته (الجديدة) وابنته أيضًا (ونجا ابنه). حادث سيارة؟ وتذكرت أنه عندما عاد من إنجلترا، في مُنتصَف الثمانينيات، اشترى سيارة «سيات» من نوع «باندا»، وهي خفيفة لا تزيد قوة محركها عن ٩٥٠ س/س، وأنه كان يسافر بها إلى العريش لتدريس اللغة الإنجليزية في كلية ما، وأنها انقلبت به ذات مرة لكنه نجا والحمد لله، ولذلك تصوَّرت أن الحادثة الأخيرة كانت بسبب تلك السيارة، ولكنني علمت من صديقي الدكتور محمد عبد العاطي أن سيارة الحادثة كانت «لادا» (روسية متينة راسخة) وأن سائقًا أرعن لسيارة شحن بمقطورة قد دهسها قبيل موعد الإفطار في رمضان في أحد طرق مدينة ٦ أكتوبر حيث كان صديقي قد بنى لنفسه منزلًا بما ادَّخره من نقود من سنوات الإعارة في إحدى البلدان العربية الشقيقة. وقال لي الدكتور

محمد إنهما كانا معًا قبل ذلك بأسبوع لقضاء سهرة رمضانية في حي سيدنا الحسين، وأن صديقي التفت إلى الدكتور محمد فجأة وهما في السيارة وسأله السؤال الذي كان قد طرحه عليَّ قبل سنوات «ما الموت؟» وأضاف إنهما صلَّيا الفجر معًا في مسجد الحسين، وإنه كان على موعد معه في يوم وفاته، وإنه ما زال يؤنب نفسه لأن حرص صديقي على الوفاء بالموعد تسبَّب في وفاته.

٦

كان من أسباب جاذبية صورة الدائرة في نظري دلالتها على الكمال الذي لا نهاية له؛ فهو كمال مُستمِر لا يتوقف أبدًا، فقوس الدائرة مستمر — تعريفًا — وفي استمراره يَكمُن جوهر الدوام، تلك الفكرة العصية على أذهان البشر الذين يَقيسُون كل شيء بمنطق الحياة البشرية التي يحدُّها الموت على الأرض، أي يضع لها نهاية منظورة، وقد يكون افتتاني بهذه الدائرة قد بدأ في المراهقة الأولى (teenage) واستمرَّ في المراهقة الثانية (adolescence) عندما أحسست مثل الشاعر وردزورث بأن قوس الوجود البشَري الذي يمتدُّ مثل مدار الشمس الظاهري من الشرق إلى الغرب لا بد أن يستمر فيمتدُّ من الغرب إلى الشرق أيضًا في مكان ما لا تُدركه الأبصار، وإن كان الله قد أمدَّنا بما يكفي من الطاقة الذهنية لتصوره، وكانت مشاهد الطفولة الأولى في الريف تُفصِح عن إحساس يستعصي على التعبير اللغوي بأن ما تراه عين البصر قد رأتْه عين البصيرة قبل ذلك، وعندما قرأت في المراهقة قصيدة وردزورث المسماة «خاطرات الخلود المستوحاة من ذكريات عهد الطفولة الأول» أحسستُ أن الشاعر أبدع في تصوير ما طاف بخاطري، وربما ما يطوف بخاطر كل من هم في سنِّي وإن لم يُعبِّروا عنه، من شعور بأن الوجود دائري، أي إنَّ أرواحنا التي بثَّها الله فينا (﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ السجدة: ٩) قد سبق لها الوجود عند الله، وأن ما كنت أنسبه إلى عين البصيرة يجوز أن يَنسب إلى عين الروح، فإذا استطعنا تصور ذلك الوجود السابق، على عُسر ذلك التصور، كان مِن المحتوم أن نُحاول تصور الوجود اللاحق، وهو وجود روحي قد يكون من المحال تصوُّره أو تصويره؛ لأنَّ حواسنا لم تعتدِ الخروج عن الكيانات المادية التي تفرض نفسها ليلًا ونهارًا عليها، ولا بدَّ في هذه المحاولة من اللجوء إلى الاستعارة والصور الشعرية، وعندما قرأت «يونج» في المراهقة الثانية انضم صوت العقل إلى صوت الإحساس، فإذا كان الله قد ركَّب في النفس نمطًا فطريًّا هو نمط

الدائرة، فلا بد أن الغرض من ذلك هو مساعدة الإنسان على تنمية إدراكه لدائرة الوجود، ولم أشغَل نفسي آنذاك بالفكر الفلسفي — وهو الذي يُلغي دور الإحساس في عمل العقل، ويصرُّ على التجريد المرهق لقوى العقل المنطقية — بل اكتفيت بما كنتُ أشاهد في الحياة من دوائر مُتتالية، رويت بعضها هنا فيما رويت، وعندما أتيح لي أن أطَّلع في إنجلترا على المنهج العلمي — أي منهج العلوم الطبيعية — في تفسير عمل النفس، وقد تختلف النفس هنا على الروح، بدأت أدرك أن الإنسان قد بدأ يكتشف بعض أسرار خلق الله، فالروح غيب مطلق ولغز لا حل له، وأما النفس فهي تمثل — على ما فيها من «أمر الروح» — جماع الطاقات البشرية (أي التي يشترك فيها الإنسان مع الأحياء) والإنسانية (أي التي يختلف فيها الإنسان عن سائر الأحياء) وأهمها البصيرة القادرة وحدها على هداية الإنسان إلى حدس دورة الوجود، ولكنَّني سأبدأ بإيراد فقرة من قصيدة وردزورث المشار إليها في ترجمة عربية (منظومة). وسوف أرجئ التعليق عليها، وعلى حواشي الشاعر على ما جاء في هذه الفقرة — وهي الحواشي التي أملاها في شيخوخته على الآنسة إيزابيلا فينيك (Isabella Fenwick) وأصبحت تعرف بحواشي فينيك — إلى ما بعد قراءة الترجمة العربية.

يقول وردزورث:

ما مولد الإنسان إلا غفوةٌ،
نومٌ ونسيانْ؛
فروحه، تلك التي قد أشرقتْ معه،
(شمس حياة الإنسانْ)!
كانت قبيل بزوغها قد غربتْ،
وأقبلتْ،
من موقع ناءٍ قَصيٍّ،
لكنها لم تنسَ كل شيء،
كلا ولا تجردتْ،
من كل ما عرفته من رواء،
إذ إننا نأتي وفي أذيالنا سحب البهاء،
نأتي من الله الذي هو بيتنا،

إن السماء قريبة منا نراها حولنا،
ونحن أطفال صغار،
وكلما شب الصبيُّ،
بدأت ظلال السجن تحكم حوله طوق الحصار،
لكنه قد يشهد الأنوار،
وحيثما انسابت رأى فيها الفرح،
واليافع الذي عليه أن يواصل الرحيل،
كل يوم موليًا للشرق ظهره،
يظل كاهن الطبيعة،
وحوله رؤيا السناء في طريق رحلته،
ثم تخبو هذه الرؤيا،
آخر الأمر بعين الرجلِ،
ويراها تتلاشى في نهار البشرِ!

والواضح أنني سمحت لنفسي بالمزج بين بعض البحور المتداخلة إيقاعًا، مثل الكامل والرجز، على نحو ما أوضحت في كتابي **الترجمة الأدبية** (١٩٩٧م) أو المتداخلة في إحدى دوائر الخليل، مثل دائرة الرجَز والرمل والهزج، وأبحت لنفسي تنويع القافية أو طرحها، وهذا كله مما سمح به الشاعر لنفسه وأباحه، وليس من المعقول أن يفرض المترجم على نفسه قيودًا لم يفرضها مؤلف النص الأصلي، لكنَّني التزمت بالمعنى التزامًا دقيقًا وبالألفاظ الأساسية نفسها ولم أزد إلا ما اقتضاه فهمي للمعنى أو قل تفسيري للنص الشعري. وأما حاشية «فينيك» فسوف تُلقي بعض الضوء على فكر الشاعر وتوضح ما أعنيه بالدائرة — موضوع هذا الفصل — ولذلك فسوف أورد الفقرة التي ذاع اقتطافها منها بالإنجليزية للتدليل على ما يُسمَّى بتداخل عين الرائي مع المرئي أو الذات والموضوع بلغة الفلاسفة بل وبتمازجها أي (The coalescence of subject and object) وهو ما شاعت نسبتُه إلى كولريدج، وللتدليل كذلك على أنَّ الشاعر يستعمل صورة الوجود الروحي السابق للوجود المادي بمثابة استعارة وحسب لا باعتبارها دليلًا على إيمان بالفكرة، سواء نُسبت إلى أفلاطون أو إلى الفكر الهندي، وهو ما يعرفه العامة باسم تناسُخ الأرواح (the transmigration of souls) ويُشير إليه الشاعر باسم الوجود السابق وحسب (pre-existence) والغريب أن جميع من يُوردون هذا المقتطف بالإنجليزية يبدءونه من

منتصف الجملة والحق أن العبارة المحذوفة لا تعني الكثير، ولذلك فسوف أحذفها أنا أيضًا! هذه إذن هي الفقرة المهمة من «حاشية فينيك»:

يقول وردزورث:

«كثيرًا ما كنت أعجز عن تصور الأشياء الظاهرة في صورة أشياء ذات وجود خارجي، بل كنتُ أتواصَل مع كل شيء أراه لا باعتباره شيئًا مُنفصِلًا عني، بل كأنما له وجود راسخ في طبيعتي غير المادية [immaterial nature]. وكم من مرة توقَّفت أثناء ذهابي إلى المدرسة لأمسك بجدار أو بشجرة حتى أسترجع ذاتي من هوَّة المثالية [أي الوهم، وهي هنا idealism] إلى الواقع. وكنت في ذلك الوقت أخاف ذلك وأخشاه، وأما حين تقدَّم بي العمر فلقد أصبحت آسف، مثلما نأسَف جميعًا، بسبب الخضوع لما هو نقيض ذلك، وكنت أفرح بذكريات معينة، وهي التي عبرت عنها في الأبيات التالية:

بل أشكر أسئلة صماء عنيدة،
مما يطرحه الحس،
أو يمثل خارج هذي النفس،
أسئلة تساقط منا بل تتلاشى ... إلخ.

وأعتقد أن كل إنسان يستطيع إذا تذكَّر الماضي أن يَشهد بما كان يكسو الأشياء الظاهرة للعين في طفولته من نضرة وبهاء يُشبهان نضرة الأحلام وبهاءها، ولذلك فلا أجد ما يدعوني إلى الإفاضة في ذلك هنا، لكنَّني لما كنت قد افترضت في القصيدة أن ذلك دليل على حالة وجود سابق، فأظنُّ أنه من الصواب أن أعترض على ما انتهى إليه البعض، وما آلمَ بعض الأتقياء والورعين، من الظن بأنني قصدت إلى غرس تلك العقيدة، فالفكرة غائمة إلى الحد الذي يحول دون الدعوة إلى الإيمان بها، إلا باعتبارها عنصرًا من عناصر إحساسنا الغريزي بالخلود، ولكن علينا أن نذكر أن الكتب المقدسة لا تتضمَّن ما ينفيها أو يناقضها، وإن لم تنص عليها، كما أن سقوط الإنسان يتضمَّن — استنادًا إلى منطق القياس — ترجيحًا لها. وهكذا دخلت فكرة الوجود السابق إلى العقائد الشائعة عند أمم كثيرة، كما يعلم جميع الملمِّين بالآداب الكلاسيكية أنها من عناصر الفلسفة الأفلاطونية. وكان أرخميدس يقول إنه يستطيع أن

يُحرك (يرفع) العالم (الأرض) لو عثر على نقطة ارتكاز لآلته (رافعته)، ومن ذا الذي لم يستشعر ذلك الأمل نفسه فيما يتعلَّق بعالم ذهنه؟ ولما كان عليَّ أن أتناول بعض عناصرها عندما دفعني الدافع الداخلي على كتابة هذه القصيدة عن «خلود الروح» فلقد تعرَّضت لفكرة الوجود السابق لأن لها من الأسس الراسخة في طبيعة الإنسان ما يُخوِّل لي أن أنتفع بها في شعري خير انتفاع، تحقيقًا لغايتي الشعرية.»

(من طبعة أكسفورد المنقَّحة)

هذا هو ما قاله وردزورث، وقد أوردته لظني أنه لم يترجَم إلى العربية من قبل ولن أستطيع الإشارة إليه مثلما أشير إلى ما هو مُترجَم، ولظني أنه سوف يُلقي الضوء على فكرة الدائرة في الشعر، من خلال ربط الوجود السابق بالخلود؛ لأن دورة الحياة المرئية على ظهر الأرض لا تكتمل إلا إذا امتدَّت في الزمن فتجاوزت البداية الظاهرة وتخطَّت النهاية الظاهرة، وما يشير إليه الشاعر من أن فكرة الوجود السابق على الحياة الأرضية قد دخلت إلى العقائد الشائعة عند أمم كثيرة، قد يتضمَّن الإشارة إلى عقائد أهل الهند والصين، أو ما يُسمى بالبوذية بأشكالها المتعدِّدة، وهو ما أراني مُضطرًّا إلى إيضاح بعض حقائقه، خصوصًا بعد قراءتي كتابًا أصدرته كارين آرمسترونج عام ٢٠٠١م عن «بوذا»، وقضيت في قراءته أيامًا طويلة محاولًا استيعاب ذلك المذهب الغامض بتفريعاته التي لا تكاد تحصر. وعندما انتهيت — أو ظننت أنني انتهيت من البوذية (التي خيَّبت آمالي) وجهت اهتمامي للأديان الهندية الأخرى حيث وجدت صورًا مختلفة لدائرة الوجود، وسوف أوجز هنا ما خرجت به من قراءاتي ويتصل اتصالًا مباشرًا بموضوع هذا الفصل.

سألت صديقي الدكتور ماهر شفيق فريد عما إذا كان الباحثون العرب قد كتبوا كتبًا عن البوذية؛ فهو مرجعي في هذا الباب وغيره، ولا أظن أن أحدًا من جيلنا يعلم علمه أو يقرأ قراءته، فقال لي إن هناك كتابًا واحدًا وضعه الدكتور فؤاد شبل عن البوذية، لكنه غير متاح حاليًّا، ولا أعلم أين نشر، وسألت صديقي المستشار أحمد السودة، فقال لي إن العقاد أشار إلى البوذية وشرحها عَرَضًا في بعض كتبه، ومن ثم لم أجد أمامي إلا أن أنشد ما كتبه الغربيون، وإن كانوا يدينون — مثلنا — بدين سماوي يحول في رأي كارين آرمسترونج دون التعاطف (ومن ثم دون التفهم الكامل) للأديان غير السماوية. وخلاصة ما انتهيت إليه هو أن الأديان الشرقية غير السماوية التي تؤمن بتناسخ

الأرواح — وهو ما يهمنا هنا — تكاد تنحصر في الأديان الآسيوية الأربعة: الهندوسية (Hinduism) والجانية (Jainism) والبوذية (Buddhism) والسيخية (Sikhism) وأما التناسخ نفسه فله مصطلحاته المحدَّدة، وكان لا بدَّ لي من رصدها وتحديدها، فأما التناسخ نفسه فهو يُسمَّى علميًّا (reincarnation) أي الحلول ثانيًا في جسد جديد، ويشار إليه بالتعبير الشائع الذي سبق لي ذكره وهو (transmigration of souls) أو بلفظة (metempsychosis) والأدق أن تكون اللفظة (metensomatosis) ومعناها تغيير الأجساد، واللفظة اليونانية له هي (palingenesis) أي أن يكتسب المرء أصلًا جديدًا؛ أي أن يولد من جديد. وخلاصة ذلك في الأديان الأربعة هو ما يُسمَّى بمذهب «العلل» (أو Karman) أو العلَّة والمعلول، بمعنى أن ما يفعله الإنسان في هذه الدنيا — أي أثناء وجوده الآني — سوف يُؤثِّر في وجوده التالي؛ فالهندوسية تقول بأنَّ عملية الميلاد والميلاد الجديد (أي تناسُخ الأرواح) عملية لا نهائية، ويمكن أن تستمر إلى الأبد إلا إذا نجح المرء في تحقيق الخلاص لنفسه (moksa) من خلال إدراك الحقيقة التي تُحرِّر ذاته من نير الدنيا، وعندها تعود روح الفرد أو نفسه (Atman) إلى المُطلَق، الروح أو النفس المطلقة (Brahman) فتتَّحد مع المطلق ولا ترجع إلى الدنيا؛ أي إن بإمكان الفرد أن يكسر عجلة الميلاد والميلاد الجديد (Samsara) بإرادته، من خلال التحكُّم في فعاله والبحث الدائم عن الحقيقة. وتقول «**الجانية**» إنَّ هناك روحًا مُطلَقة في الإنسان، وهي رُوح دائمة خالدة، وأنَّ للإنسان أن يرقى بها عن طريق الأعمال الصالحة، وأن يُضيف في كل حياة يحياها «عِلَلًا» جديدة تُبرِّر ارتقاءه سلَّم الموجودات (الأحياء) حتى يستطيع آخر الأمر (عن طريق الانضباط الديني، وأهم عنصر فيه هو نبذ العنف، أي المُسالمة الكاملة مع الأحياء) أن يتحرَّر بمعنى اعتلاء أرفع درجات الوجود في الكون.

وهكذا تشترك الهندوسية مع «الجانية» في الإيمان بوجود روح أو نفس — أي كيان غير مادي، ينشد التطهر باستمرار من أدران الحياة المادية (الجسَدية) في الدنيا، لكنه خالد وما يفتأ يعود إلى الأرض وإن اختلفَت الصور التي يحلُّ فيها، وأما البوذية فتُنكر وجود مثل هذه النفس الثابتة ذات الوجود المحسوس، لكنَّها تؤمن بنوع غريب من التناسُخ (transmigration) يختص بانتقال العِلَل فحسب، ويعتمد تصوُّر هذا المذهب العسير الذي أحاول تبسيطه قدر الطاقة، على قبول فكرة غير مألوفة وهي أنَّ للنفس خمس طاقات أو جوانب أو حالات تتغيَّر باستمرار من لحظة لأخرى (Skandas) وتُشكِّل مُركَّبًا خاصًّا مُتميِّزًا في كل فرد، وهي الجسد، والأحاسيس، والمدركات، والنوازع، والوعي،

وأن الإنسان يستطيع إذا اجتهد أن ينجح في تحقيق فناء هذا المُركَّب، لكن فناء المُركَّب لا يَستتبِع فناء «العلل»، فهي باقية أبدًا، وهي تنتقل من المتوفى إلى مُركَّب جديد في رحم امرأة أخرى، ويَقتصِر هذا الانتقال على «بذرة الوعي» (vijnana) وهكذا تُصبح بذرة الوعي العنصر الوحيد من عناصر النفس الذي يُولد من جديد أو يحل من جديد في فردٍ جديد. ولا يأتي الخلاص إلا بالقضاء على جميع الرغبات والشهوات التي تعمل على إقرار «توهُّم وجود ذات دائمة ثابتة»، ويكون ذلك بتحقيق حالة من السلبية الكاملة عن طريق الانضباط والتأمل، وهكذا ينجو الإنسان من عجلة الميلاد؛ فالموت فالميلاد من جديد، ولكن هذا لا يتحقَّق عن طريق ما يُسمَّى نيرفانا (Nirvana) وهي كلمة باللغة السنسكريتية (أي باللغة الهندية القديمة) وتَعني النورانية (enlightenment) ولكن عن طريق ما يُسمَّى بارينيرفانا (Parinirvana) أو النورانية النهائية، وسوف أتوقف هنا لأُوضِّح الفارق بين هذين المَفهومَين العسيرَين.

اختلط الأمر على الكثيرين عندما تُرجِمَتِ الكلمة الهندية بكلمة أوروبية شاع إطلاقها على حركة التنوير الأوروبية، أي حركة إعلاء شأن العقل الإنساني وتَتويجه ملكًا على الطاقات البشرية، وحركة الفصل بين الدين والعلم، وبين الدين والدولة، وما إلى هذا بسبيل (وهو مشهور ومعروف) كما اختلَطَ الأمر علينا أيضًا؛ لأنَّنا ترجمنا الكلمة الأوروبية ولم نُترجم الكلمة الهندية، ولهذا اختلط المعنى العربي حتى كاد أن يُصبح عكس المقصود، ولذلك حرصتُ هنا على استخدام كلمة النورانية ترجمةً لها بسبب دلالتها على انفتاح النفس على النور (في الأديان السماوية) أو اكتسابها خصيصة النور الأولى وهي السطوع والانطفاء (في البوذية). فالبُوذي يكافح جوانب النفس الخمسة التي سبق ذكرها حتى يصل إلى القضاء على الذات، أي إنَّ كفاحه النوراني كفاح ضد جوانب وجوده الأرضي، فإذا اكتسب صفة النور عرف الطريق إلى إطفائه، وعليه مِن ثَمَّ أن يواصل السير في هذا الطريق حتى يصل إلى الفناء، وهو النورانية الأخيرة؛ إذ ينجو عندها من عجلة الحياة — أو دائرة الحياة (موضوع هذا الفصل) فينتهي في تصوره وجوده إلى الأبد. ولهذا تتولَّى كارين آرمسترونج — في كتابها المشار إليه — إيضاح الفارق بين كلمتَين تُوردهما بلغة بالي (Pali) وهي اللغة الأصلية التي كتبت بها النصوص البوذية القديمة، ثم تُورِد مُقابلاتها بالسنسكريتية، أما الكلمة الأولى فهي نيرفانا:

Nibbana: “Extinction: blowing out” the extinction of self which brings enlightenment and liberation from pain (dukkha) Sanskrit: Nirvana.

وترجمة ذلك: نيبانا: القضاء على الذات أو إطفاؤها وتعني إفناء الذات الذي يأتي بالنورانية والتحرر من الألم (دوكا). نيرفانا بالسنسكريتية.

والكلمة الثانية هي:

Parinibbana: The “Final Nibbana”; the final rest of an enlightened person achieved at death, since he or she will not be born into another existence.

وترجمتها: باري نيبانا: النيبانا النهائية، وتعني الراحة النهائية لمن حقق النورانية، وذلك عند الموت؛ لأن هذا الشخص لن يولد من جديد فيكون له وجود آخر.

ولكن البوذية لا تقول بأن ذلك متاح للجميع، فما أندر في أعين البوذيِّين من يستطيعون تحقيق المثل الأعلى لديهم، وهو الفناء وكسر دائرة الوجود، فلقد ورثوا من الأديان الهندية فكرة التناسخ، وحتى لو قصروها على «العلل» فإنهم يقرون بها ضمنًا، وهم يسلمون بأن الأغلبية لا تستطيع تحقيق النورانية، وإن حققت النورانية الأولى فربما لم ينجح إلا القليل في تحقيق النورانية النهائية! ولذلك فأغلب الناس يكابدون الحياة، والحياة عند البوذي عناء خالص، وعبء يتَّضح فيما رصدوه من جوانب النفس، ومثلهم الأعلى إذن هو محاربة العناء ولو على مراحل قد لا تُوصِّل إلى الراحة النهائية!

وأما ديانة السيخ (السيخية) ففيها لمحة من الأديان السماوية، ألا وهي الإيمان بالبعث ويوم الحساب، ولكنَّها في جوهرها تقوم على فكرة تناسُخ الأرواح، وقد أسَّسها زعيم ديني هندي في القرن السادس عشر يدعى «جورو ناناك» (وقد أصبح اسمه الأول يَعني الزعيم الروحي باللغة الإنجليزية الحديثة) وهي تقول بأنَّ الأرواح التي تُنوسِخت سوف تندمج يوم الحساب في روح الله. أي إنَّ السيخية هي الدين الوحيد الذي يذكر الله صراحةً، ويجعل دورة الحياة جزءًا من التصور العام لفكرة الدورة الكونية.

وهكذا نرى أنَّ الأديان الشرقية الرئيسية، وهي أديان يدين بها آلاف الملايين في الهند والصين وجنوب شرقي آسيا وجنوبها، تقر صراحةً أو ضمنًا بدائرة الوجود الروحي، فإذا ذكرنا أنها جميعًا أديان غير مُنَزَّلَة، أي غير سماوية، وجدنا أن فطرة الإنسان هي التي أوحت بصورة تلك الدائرة، والفِطرة قد تستعين بالحدس القائم على التأمل، أو على الإحساس الطبيعي الذي لم تتدخَّل التعاليم الدينية أو الفلسفية أو العلمية في تشكيله، وهو لذلك مؤشر صادق لإحساس الإنسان، حتى دون كتب منزلة، بصورة الدائرة، والغريب أن البوذية الصادقة التي تسعى إلى كسر الدائرة وتحقيق الفناء تقر إقرارًا صريحًا بأن

ذلك المطلب شبه محال، وبأن تحقيقه مثل أعلى يسعى إليه الإنسان ولكنه نادرًا ما يناله، وكان بوذا الكبير (البوذا سيداتا جوداما) يغضب من تلاميذه حين يزعمون أنهم وصلوا إلى النيرفانا، ويصرُّ على أنها جهد مستمر وقد لا يصل بممارسها إلى البارينيرفانا (أي الخلاص النهائي) أبدًا!

الفصل الرابع

١

بدأ عام ٢٠٠١م بداية تُبشر بالخير، إذ فازت ترجمتنا — الدكتورة فاطمة نصر وأنا — لكتاب **معارك في سبيل الإله: الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام** بجائزة معرض القاهرة الدولي للكتاب، وأُعلن أنه أفضل كتاب مُترجَم في عام ٢٠٠٠م، وذهب كلانا إلى حفل افتتاح المعرض، وصافحت السيد رئيس الجمهورية للمرة الرابعة، وكانت المرة الأولى عام ١٩٨٦م حين تسلَّمتُ منه وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، والثانية والثالثة في مطلع ١٩٩٤م ومطلع ١٩٩٧م لتسلُّم جائزتَي معرض الكتاب عن أحسن كتاب مُترجَم (**روميو وجولييت**) في عام ١٩٩٣م، وأفضل كتاب في النقد الأدبي (**المصطلحات الأدبية الحديثة**) في عام ١٩٩٦م، وأما جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام ١٩٩٩م فلم يَصحبها حفل تكريم رسمي، ولكن مطلع عام ٢٠٠١م كان مُشرقًا، فأحسست أن ما أسمَيته نهاية «العمر الرسمي» لم تكن نهايةً بالمعنى الذي «قهرني» طيلة العام الدراسي ١٩٩٩–٢٠٠٠م، وشحذت الهمة لمواصَلة العمل بعد تلك الجائزة الأخيرة، فما إن تماثَلت للشفاء من جراحة العين التي أجراها لي العبقري الدكتور ممتاز حجازي في ديسمبر ٢٠٠٠م حتى بدأت الاستعداد للانتهاء من المشروعات الأدبية الناقصة، وكان على رأسها استكمال ترجمة **الفردوس المفقود**، وحين لاحت فرصة السفر إلى الخارج رحَّبت بها، واصطحبت معي نص ميلتون (الكتب الستة الأخيرة) لكنَّني كنتُ أريد أيضًا أن أنتهي من ترجمة القصص القصيرة التي اخترتها للكاتبة منى رجب، بعد أن ترجم إحداها تلميذي وزميلي علي عبد العزيز الغفاري، وفعلًا عكفتُ في شهرَي أبريل ومايو على **الفردوس المفقود** فترجمت ثلاثة كتب، وعشر قصص، هذه إلى العربية وتلك إلى الإنجليزية، وانتهيت

في يونيو من إعداد الحواشي، وكنت في غضون ذلك قد قررت إعادة نشر الجزء الأول من الملحمة في مكتبة الأسرة، فوجدت أن المقدمة التي كنت كتبتها قبل عشرين عامًا تقريبًا؛ لذلك الجزء تصلح مقدمة للمَلحمة كلها، فلم أكتب مقدمة للجزء الثالث الذي يضم الكتب الثلاثة التي انتهَيت من ترجمتها (من ٧–٩)، وكاد الكسل أن يقعد بي عن الانتهاء من الكتاب التاسع بعد عودتي إلى مصر لولا تشجيع ماهر شفيق فريد، وعندما اكتمل المخطوط — الترجمة والحواشي والتصدير — دفعت به إلى المطبعة، وعدت إلى واحات مصرية — الجزء الثالث من سيرتي الذاتية — فعكفتُ عليها حتى أدفع بها هي الأخرى إلى المطبعة، وكنا في يوليو ٢٠٠١م، ومناقصة شراء الورق التي طرحتها الهيئة لم تَرْسُ بعد على أحد، وهو ما خفَّف من الإحساس بالعجلة لديَّ.

وجاءني في ذلك الوقت عرض للعمل في أمريكا، وهو عرض من الصعب مقاومته، فعندما أختلي بنفسي في غرفة الفندق أتحوَّل إلى «كتلة من النشاط»، كما يقولون، وكانت تلك فرصة سانحة للانتهاء من الكتب الثلاثة الأخيرة من الفردوس (من ١٠–١٢)، فقد كان الإحساس بمرور الزمن إحساسًا غلابًا لا يفارقني لحظة في صحوي أو منامي، وكانت المسئوليات التي أحملها آنذاك تتضمَّن إعداد كتب مكتبة الأسرة، وإعداد كتابين في الترجمة الفورية للجامعة المفتوحة، وكان ذلك كله يقتضي وجودي في مصر وإرسال اعتذار إلى الأمريكان، وكان ذلك قرارًا عسيرًا؛ فالسفر مصدر بهجة، والخروج والعودة حركة، والحركة تعميق للإحساس بدورة الحياة، ولكنني كنت قد عقدت العزم على الانتهاء من المشروعات التي بدأتها وما زالت تنتظر الكثير من الجهد، فأرسلت اعتذاري للأمريكان، وقررت قضاء الصيف كله في العمل في القاهرة، ولم أذهب إلى أي مكان خارجها ولو «لتغيير الجو» أو للراحة.

وكان العكوف على **واحات مصرية** يتطلَّب الاستغراق التام، لا في تذكر الأحداث فمعظمها مسجل وثابت في الأوراق، بل في محاولة استقرائها للخروج بمعنى ما مما شهدته على امتداد ربع قرن؛ بحيث يبدُو المعنى بوضوح، وهو الأمر العسير حقًّا، فاستيضاح المعنى يتطلَّب التساؤل وإعادة التساؤل، وإقامة الروابط أو البحث عن روابط جديدة أو منطقية (مثل الروابط الزمنية chronological) أو الاكتفاء بالروابط ذات الدلالة، وهكذا وجدتني أقضي وقتًا أكثر مما يَنبغي لكاتب مُحترف، صناعته اللغة والتعبير، في مدِّ الجسور بين الأحداث ومحاولة استنباط معنى ما مما قد تقول الأوراق إنه يَفتقر إلى المعنى، أي إن الكتابة كانت جهدًا ذهنيًّا ونفسيًّا قبل أن تكون جهدًا لغويًّا، وظهرت في

غضون ذلك «لوحات» أو حكايات كثيرة لها من المعاني ما لا تسعه الصفحات المحددة التي قررت تخصيصها للجزء الثالث، وكنت أعتزم أن يكون الأخير، ولكن أصدقائي الذين قرءوا المخطوط الأول — وهم بترتيب القراءة هبة عارف وماهر شفيق فريد ثم محمد عبد العاطي — أعربوا جميعًا عن افتقارهم إلى هذه «اللوحات» أو «الحكايات»، وقرأت بعض الفقرات على صديق عمري الأستاذ أحمد السودة فأشار إلى وجود ثغرات تداركتها، وكذلك فعلت زوجتي نهاد التي قرأت المخطوط بعد اكتماله، ومن بعدها الدكتورة منى إبراهيم، لكنني لم أجد مكانًا «للَّوحات» أو الحكايات فيه، وقررت الاكتفاء آنذاك بذلك السجل «شبه التاريخي» لهذا الكم من الأحداث الأدبية في حياتي، ولكن إلحاح «اللوحات» أو «الحكايات» على ذهني كان ما فتئ يعاودني حتى بعد طبع **واحات مصرية**، وها أنا ذا أرسم أو أحكي بعضًا منها راجيًا استكمال النقص، ولو إلى حدٍّ ما، إذ لم تشهد الحياة في مصر، على المستوى الأدبي وغيره من المستويات، مثل هذا الثراء في التحوُّلات التي يكاد بعضها أن يكون جذريًّا، في نصف القرن الذي أستقي منه مادة هذه «اللوحات».

وانتهيت من واحات مصرية في أغسطس، ولكن الانتهاء من المخطوط الأول كان لا يُمثِّل إلا مرحلة واحدة، فَسَدُّ الثغرات يتطلب المزيد من الجهد، ولم أكن به ضنينًا، لكنَّني شغلت في سبتمبر بجهد آخر، هو محاولة الانتهاء من الكتب الثلاثة الباقية من الفردوس، فوضعتها نصب عيني، وساعدتني الراحة النفسية لتولي الدكتورة منى الحلواني رئاسة القسم، فهي أستاذة قديرة، دمثة الخلق، تعرف أقدار الرجال وتجيد التعامل مع الجميع، فوضعت الواحات جانبًا وعمدت إلى الفردوس وإلى جانبي، ولا أقول من ورائي، الدكتور ماهر شفيق فريد، يحثُّني ويستنهضني؛ فالشهور تجري سراعًا، والكتب الثلاثة الأخيرة تتكون من ألفين وسبعمائة بيت من الشعر تقريبًا، والعمل يقتضي التفرغ شبه الكامل، كما شجعني ظهور الجزء الثالث بحواشيه، وما لبث الدكتور ماهر أن كتب مقالًا رائعًا نشره الأهرام في نوفمبر ٢٠٠١م، فكان بمثابة حافز جديد على الانتهاء من الملحمة كلها.

كان قد حدث في إبان تلك الأيام — وتحديدًا في يوليو ٢٠٠١م — أن نشب نزاع غير مفهوم بين المجلس الأعلى للثقافة وهيئة الكتاب، وكان المجلس يَعتزِم إصدار ترجمة كاملة لدائرة المعارف الإسلامية (**The Encyclopaedia of Islam**) وهي الموسوعة التي كان قد شرع في ترجمتها الدكتور عبد الحميد يونس والأستاذ إبراهيم زكي خورشيد رحمهما الله ثم توقف العمل بها، وكانت هيئة الكتاب قد أصدرت قبل عامين من ذلك مختارات منها، شاركت أنا في ترجمة بعضها، في نحو ثلاثين جزءًا، وأقول مختارات لأنَّ المحرِّرين

حذفوا الكثير مما يمسُّ الإسلام أو نبي الإسلام أو القرآن، وكانت الموسوعة العربية قد طبعتها الهيئة بالاشتراك مع مركز الشارقة الإعلامي (بالإمارات العربية المتحدة) بسبب ضخامة التكاليف، وقد شهدتُ بنفسي آخر مرحلة من مراحل خروجها للنور عندما زار رئيس تحرير الموسوعة الأجنبية، وهو هولندي، مصر للاتفاق على بعض التعديلات التي اقتضاها إعداد الموسوعة للنشر بالعربية، وكان قد سمع عني واطلع على بعض كتبي، فاجتمعنا معه أنا والدكتور سمير سرحان وقص علينا ما يكابده الدكتور نصر حامد أبو زيد في الغربة بسبب اتهامه بالكفر في مصر (عقب نشره بحوثًا في لغة القرآن ومفهوم النص) وطال الاجتماع حتى أربى على أربع ساعات ناقشنا فيها كل التعديلات أو معظمها، ولم يمضِ عام حتى اطَّلع على «الصورة الموجزة» للموسوعة وأصدر الإذن بنشرها. ولم يكن الخلاف «مفهومًا» كما قلت، لأن ترجمة عمل أجنبي يتمتع بحماية حقوق الطبع والنشر يقتضي استئذان صاحب الحق ودفع ما يطلبه من حقوق، وهذا هو ما يفعله المجلس الأعلى للثقافة فعلًا، فإذا كان يريد إعادة ترجمتها — بعد استكمالها ونشرها — (ولو في صورة مختصَرة أو معدلة) — فما عليه إلا أن يتَّخذ الإجراءات المعترف بها دوليًّا ويشرع في التنفيذ. ولكن الذي حدث هو أن باب «أخبار الأدب» في صحيفة الأخبار اليومية شنَّ هجومًا ضاريًا على الهيئة المصرية العامة للكتاب بسبب إصدارها هذه الموسوعة (التي استغرق إعدادها سنوات طويلة) ولم يمضِ أسبوعان حتى اتخذ الهجوم طابع التجريح واتهام رئيس الهيئة بالتربح من أموال جهة أجنبية (ولو أنها عربية) وكان العمود الذي يكتبه جمال الغيطاني يتضمَّن تُهَمًا يُعاقب مرتكبُها بعقوبات قانونية، مما أغضب الكثيرين وأدَّى إلى تدخل رئيس تحرير الصحيفة اليومية، وكان من الممكن أن تحلَّ القضية داخل وزارة الثقافة بين المجلس الأعلى والهيئة دون تدخل الصحافة، ولكن سلسلة المقالات أدَّت إلى معركة أخرى قدم على أثرها جمال الغيطاني استقالته من الإشراف على باب أخبار الأدب في الصحيفة اليومية، مُكتفيًا برئاسة تحرير مجلة **أخبار الأدب** الأسبوعية.

وتحوَّل باب «أخبار الأدب» في الصحيفة اليومية بعد أن تولى رئاسته تلميذي السابق مصطفى عبد الله (وزوج تلميذتي السابقة عزة ابنة الكاتبة إحسان كمال) إلى باب إخباري «متحرك»، ولكنه لم يعد يتضمن «المقابلات» الصحفية أو التحقيقات التي كان جمال الغيطاني مُولعًا بها؛ فهو ينتمي إلى جيلي الذي يحب الكتابة وتطارح الأفكار، وكان قد كلف الصحفية سامية سعيد بإعداد مقابلة معي قبل سفري (المعتزَم) إلى أمريكا وأعددت

إجابات الأسئلة وأرسلتها إليها بالفاكس، ثم مضى جمال فمضت مقابلتي في الهواء، ولم يقدر لها أن تنشر أبدًا، ولم تعد لديَّ أخبار من التي يحبها رئيس الباب الجديد، على حبِّه لي وحبي له، ولكن **أخبار اليوم** كانت قد فتحت الباب لمن يحبُّ تطارُح الأفكار فاستعضت بالباب الذي تُشرف عليه آمال عثمان عن باب الصحيفة اليومية، ونشرت عرضًا لكتاب عن **حكمة الفراعنة المفقودة** وكتبت مقالًا كبيرًا عن **خداع ما بعد الحداثة** تناولت فيه أسس التيار وشرحت أسباب سوء فهمه في مصر.

ولكن الانتهاء من الملحمة كان شغلي الشاغل، فتوفرت على الترجمة طيلة الخريف ثم باقي شهور العام فانتهيت منها في أوائل ديسمبر، وكنت في أثناء ذلك قد انتُدبت للإشراف على قسم اللغة الإنجليزية في كلية آداب بنها، التابعة لجامعة الزقازيق، وهناك رأيت من العجب ما يتطلَّب قسمًا مستقلًّا من هذا الفصل، ولم يهدأ بالي إلا حين قرأ ماهر شفيق فريد المخطوط مع الحواشي، وصحَّح فيه ما يحتاج إلى تصحيح، ودفعت به إلى المطبعة، وقلت إن لي أن أستهل العام الجديد قرير العين. ولا شكَّ أن جهد عام ٢٠٠١م قد أجهدني إجهادًا كبيرًا، فإذا بي أتقاعَس عن الجلوس إلى المكتب، وأُفضِّل القراءة في «الصالة» (في الكرسي المريح) وكنتُ أعزو ابتعادي عن المكتب — في أعماقي — إلى «العين» (الحسد) مع مُنافاة ذلك للمنطق الذي أحيا به، ثم قلت في نفسي آخر الأمر إنني لم أحصل على عطلة من أيِّ نوع، وقررت أن أقضي بقية ديسمبر في عطلة خصوصًا وأن العيد على الأبواب، وإذا برئيس الجامعة يتَّصل بي ويقول لي — من خلال رسالة أرسلها لي الدكتور محمد حمدي إبراهيم — إن عليَّ أن أسافر إلى دمشق مع الدكتورة منى إبراهيم لزيارة مقرِّ التعليم المفتوح في جامعة دمشق وفي جامعة البعث في حمص، مع وفدٍ يمثل كلية الإعلام برئاسة الدكتور علي عجوة عميد كلية الإعلام، وعُضوية الدكتورة ماجي الحلواني والدكتور صفوت العالم، وأن موعد السفر قد تحدَّد يوم ٢٠ ديسمبر!

كانت زيارة دمشق حلمًا يُراودني منذ الطفولة، وكنت أرجو أن أزور سوريا زيارة كاتب عربي يَحمل في قلبه حبًّا جارفًا للشام وأهلها، وللغة العربية وتاريخها، لا زيارة أستاذ مكلَّف بمهمة تعليمية محددة، وكنت قد قررت — كما ذكرت — أن أمتنع عن السفر حتى أتفرغ لمشروعاتي الأدبية، ولكن فرصة الزيارة قد سنحت وربما لن تتكرَّر، مثلما لم تتكرر زياراتي للهند وسريلانكا وباكستان وزامبيا وأنجولا وموزمبيق وماليزيا والسنغال والعراق والإمارات والكويت، على عكس زياراتي التي تكرَّرت لبلدان أخرى كثيرة! وكان لا بد إذن من الترحيب بالزيارة، ولو سمحت لنفسي بتسجيل خواطري ومشاعري ما وسعني

كتاب قائم برأسه، ويكفي أن أقول إنني خرجت من الزيارة أشد إيمانًا بالروابط الخاصة التي تربط مصر بسوريا، وبأن أي شك في القومية العربية يتحطَّم بل ويتلاشى عند مواجهة هذه الحالة الخاصة — ولنُسمِّها حالة «مصر والشام» على نحو ما كان أسلافنا يُسمُّونها! وأهم ما عدت به قول الدكتور شماس، مدرس اللغة الإنجليزية بجامعة دمشق، محقًّا: «إن المجتمع العربي واحد» كانت العبارة درسًا في الإيجاز والبلاغة، فالطلاب هم الطلاب، والأساتذة هم الأساتذة، والناس هم الناس، بل و«المرور» هو المرور! كان دفء الصحبة العربية هو العامل الغلاب طيلة الرحلة، وكان هو الذي قهر المظهر الأوروبي في فندق كارلتون الحديث، وأما زيارتنا — أنا والدكتورة منى — لمدينة حمص، فقد أتاحت لي المزيد من الاستغراق في التاريخ؛ إذ صحبت شابًّا متخصِّصًا في الكمبيوتر (يُدعى قُتيبة) طاف بي أرجاء المدينة وحدثني عن تاريخها، ونعمتُ معه بأحلى الأوقات رغم برودة الجو وخوفي من الأنفلونزا! وعندما عدت إلى القاهرة وحدي، إذ أصرت الدكتورة منى على البقاء للاستزادة من مباهج الشام، لم يكن يتردَّد في خاطري غير بيت واحد من الشعر نظمه محمود حسن إسماعيل وتغنَّى به عبد الوهاب (وهو: نحن شعبٌ عربيٌّ واحد/ضمَّه في حَومة البعث الطريق) وكان رؤى الماضي تنثال في ذهني، رُؤًى استقيتها من كتب التاريخ، ولم تكن تحتاج إلا إلى بعض الملامح المادية حتى تتجسَّد حية نابضة، فنحن حقًّا شعب واحد، نتكلم لغة واحدة، ونواجه مصيرًا واحدًا.

٢

كان العالم مشغولًا بما اصطلح على تسميته «أحداث ١١ سبتمبر» ألا وهو الهجوم بالطائرات المدنية هجمات انتحارية على مركز التجارة العالمي في نيويورك ومقر وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن، وما تلا تلك الهجمات من حرب أمريكية في أفغانستان، وقد عَملت أجهزة الإعلام الغربية على إظهار المسلمين بمظهر الهمج المتوحِّشين، وتبارى الكتَّاب في التحليل والتعليق، وتبارت الدول العربية والإسلامية في التنصُّل من المسئولية عن تلك الهجمات الشرسة، خوفًا من بطش أمريكا، القطب العالمي الأوحد، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وبدا للجميع أن العالم قد تغيَّر، وتغيَّر ما يُسمى بالخطاب الإعلامي الغربي؛ إذ تحوَّل إلى ما يُسمى بإدانة الإرهاب، وكان التعريف الوحيد لديهم هو قتل الأبرياء من المدنيين، وذلك هو التعريف القديم الجديد، أو الراسخ المتجدِّد، وأجهزة الإعلام الغربية أجهزة عالَمية جبارة، تساندها قوة اقتصادية قاهرة، إلى جانب القوة العسكرية

المهيمنة التي لا تسهل معارضتها. وكنت — باعتباري من مسئولي التحرير في مجلة سطور الشهرية، مشغولًا بتحليل الأبعاد الثقافية للصراع الجديد الذي فرضته أحداث ١١ سبتمبر، فكنتُ أرى من الضروري أن أتابع ما تقوله الصحف الأجنبية، ومحطات الإذاعة والتليفزيون الغربية، لا الاكتفاء بما نقوله نحن أبناء العرب، ووجدتني رغم أنفي أُجَرُّ جَرًّا إلى الفكر السياسي — ولو من باب الفكر الثقافي أو الأدبي — وكنت أقاوم ذلك بأن أشغل نفسي بأشياء أخرى دون نجاح يذكر، حتى شهدت حوارًا بين اثنَين من كبار المثقفين حول موقف العرب من الأحداث العالَمية، وما تُمليه التغيرات أو التحوُّلات الجديدة من ضرورة التغيير، خصوصًا في أسلوب الكفاح في سبيل نصرة القضية الفلسطينية، قضية العرب الأولى، وقد بدأ الحوار فجأةً وعلى غير انتظار بعد جلسة من جلسات الندوات الثقافية في معرض الكتاب، أي إنه بدأ دون ترتيب سابق، وكان ثلاثتنا واقفين لدى قاعة الندوة، والناس يَنصرفُون، فتوقعت ألا يطول، ووقفت أستمع دون المشاركة، فالمتحدثان من المتكلمين الموهوبين، ولكل منهما كتبه ودراساته، ولكن الخلاف بينهما لم يكن متوقعًا، بل لم يكن الحوار في بدايته يشي بإمكان ظهور أي خلاف، ولذلك لم أهتم في البداية، لكن الخلاف احتدم فشدَّني، وكان كل منهما يريد مني أن أشاركه وجهة نظره. وسوف أوجز هنا ما قاله كل منهما دون إفصاح عن الأسماء.

بدأ الحوار بأن ذكر الأول أن على العرب أن يعملوا على تغيير الصورة التي دأبت أجهزة الإعلام الأمريكية على ترويجها للعرب، وهي صورة القتَلة السفاحين الذين لا يُقدِّرون قيمة الحياة فيقتلون الأبرياء من المدنيين ويُروِّعون السكان الآمنين؛ فهؤلاء إرهابيون، وأجهزة الإعلام المعادية تُصوِّر المكافحين الفلسطينيين في هذه الصورة، بل وتُعمِّمها حتى تشمل العرب كلهم، والأخطر من ذلك أنها تربط هذه الصورة الفلسطينية بالصورة الأفغانية، أي الصورة التي تُنسب إلى المتطرفين الإسلاميين بقيادة أسامة بن لادن وأيمن الظواهري. ووافقه الثاني (ووافقتُه ضمنًا) على ضرورة التغيير، لكنه تساءل عن أسلوب العمل في سبيل التغيير، والعرب مُتفرِّقون لا يكادُون يجتمعون على شيء، ومن ثم أثار الشك في إمكان تحقيق ذلك وقال ما أثار المتحدِّث الأول — أو قل إنه ألقى قنبلة غير متوقعة بأن قال بنبرات خفيضة: الأفضل أن يتوقف الفلسطينيون عن الهجمات الانتحارية على النساء والأطفال والأبرياء في المدن! وردَّ الأول قائلًا: تُريدهم أن يوقفوا الانتفاضة؟ هل تدعو سيادتكم إلى التسليم لليهود ولأمريكا؟ وأجاب الثاني بنفس النبرة الخفيضة: لقد ارتبطت الهجمات الانتحارية على الأبرياء بالإرهاب في أذهان الرأي العام

الغربي ولم يعدْ من السهل بعد هذه الشهور الثلاثة (وكنا قد تجاوزنا منتصف يناير ٢٠٠٢م) أن نقنع العالم بأن الهجمات الانتحارية الفلسطينية على الأبرياء ليست من قبيل الأعمال الإرهابية، بل إن اليهود سوف يستغلُّونها في قهر الشعب الفلسطيني والعودة بالقضية إلى نقطة الصفر! بل سوف يجدون التأييد من العالم الذي تحكمه أمريكا بعد أن حصلت على موافَقة ٨٢ دولة — ومن بينها الدول ذات الوزن الثقيل — على مواصلة ما تسميه حملة الكفاح ضد الإرهاب! وقال الأول: إنه مذهول لسماع هذه النغمة الانهزامية، وقال إنه لم يسمع بشعبٍ تحرَّر دون كفاح، مهما تكن صورة الكفاح وأشكاله، وأومأ إليَّ لأُبديَ الموافَقة على أن الكفاح مشروع، فقلت له إن أحدًا لا يستطيع إنكار ذلك، فاستمرَّ قائلًا إنه لولا انتفاضة الشعب الفلسطيني الأولى عام ١٩٨٧م ما تمكن ذلك الشعب من إقامة سلطته المستقلة على بعض المدن في الضفة الغربية كبداية أو كنواة للدولة المستقلة وعاصمتها القدس، وإن الانتفاضة الثانية سوف تُقنع العالم بحيوية هذا الشعب العربي وترغم إسرائيل على الرضوخ وتحقيق مطالبه! وكان صوته قد تهدَّج وعلا بعد أن غلبه الحماس، وكنا ما نزال واقِفين لدى الباب، والساعة قد قاربت العاشرة مساءً، فقلت لهما إن الموضوع لا يُمكن مناقشته هكذا — ولكن الثاني قاطعني وقال: اسمحوا لي بكلمة واحدة قبل أن نَفترق — وشرع يتكلم كلامًا أراه جديرًا بالتلخيص هنا. قال: «كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى قد اندلعت إبان عهد انقسام العالم «القديم» إلى مُعسكرَين، فكان الاتحاد السوفييتي لا يزال موجودًا، وكان مجرَّد وجوده يعني أن على العالم أن يعمل حسابًا لذلك الوجود، حتى ولو لم يتدخَّل الاتحاد السوفييتي مباشرةً في القضية الفلسطينية على نحو ما تدخل في قضايا أخرى، وكانت أمريكا ما زالت قطبًا واحدًا من قطبَين، وكانت أوروبا على مشارف وحدة جديدة تهدد بأن تجعل منها قوة ثالثة، وكان الشعب الفلسطيني ينتشر في شتى ربوع الضفة الغربية ويلقي أطفاله بالحجارة فحسب على جنود الاحتلال، فكان من السهل على العالم أن يرى كفاح شعبٍ يَخضع للاحتلال ضد جيش الاحتلال، وكانت مواصلة الانتفاضة تؤكد إعلاميًّا مشروعية كفاحها في عيون الرأي العام في كل مكان! وهكذا كانت إسرائيل تخضع للضغط عالميًّا حتى تستجيب لمطالب «أطفال الحجارة» الذين أصبح كفاحهم رمزًا للصمود — صمود العزَّل ضد المدججين بالسلاح وضد المحتلين الغاصبين، وكان لا بد من مسيرة السلام للقضاء على ذلك الحال ...»

وهنا قال الأول بسرعة «وهذا يؤيد كلامي!» لقد نجح الكفاح واستمع العالم! ولكن الثاني دعانا إلى الجلوس ولو خمس دقائق حتى يستكمل عرض وجهة نظره، وكان يردد

«أرجوكم أرجوكم!» فجلسنا في قاعة الانتظار الخارجية المواجهة لمكتب سمير سرحان في المعرض، وكان ما زال بداخله، وكان بعض المشاركين في الندوة ما زالوا معه يتناقشون، وهنا استأنف الثاني حديثه قائلًا ما موجزه:

«لقد كانت مسيرة السلام التي انتهت بإقامة السلطة الفلسطينية حيلة بارعة؛ لأنها أدت إلى إيجاد عدوٍّ ملموس، عدو مسلح، ويتَّصف بكل ما تتصف به الجيوش النظامية شكلًا على الأقل، وذلك حتى يتحول كفاح الشعب إلى اعتداءات من المسلحين (gunmen) الذين يَسهُل وصفهم بعد ذلك بالإرهابيين إذا اعتدوا على المدنيين، أو يسهل إعلان الحرب عليهم إذا اعتدوا على القوات الإسرائيلية! ولا تنسوا أن اتفاقية السلام التي وُقِّعت عام ١٩٩٤م أصبحت سلاح دعاية في يد إسرائيل، فالذي يخرق هذه الاتفاقية يُعتبَر منتهكًا للقوانين والأعراف الدولية، ويُمكن لليهود أن يقولوا: إنهم مُتمسِّكون بالسلام وإنهم يسعون لتسوية الخلافات المعلَّقة في حين أن العرب هم الذين يهدمون السلام.»

وأسرعتُ هنا أقول — بعد أن التزمت الصمت طيلة الوقت تقريبًا — إن العالم ليس مغفَّلًا، والعالم يعرف أن اتفاقية إقامة السلطة الفلسطينية اتفاقية حلٍّ مرحلي، أي إنها تمثل مرحلة أولى ولا بد أن تتلوها مراحل أخرى، وإنَّ العالم كان يوافق أو على الأقل لم يكن يعترض على الانتفاضة الثانية في سبتمبر ٢٠٠٠م، وكانت الدول الكبرى — وعلى رأسها أمريكا — تسعى لإيجاد حلٍّ للقضية الفلسطينية؛ بدليل جهود الرئيس السابق كلينتون ومحادثات عرفات وباراك، وأيَّدني الأول وأضاف: إن الكفاح لا بد أن يستمر حتى يستمع العالم من جديد، ولكن الثاني عاد يقول:

«آه! ولكن العالم قد تغيَّر وتغيرت سياسة أمريكا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م! وكان يجب على العرب أن يبتعدوا عن كل ما يربطهم بما يُسمَّى الإرهاب حتى لا تربط أجهزة الدعاية المُعادية بين هذه الأحداث وبين هجمات الفلسطينيين الانتحارية، فلقد نجحوا حقًّا في قتل العشرات من المدنيين ومن بينهم نساء وأطفال، ولكنهم يربطون كل يوم بين عرفات — المناضل الصادق في سبيل تحرير بلاده — وبين أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، وجهاز الدعاية الأمريكي قاهر جبار! ولقد استمعت إلى عدد من المحلِّلين السياسيين الأوروبيين والأمريكيين، غداة أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وكانوا يقولون في نبرات تشي بالثقة والمعرفة ببواطن الأمور إن أمريكا سوف تُحاول إيجاد تسوية عاجلة لقضية الشرق الأوسط حتى تكسب تأييد العرب في حربها ضد أفغانستان وضد الإرهاب في كل مكان! ولم يَفُتِ الوقت بعد! فلقد نجحنا في تصحيح الزعم بأنَّ الإسلام دين إرهابي،

وبدأ العالم يرى حقيقة ما حدث، وإن كانت أصوات أعدائنا ما تزال تنعق وتزعق، وعلينا إذن أن نقلع عن الهجمات الانتحارية ونطالب باستئناف مسيرة السلام؛ فالحرب الأفغانية انتهت أو كادت، وسوف ينسى العالم سريعًا موضوع الإرهاب الانتحاري إذا أقلعنا عن ممارسته!»

وقال الأول بل علينا أن نُواصل الكفاح؛ فقلت له لا خلاف على ذلك ولكن الدكتور (...) يتحدث عن أسلوب الكفاح، لا عن الكفاح نفسه، فقال الثاني في نبرات ما زالت خفيضة إن الأيام سوف تثبت لنا صحة ما يدعو إليه؛ فنحن نعيش في عصر الديموقراطية الغربية، وهي صورة من صور السيطرة على الناس بأجهزة الإعلام؛ أي إنَّ السلاح الماضي في هذه الصورة الجديدة من صور الديموقراطية هو تسخير أجهزة الإعلام لإثبات اللونين البارزين اللذين لا يستطيع الناس أن يروا سواهما — الأبيض والأسود — أي من هم الأخيار ومن هم الأشرار، وإن الهجمات الانتحارية على المدنيين لو استمرت فسوف تضع الفلسطينيين في الخانة الأخيرة، وأسرعت أقول: ولكن ماذا بيدهم أن يفعلوا؟ فساد الصمت لحظات خلتها دهورًا قبل أن يعود الأول إلى الكلام دون حماس هذه المرة قائلًا: لو دعم العرب كفاح الفلسطينيين — وقد وعدوا بدعمه — فلن نخشى شيئًا مما تخشونه! فقلت ضاحكًا لو! وآه من كلمة لو! ولكن الثاني قال: لا! حتى لو دعموا قتل الأبرياء — تذكر أننا نواجه الاتهام بأننا إرهابيون نقتل النساء والأطفال! لا ... لا تقُل لو! ليس لأن ذلك مستحيل، وليس لأن الدعم لا قيمة له، بل لأنَّ العالم قد تغير! وما دامت إسرائيل قد أقنعت العالم بأنَّ تعريف الإرهاب هو قتل المدنيين، وما دامت أجهزة الإعلام الغربية تُضخِّم أحداث التفجير الانتحارية بالتركيز على الضحايا الأبرياء من النساء والأطفال، فلا بدَّ أن يتوقَّف الفلسطينيون عن هذه الأحداث! وقال الأول: أنا ما زلت أؤيد كفاح الفلسطينيين، وضحك الثاني وقال: وهل أعارضه أنا؟ كل ما هناك هو أنني أرجو أن نُقلع عمليًّا عن الأفعال التي تُصوِّرنا في صورة الإرهابيين!

وافترقنا في ذلك المساء، وعدتُ إلى المنزل مباشرةً لأنظر ما سوف أكتبه في افتتاحية عدد فبراير من مجلة **سطور**، وخطر لي أن أسجِّل وجهتَي النظر، ولو دون تعليق من جانبي على أيهما، لكنني عدلت عن ذلك لثقتي في أن كلًّا من الكاتبين سوف يكتب ما يُعتبَر ملخَّصًا للحوار، ولو لم يذكر فيه اسم مُحاوره، وينشره في الصحيفة التي اعتاد النشر فيها، وتصورت أن تصدر هذه المقالات قبل صدور المجلة، فعدلت عن الإشارة إليها، ثم جعلت أتابع تغطية أجهزة الإعلام الغربية للموقف فتذكرت كتاب كارين آرمسترونج

عن **الحروب الصليبية** وهو الكتاب الذي صدر قبل عشر سنوات تقريبًا، وفيه تقول الكاتبة استنادًا إلى استقراء مُتعمِّق للتاريخ أن إسرائيل تمثل للغرب الانتقام الذي تأخَّر لهزيمته في فلسطين على يد صلاح الدين الأيوبي، وأن نفوس الغربيين كانت تتحرَّق شوقًا إلى الأخذ بالثأر من الشرق، وفي فلسطين تحديدًا، في إطار ديني لا في إطار علماني، وذلك هو الذي يُفسِّر تدليل الغرب لإسرائيل، وتغاضيه عن تجاهلها لقرارات الأمم المتَّحدة ومجلس الأمن، كما يفسر أيضًا هجومه الضاري على الإسلام وتشويه صورته، في حين أن القوى الغربية قد تذرَّعت بقرارات مماثلة صادرة من الأمم المتَّحدة لشن الحرب على العراق، وعلى يوغوسلافيا، وعلى أفغانستان! بل إنها تُريد ضرب العراق من جديد استنادًا إلى هذه القرارات نفسها؛ فالواقع هو أن فلسطين لا تزال تمثل دافعًا عاطفيًّا للغرب على ضرب الشرق! وكنتُ أعتزم أن أترجم ذلك الكتاب مع الدكتورة فاطمة نصر، وأن تصدر الترجمة عن دار **سطور** بالاشتراك مع مركز الدراسات التاريخية بجامعة عين شمس، ولكنَّ المشروع لم يتحقَّق، وإن كان الكتاب قد خلَّف في نفسي انطباعات لا تَنمحي.

٣

كان لديَّ ما يشغلني سوى ذلك آنذاك، وهو العمل على سرعة إصدار كتاب جديد عن نجيب محفوظ بمناسبة بلوغه عامه التسعين، مدَّ الله في عمره، وكان سمير سرحان قد صارحني برغبة الهيئة في الاحتفال بهذه الذكرى، وذكَّرني بالكتاب الأكاديمي الذي كنا أصدرناه غداة حصول الكاتب الكبير على جائزة نوبل (بالإنجليزية) وأشرتُ إليه في **واحات مصرية**، وتساءل عن إمكان إصدار نسخة له بالعربية بحيث نَحتفل بها في معرض الكتاب؛ إذ كان قد خصص أسبوعًا في المعرض ذلك العام للاحتفاء بنجيب محفوظ، وصدور مثل هذا الكتاب كفيل بجذب الأنظار وإثارة الاهتمام من جديد بعبقرية كاتبنا الفذ. وكان ذلك الحديث قد جرى في أواخر ديسمبر، ولم يكن أمامنا إلا أقل من شهر، فقلت لسمير: إنَّ الكتاب الإنجليزي مُترجَم في معظمه عن أصول عربية — باستثناء مقالات الدكتورة ملك هاشم والدكتورة نهاد صليحة، والدكتورة نيفين غراب، والدكتورة منى مؤنس ودراستي المطولة عن لغة نجيب محفوظ، وباستثناء الببليوغرافيا الإنجليزية الكاملة (حتى ١٩٨٨) التي أعدها الدكتور ماهر شفيق فريد، واقترحت إصدار كتاب يمثل استقبال العالم لنجيب محفوظ وليكن بالعربية والإنجليزية، وأن نُسمِّيه **نجيب محفوظ في عيون العالم**، بحيث يجد القارئ فيه آراء الأجانب في كاتبنا الكبير، ويجد

الدارسُون فيه مراجع أو أسماء المراجع اللازمة للدراسات الخاصة بأدب محفوظ بالعربية أو بالإنجليزية، فوافقني ثم سألني: وهل تستطيع إنجاز ذلك والمعرض على الأبواب؟ فسألته وهل خذلتك يومًا ما؟ فضحك وقال إذن توكَّل على الله! وفي الصباح الباكر اتَّصلت بماهر شفيق فريد وبدأنا العمل!

كنتُ أعرف أن ماهر لديه كتابات في هذا الموضوع، وذكرتُ أنني أشرفت على رسالة دكتوراه أعدتها ماجي نصيف عن اتجاهات النقد الغربي لنجيب محفوظ (عرض لها ماهر في مقال بالعربية)، وأن هناك رسائل جامعية بالإنجليزية عنه (عرض لها ماهر جميعًا)، وكتابًا كتبه رشيد العناني بعنوان **البحث عن المعنى** بالإنجليزية (عرض له ماهر أيضًا)، لكنَّني كنت أريد استيفاء الموضوع ولم أجد خيرًا من تلميذتي السابقة الدكتورة مها فتحي السعيد للحصول على المادة اللازمة من شبكة الإنترنيت، فاتَّصلت بها وكلفتها بالبحث والحصول على نسخ مطبوعة من كلِّ ما كُتب عن محفوظ بالإنجليزية في أمريكا وأوروبا إن أمكن، كما وجدت في موسوعة **الترجمة الأدبية إلى الإنجليزية** الصادرة عام ٢٠٠٠م (من تحرير أوليف كلاس) مادة يمكن ترجمتها عن نجيب محفوظ، ومراجع أخرى يمكن الإفادة منها. وهكذا انطلقنا في مطلع عام ٢٠٠٢م نعمل بجد ونشاط في إعداد المادة، فجمعنا ما هو متاح ودفعنا به إلى مكتب الكمبيوتر (أو «الشركة الدولية لخدمات الكمبيوتر» International Computer Services) وأما صاحب المكتب أو الشركة فهو أحمد ششتاوي جاد، لكنه اشتهر بالاسم الأوسط فأصبح يكتفي بأحمد ششتاوي، وقد توثَّقتْ علاقتي به على مر السنوات الست الأخيرة، وبالعاملين معه (أحمد وأسامة وطارق) وبمَن يُساعده في كتابة النصوص الإنجليزية (أحمد عبده) حتى أصبح المكتب يُمثِّل الركن الركين لي في كل ما أنشر من كتبٍ؛ فالعاملون به جادُّون مخلصون ويؤمنون بالعمل إيماني به، وهم من الصفوة حذقًا ومهارةً، حتى الناشئون أو من يُعاونون المكتب مثل مصطفى (أو جمال أو غيره). وشُغلت أنا بكتابة دراسة بالإنجليزية أَرُدُّ بها ردًّا غير مباشر على ما ذكره إدوارد سعيد من أن نجيب محفوظ ليس له مُترجم واحد متخصص في أسلوبه، بل له مترجمون كثيرون، ولكلٍّ منهم أسلوبه، ولذلك فليس من السهل على دارس نجيب محفوظ بالإنجليزية أو على قارئه أن يتبين ملامح ذلك الأسلوب، وكان ردي غير المباشر يقول: إنَّ نجيب محفوظ ليس له أسلوب واحد يمكن اعتباره علَمًا عليه؛ فلقد تطور أسلوبه من العربية الكلاسيكية التي تحفل بالأصداء القرآنية السامية في رواياته الأولى، إلى أسلوب الواقعية التي تتوسَّل بالعربية المعاصرة ((Modern Standard Arabic (MSA))،

إلى الأسلوب الرمزي والإيحائي، واستعنت في حجتي بدراستي السابقة عنه، وعكفت على الكتابة حتى انتهيت منها في غضون أسبوعين، كما ترجمت مقالات إدوارد سعيد وروجر ألن وريتشارد داير عن نجيب محفوظ، وكان ماهر مشغولًا — ليل نهار — في إعداد أكمل وأشمل ببليوغرافيا إنجليزية لنجيب محفوظ، وفي يوم المناقشة السياسية التي ذكرتها في القسم السابق، كانت المادة قد اكتملت، فعرضتها على سمير سرحان فقرأها واقترح بعض التعديلات، وكتب مقدمتَين؛ مقدمة بالإنجليزية للقسم الإنجليزي وأخرى بالعربية، وبدأت التجارب الطباعية الجادة، ولم يبدأ الاحتفال بنجيب محفوظ في ٢٥ يناير حتى كان الكتاب قد طُبع، وإن كان عدد النسخ التي طبعت محدودًا، لكننا نجحنا في عقد ندوة — في إطار أسبوع نجيب محفوظ بالمعرض عن عالَمية محفوظ، وندوة أخرى عن الترجمة، وقد حظيَت كل منها بتغطية إعلامية لا بأس بها.

ولقد ذكرتُ ذلك كله حتى أضرب مثلًا للتعاون العلمي الذي كان ولا يزال يميز علاقتي بكلٍّ من سمير سرحان وماهر شفيق فريد، وهو التعاون الذي استطعنا بفضله من الانتهاء من هذا الكتاب، الذي أشاد به كلُّ مَن اطلع عليه، في أقل من شهر واحد، وإذا كان صحيحًا أن معظم المادة كانت مُتوافرة لدينا من عملنا الجامعي وجهودنا الدائبة في المجال الثقافي العام، فإن جهد التجميع والتنظيم والعرض لم يكن هينًا، وكان التعاون هو الذي جعل الكتاب يبدو مُتجانسًا وموحَّد الغاية والهدف. وكان من أغرب المفارقات أن أشاهد، أثناء الندوة الخاصة بنجيب محفوظ، «حسن» المخرج جالسًا بين الحاضرين! وحييتُه تحية سريعة أثناء النقاش؛ إذ لم تكن اللحظة مناسبة «للدردشة»، ولكنه اتصل بي — كما توقعت — في اليوم التالي، وأصرَّ على أن يراني في المساء، وحاولتُ التملص لأنني لم أكن أحب السهر في برد يناير، لكنه ألحَّ فأدركت أن لديه قصصًا من أمريكا فوافقت.

الواقع هو أنني كنتُ أريد أن أستمع لوجهة نظره في تأييد أمريكا لإسرائيل، وفي معاملة أمريكا للعرب وللمسلمين بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، فلم يكن قد وصل من أمريكا أحد من معارفنا حتى تلك اللحظة ليُخبرَنا عن الأوضاع «على الطبيعة»، ولذلك أعددت نفسي لسماع القصص وتهيَّأت ذهنيًّا للاستيعاب، لكننا ما إن جلسنا في ركننا المفضل في الفندق نفسه حتى فاجأني بقوله: «هذه آخر مرة أزور فيها مصر!» وضحكت رغم أنفي لأنني أعرف الرجل جيدًا وأعرف مدى ارتباطه بالوطن، حتى لو تحاشى لقاء زوجته السابقة، أو تظاهر بتجنُّب «التعامل» مع المصريين، فلم أعلِّق وطلبت القهوة لي

وله، وجلست صامتًا، ثم قدمت له بعض كتبي الأخيرة، كدأبي في كل لقاء بيننا، فجعل ينظر فيها كأنما ليشغل يديه وعينيه بشيء، وبعد برهة قال باقتضاب: مبروك! وضحكتُ ثانيًا وقلت له مباشرةً هذه المرة: ما الذي أغضبك هذه المرة من مصر؟ وقال بسرعة: أغضبني؟ كلا لم يُغضبني شيء، لكنني لم أعد أحتمل الهزة النفسية التي أتعرض لها كلما زرتُ مصر، فأنا أبكي حياةً ضائعة، ويذوب قلبي حسرات على ما فاتني من فُرَص النبوغ والإنجاز! فقلت له إنه يستطيع العودة إذا أراد ولن يجد صعوبة في العمل بالإخراج وبالتمثيل بل وبالتأليف، فقال: «قد يكون ذلك صحيحًا من الناحية الموضوعية، ولكنني لا أستطيع الآن نفسيًّا أن أعود لأيٍّ من ذلك! فلقد دخلت في السنوات الأخيرة حلقة مفرغة من العيش الرخيِّ وجمع المال، ولا أستطيع مهما حاولت أن أكسرها أو أن أخرج منها!» وتذكرت صورة الدائرة، وأعجبني أن ألقى صورة أخرى للدائرة المصمتة أي التي لا نجاء منها — والتي جرى العرف على تسميتها بالحلقة المفرغة (Vicious circle) — وتطلعتُ إلى أن يحكي لي حسن عن ظروف وقوعه فيها، فقلت ما كان دبشليم الملك يقوله لبيدبا الفيلسوف في **كليلة ودمنة**: وكيف كان ذلك؟ فقال حسن:

«تذكر أنني عندما سافرت للمرة الأولى إلى أمريكا منذ خمس سنوات تقريبًا كنت أقول في نفسي: إنها زيارة عمل مؤقتة، وكنت أتصوَّر أنها سوف تنتهي بي، مثل زياراتي للبلاد العربية، إلى عودة «ميمونة» إلى مصر، ولذلك تعمدت أن أُقاوم إغراء الإقامة الدائمة — وهو ما كان يُمكن أن يُصبح غلابًا لو اشتريت منزلًا مثلًا أو تزوجت من أمريكية — بل فضلتُ أن أُقيم في شقة مستأجرة، وأن أتحاشى التخطيط للمستقبل، بل أن أعيش «يومًا بيوم» كما يقولون، وكنت فرحًا لأنني أقيم في مدينة بها مسجد كبير أستطيع أن أصلي فيه الجمعة على الأقل، بل وأن أرتاده كلما أحسست بالضيق، فلا شيء مثل المسجد يربط الإنسان بالجذور، وكنت أفرح عندما أرى المسلمين من غير العرب يؤمُّونه، خصوصًا من بين الأمريكيين، بيضًا أم سودًا. ولكن مهارتي اللغوية — وفي الترجمة تحديدًا — كانت وبالًا عليَّ!»

وكان حسن يعرف أن ذلك سوف يستفزُّني؛ فأنا لا أرى في المهارة اللغوية ما يمكن أن يكون «وبالًا» على أحد، فصمتَ ريثما رشف رشفة من فنجان القهوة ثم عاد ليحكي بإسهاب، كيف أن المسئولين عن المسجد طلبوا منه ترجمة فقرة لإدراجها في خطبة الجمعة؛ فالخطبة كانت تُلقى باللغتين العربية والإنجليزية، وكيف أن الترجمة أعجبتهم، فدفعوا له مبلغًا كبيرًا لا يُوازي في نظره الجهد الذي بذله، لكنه أحب الترجمة وأحب

المكافأة، وسرعان ما شغلته الترجمة عن العمل الفني الذي كان يقوم به في أحد الأفلام مُساعدًا لمساعد المخرج (أو لما نُسمِّيه في مصر المخرج المساعد) ولم تمضِ شهور حتى أصبح له رصيد في البنك يفوق كلَّ ما جمعه من العمل في المسلسلات في البلدان العربية، حتى إنه فكر ذات يوم في العمل مُترجمًا بالأمم المتحدة، وأرسل إلى رئيس القسم العربي رسالة بهذا المعنى، فجاءه الرد مُخيِّبًا للآمال، إذ قيل له إنه قد تقدَّم في العمر، وإن عليه أن ينجح في اختبار تعقدُه المنظمة الدولية للمترجمين، كما أن جدول المرتَّبات لم يكن يرقى إلى ما كان يحصل عليه آنذاك من الترجمة الدينية. وتكتَّم حسن خبر اعتزامه تغيير عمله، وحمد الله سرًّا وجهرًا على أن مكَّنه من هذا العمل، وتدريجيًّا أصبحت مشاركته في الأعمال الفنية مشاركة اسمية، وكان لا بد منها حتى يُبرر إقامته في أمريكا، ثم اقترح عليه أحدهم أن يفتتح أو ينشئ مكتبًا للترجمة وأن يُسميَه مكتب الخدمات الإعلامية، وقال له إن ذلك لن يكون ممكنًا قبل أن يحصل على الإقامة بصفة رسمية وشبه دائمة، فصبر حتى حصل على هذه الإقامة وأنشأ المكتب، ولم يكن به غير سكرتيرة أمريكية من أصلٍ عربي، وتعاقد مع مكتب للمحاسبة حتى يتولى أمر الضرائب وما إليها. وقال إنه ما إن حل عام ١٩٩٩م حتى كان قد اعتاد الحياة الجديدة — مع استمرار عمله اسميًّا في شركة الأفلام القديمة — ودون أن يَنطمِس حلم العودة إلى مصر، بل إنه حضر حفل زفاف ابنته في مصر، واطمأنَّ إلى شفاء زوجته السابقة من مرضها القديم (ولو مؤقتًا) وشعر بأنه قد حقق خير حياة يرجوها هنا وهناك، ونال خير ما هنا وخير ما هناك، وقال بالإنجليزية: the best of both worlds؛ إذ كان ما زال يحلم أن يعود فينتج فيلمًا سينمائيًّا لحسابه؛ فلديه ما يكفي، ويتولى إخراجه بنفسه، وقال إنه كان يحلم أيضًا بأن تتولى الشركة التي يعمل فيها توزيعه عالميًّا! وكان حديث حسن يوحي بأن الرياح ستأتي بما لا تشتهي السفن، فطلبت المزيد من القهوة وجعلت أستحثه على الاستمرار.

فقال: «كان المكتب بداية السقوط في بحر العسل، كما يقولون؛ إذ كنت أقول في نفسي إن رصيدي في البنك لم يصل إلى الحد المطلوب، فأضاعف الجهد، وإذا كنت في البداية أقتصر على الترجمة الدينية، فقد أصبحت الآن أقبل ترجمة أي نص، ومهما يكن الموضوع، مما اقتضى الاستعانة بشابٍّ مصري كان يدرس للدكتوراه ثم تزوَّج أمريكية وأصبح في حاجة إلى العمل، ثم بدأت الشركات الأمريكية التي تَبيع منتجاتها في الشرق الأوسط تستعين بالمكتب، ولم تَعُد ترسل النصوص إلى مكتب جنيف (الذي يديره أحد المصريين المقيمين في سويسرا) ثم تطوَّر العمل فأصبحت الشركات تُرسلني للتفاهُم مع

وكلائها في البلدان العربية، وقد أتيحت لك فرصة رؤية أحدهم في هذا المكان نفسه منذ عامين، وكنت أستضيف ابنتي لقضاء شهر أو أكثر معي — بصحبة زوجها — دون أن أُفصِح عن طبيعة عملي، بل كنت أثناء وجودهما أتردَّد بانتظام على شركة الأفلام المذكورة حتى أُقنعَها بأنني ما زلت أمارس تخصصي الفني. كانت الهوة تتسع كل يوم، وبانتظام، بين عملي الفني الذي أصبحت أتجاهلُه في واقع الأمر، وبين حياتي الجديدة، ولم يبدأ عام ٢٠٠١م حتى أحسست أنني أصبحت إنسانًا مختلفًا تمام الاختلاف؛ فلقد انقطعت عن أي اتصال لي بالمصريين بل والعرب، بل وانقطعت عن الذهاب إلى المسجد حتى لصلاة الجمعة، وكان إدراكي للانقطاع هو مصدر الألم المُوجع؛ فالذهاب في ذاته لم يكن يمثل قيمة كبيرة، ولكن التوقُّف كان دليلًا على ضعفٍ يتسرَّب إلى نفسي، وكنتُ عندما أخلو إلى نفسي في المساء أجد أنه قد أصبح من العسير عليَّ أن أحاسب نفسي كما كنت أفعل — بل كانت تَنتابني حالات تساؤل تكاد تدفع إلى الجنون — إذ لم أكن أتساءل عن الموت في الغربة، أو ما إذا كنت سأُدفَن هنا أو هناك، أو إذا ما كان ينبغي أن أوصي بحرق جثتي وإرسال الرماد في إناء (urn) إلى زوجتي في مصر — بل كنت أتساءل عن معنى الوجود نفسه ومعنى الحياة، وهي أسئلة وجودية — كما يقولون — لا إجابة لها إلا في الدين، فإذا فزعت إلى الدين واستغرقت في التأمُّلات الدينية وجدت النوم يستعصي عليَّ، وأذكر أنني — وكنا في مطلع ربيع ٢٠٠١م — استشرتُ طبيبًا نفسانيًّا من أصلٍ مصري فوصف لي بعض المنوِّمات، والغريب أن تأثيرها كان شبه معدوم، فخشيتُ الإدمان وأقلعت عن تعاطيها، وعندما ذكرتُ له ذلك قال لي: «السن له أحكام» وعليك أن تشغل نفسك بشيء آخر غير العمل؛ فلقد اجتزت عتبة الشيخوخة ومعظم العاملين في أمريكا يتقاعدون في سنك. وكان كلامه شديد الوقع في نفسي، فأنا صحيح البدن كما ترى، وأنا قادر على العمل، وحبي للمال شهيةٌ لا تَشبع أبدًا، بل إنني اكتشفت أنني أصبحت أبخل على نفسي بما كنتُ أسخو به عليها من المُتَع، لا زهدًا فيها بل ضنًّا بالمال وحرصًا عليه، وحذَّرني الطبيب النفسي ذات يوم من الانزلاق في هذا الطريق؛ لأنه قد يبدأ بالاكتئاب والانسحاب من خضمِّ الحياة العملية ثم ينتهي بمرض نفسي عسير العلاج — بل عضال!»

وتوقف حسن ليتناول شربة ماء، فلمحتُ في عينيه ما يشبه بريق الجنون الذي يُصوِّره الممثلون في السينما، فطلبت المزيد من القهوة وقد قارب الليل على الانتصاف، وقلت له لماذا لم تُفكِّر في نبذ كل شيء والعودة إلى مصر؟ فقال بسرعة إنه فكر في ذلك ألف مرة حتى أصبح من قبيل الهواجس المسيطرة، لكنه كان يجفل في كل مرة حين

يذكر نجاح أصدقائه وزملائه، وحين يتذكَّر أنه لم يعدْ له مَن يُمكن اعتباره صديقًا وفيًّا، وقال إنه فكر أن يكتب إليَّ أو أن يدعوني إلى اللحاق به في أمريكا ثم تذكر أنني لن أبرح مصر أبدًا، وقال في حسرة «ليتني كنت مثلك يا عناني» ولكنَّني أفتقر إلى ما تتمتع به من (self-sufficiency) [الاكتفاء الذاتي] ولا أستطيع الحياة إلا مع الناس وبينهم، ثم انطلق يضرب أمثلة للفارق بيني وبينه، واختتم تأملاته قائلًا:

«إنني سجين دوامة الغُربة، ولن أحتمل العودة إلى مصر مرةً أخرى، بل لن أحتمل تذكُّر ما كنته أو ما كان يمكن أن أكونه، فلقد أصبحت شيخًا في النفس لا في البدن، وكان الهروب الذي اخترته ولم يرغمني عليه أحد أقبح اختيار يقدم عليه فنان! إنني أدور في دوائر مفرغة — حلقات خبيثة لا يُمكن أن أكسرها، فلقد وهنت إرادتي وأصبح التخاذل ديدني، حتى عندما أواجه أبسط المواقف وأهونها، فأنا صامت، وأكاد أترك المكتب برمته لصديقي المصري المخلص، فأنا لا أكاد أترجم شيئًا أو أشارك حتى في المراجعة، وأنا لا أعرف حقيقة ما حدث، ولا أظنني أستطيع أن أقطع برأيٍ فيما انتهَيت إليه، وكنتُ أظنُّني قادرًا على العودة إلى الحياة حين أزور مصر فأتحادث مع أصدقائي القدامى وأفيض في وصف حالي وما انتهيت إليه، ولكنني أشعر أنني مهزوم، وأكاد أقول مسلوب الإرادة، فأنا لا أستطيع إقفال المكتب فهو يدرُّ عليَّ أرباحًا طائلة، أو العودة إلى الأعمال الفنية إذ لم أعد قادرًا عليها، وقطعًا لا أستطيع العودة إلى مصر.»

وحاولت تغيير الموضوع حتى نَكسر النغمة الاعترافية التي سادت الجلسة فسألته عن أمريكا وإسرائيل، فكاد يضحك فاستبشرت خيرًا، لكنه قال — رغم ما يُشبه الضحك — إنه يَعجَب لسؤالي؛ فهو واثق أنني أعرف مدى السيطرة اليهودية أو الصهيونية على أجهزة الإعلام في أمريكا وعلى قنوات الإنتاج الفني — ومن بينها السينما — وأن أيَّ محاولة لتغيير الوضع القائم ستَذهب أدراج الرياح، فكيف أتساءل عن ذلك؟ لكنني قلت له إن ثمة أملًا يلوح وهو ما يدلُّ عليه انخفاض أعداد اليهود الأمريكيين الذين يهاجرون إلى إسرائيل فضحك من جديد وهو يستعد للنهوض قائلًا: ولكن اليهود موَّلوا هجرة مليون يهودي روسي تقريبًا إلى إسرائيل، والحكومة الإسرائيلية تعمل جاهدة على إقامة مستوطنات لهم وتحتاج إلى كل شبر من الأرض العربية تستطيع احتلاله! وقلت له: يعني الزمن ليس في صالح العرب؟ فقال ونحن نتَّجه للخروج «الله أعلم! الزمن يا عناني يا خويا ليس في صالح أحد!»

٤

عندما ودعت «حسن» المخرج ذلك المساء، بل وبعد أن ركبت السيارة، لم أجد بنفسي أي رغبة في العودة إلى المنزل، وإن كان الليل قد أوغل، فخرجت من السيارة وانطلقت أسير الهوينى على شاطئ النيل وأتأمل أضواء الشاطئ الآخر، وقد تملكتني فكرة واحدة وهي «الوعي»— فلقد أحسست أن حسنًا كان يُعاني من حدة الوعي، على ندرة تلك الحدة بين مُزاوِلي حرفته؛ فمُعظَم مُمارسي المهن التمثيلية يعيشون اللحظة الحاضرة وحدها دون أن يسمحوا لأذهانهم أن «تعي» ما وراءها وما أمامها، بل إنَّ الكثيرين من «المثقفين» الذين يتركون مصر للحياة خارجها نادرًا ما يسمحون للوعي أن يصل إلى هذه الدرجة من الحدة، فالوعي درجات مثل أي لون من الألوان، وكانت مأساة حسن تتمثل في نظري في أنه ترك مهنة اللحظة الحاضرة فسمح لنفسه ببعض التأمل الذي زاد من حدة وعيه بموقعه في الحياة باعتباره مصريًّا يعيش خارج بلده ويُدرك تمامًا معنى غربته، ثم لا يستطيع أن يضع حدًّا لها، بل يدور في دوامة من الندم والأسى على ما فات وما كان يمكن أن يكون، واعيًا بالحلقة المفرغة التي يعيش فيها ولا يملك أن يكسر طوق حصارها، بعد أن أسلم زمامه للمقادير تجري به كيفما شاءت.

لقد أصبح الوعي في حالة حسن نقمةً تُعذِّبه وتقضُّ مضجعه (فعلًا) وهو يستمسك بقناع من البسمات المصطنعة التي تعينه على مواصلة الحياة، لكنه يخلع القناع عندما نتسامر لأنه — كما قلت — يجد في الحديث معي راحة اعترافية، ولم يكن لديَّ حلٌّ أقترحه عليه؛ فالحلول التي لا تنبع من باطن النفس تستعصي على التنفيذ، خصوصًا حين يكون المرء قد وصل إلى هذه الدرجة من حدة الوعي، وجعلتُ أُقلِّب الأمر على وجوهه فتذكرت حالات مماثلة، نجا أصحابها من هوَّة اليأس أو الاكتئاب أو المرض النفسي الذي قد يتحول إلى جنونٍ صريح بأن شغلوا أنفسهم بالعمل؛ أي بالانغماس في الأعمال التي لا تترك لممارسها فرصة التأمل، وتضع حدودًا حاسمة للوعي، والروائي أو كاتب المسرح الذي يسمح لشخصية من شخصياته أن تكتسب قدرًا متزايدًا من الوعي يكون قد فتح لها طريق المأساة، وكبارُ الكُتَّاب هم الذين ينجحون في الموازنة بين الوعي لدى الشخصية والوعي لدى باقي الشخصيات التي تُمثِّل مجرى الحياة العادية أو الواقع المُعاش، فهكذا يفعل شيكسبير في ماكبث حين يجعل البطل ذا قدرة غير عادية على التأمل والوعي، وما الشعر الذي يُنطقه به شيكسبير إلا دليل على حركة الوعي في أعماقه، بل إن شيكسبير يُحيل بعضَ عوامل الوعي شخصياتٍ مسرحية حية نراها ونسمعها على المسرح، ولو لم

يكن ماكبث يتَّسم بهذا القدر المتزايد من الوعي، لما انتهى تلك النهاية الفاجعة، فكم من قتَلة أفلتُوا من العقاب وكم من حكام حققوا كل ما تصبو نفوسهم إليه بقتل المنافسين والنظراء؛ لأنهم استطاعوا التدخل في حركة وعيهم فلم يسمحوا له بأن يستوعب حقائق ما فعلوه، بل قصروه على ما يُصوِّره القناع (persona) ونجحوا بذلك في قهر الوعي الصادق!

ولا بدَّ هنا أن أشرح ما أعني بالوعي المأسوي — تفريقًا له عن وعي القناع — فأقول إنه الوعي الذي يضمُّ خصائص النفس الشعورية أو العاطفية (affective) وخصائص الذهن الحي (intellectual) معًا وفي نفس الوقت، وقد يُطلق البعض على هذا المزيج تعبير (conscience) ولكن الضمير قد يعني اصطلاحًا غير ما يعنيه اشتقاقًا؛ فالمصطلح يعني مجموع النوازع الأخلاقية المستمَدة من المجتمع، بما في ذلك الدين والتقاليد والأعراف، وأما اشتقاقًا فهو يعني كل ما يُضمره الإنسان فلا يُفصح عنه، أو كل ما هو مُضمَر فحسب، سواء كان يشغل مكانًا بارزًا في الوعي أم لا، وأما الوعي الذي أعنيه فهو القدرة على استيعاب الواقع بجميع الطاقات الإنسانية؛ أي إنَّ الضمير بالمعنى المألوف عنصر واحد من عدة عناصر، فإذا أمات الإنسان إحدى طاقاته — مثل طاقة التعاطف مع غيره من البشر أو استيعاب مشاعرهم أو طاقة استقراء معنى الأحداث الخبئ لا الاكتفاء بظاهرها مهما تكن قوة هذا الظاهر — كان بذلك يخطو أول خطوة في طريق تزييف وعيه؛ إذ قد تتلو ذلك خطوات أخرى مثل تضخيم القناع الذي يَرتديه بإضافة عناصر زيف جديدة إليه، أو مثل التعامي عن بعض الحقائق بإخفائها عن حركة وعيِه، أو بطمسها في وعيه طمسًا كاملًا، أو مثل التدخل في تحديد درجات اللونين الأبيض والأسود لأفعاله وأفكاره، وعادةً ما تكون هذه الخطوات تلقائية وذات طابع تدريجي، فكأنما هي تتسلَّل داخل النفس على امتداد سنوات طويلة، وقد تَصحبها أحيانًا مقاوَمة من عناصر أخرى لا تلبث أن تنهزم، وقد يستيقظ أحد هذه العناصر فجأةً فيهز النفس هزًّا، وهو ما جرى العرف على تسميته بيقظة الضمير، ولكن الشائع هو أن الإنسان عادةً ما يتصالح مع وعيه الباطن، وعادةً ما يتدخل في تشكيله حتى لا ينمو فيصبح قوة مؤثرة، بل إنه يعمل — عامدًا أو غير عامد — على إيجاد التناغم بين عناصر الوعي داخل النفس حتى ينعم بالسعادة، وما السعادة إلا التوافق على المستويَين الباطن والظاهر معًا.

وكلَّما أنعمتُ النظر في حالِ حسن، ازداد وضوح الدور الذي «لعبه» الوعي في إحساسه بالضياع؛ فكم من المصريين العاملين في الخارج ينعمون بالبُلْهْنِية المادية ويَطمسون في

نفوسهم أي عنصر من عناصر الدَّيْنِ الذي يدينون به لمصر، بل لقد شهدنا منهم من خدع بلده وخانها من خلال إبرام صفقات زائفة مُخاتلة حتى مع الحكومة (مثل ما حدث فيما يُسمى بقضية حديد أسوان) ولكن الغالب أن نرى العامل في الخارج وقد أقنع نفسه بألا يَرعى سوى ذاته، وبأنه لم يَعُد يَنتمي إلا إلى نفسه، حتى لو تحايَل على غيره، ولو أضرَّ به في غمار ذلك، على نحو ما حدث حين تزوج مصري أعرفه خير المعرفة من مصرية مُقيمة في بلد أجنبي، ولا أعرف إن كانت قد حصلت على الجنسية الأجنبية أم لا إذ لم أقابلها إلا عام ١٩٩٣م، لا لشيء إلا ليحصل على الإقامة في البلد الأجنبي الذي كان يُريد الإقامة والعمل فيه، وعندما حصل على بغيته (بعد عام ميلادي كامل) طلقها في القنصلية المصرية، وقد كان يتكتم هذه الواقعة ولا يُشير إليها من قريب أو بعيد، خصوصًا بعد أن أحضر زوجته الأولى من مصر للحياة معه في الخارج، ولم أستطع أن أعرف منه إن كان طلَّقها قبل زواجه من الثانية ثم ردَّها إلى عصمته بعد طلاقه من الثانية أم لا، ولكنني لاحظت أن الثانية قد أصبحت ترتدي الطرحة في المكان الذي تعمل فيه (ويعمل فيه معها كثير من العرب) وكانت تطوف بالمكاتب في أوقات الصلاة لتدعو العاملين من المسلمين إلى ذكر الله، وقال لي أحد الخبثاء إنها تبحث عن زوج جديد، وإنها أصبحت ترتاد المسجد في أوقات الفراغ، وتجلس مُتبتِّلة قانتة في انتظار الفرج، ولاحظت عند الحديث معها كثرة الحوقلة والبسملة، وعندما زرت مكتبها وجدت المصحف مفتوحًا ومن فوقه مسبحة.

وكنت ذات يوم من عام ١٩٩٤م في زيارة لمنزل صديقي محمود يونس في جنيف، وكان قد دعا عددًا من المصريين إلى العشاء، فزوجته زينب تجيد طهو الأطعمة المصرية، وكان من بين المدعوين طارق شرف (رحمه الله) أخو سامي شرف (وقد قصصت قصته في **واحات مصرية**) وزوجته شادية عبد اللطيف، والدكتور محمود مراد الذي حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة فرنسية في سيرة ابن هشام (وكان المُمتحن الخارج له هو المصري محمد زكريا عناني أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية) والحاج لطفي عبيد المترجم (وأخو فاروق عبيد المترجم بالأمم المتَّحدة في نيويورك) وأثناء العشاء قال حاتم — الابن الأصغر لمَحمود يونس — إنه يُريد العودة إلى مصر بعد التخرج لخدمة الإسلام والمسلمين، فقال له الدكتور مراد: «ألا تعلم أن حياة المسلم في الغربة جهاد في سبيل الله؟» ومن ثم انطلق يبين للغلام كيف أن وجود المسلم بين غير المسلمين واستمساكه بدينه جهاد وأي جهاد، فضرب الأمثلة وحكى الحكايات، وكان الباقون يُؤمِّنون على كلامه، ثم قالت شادية إن طارق قد تلقى عرضًا للعودة إلى مصر

والعمل بالسياسة (وكنا نعرف أن اللواء كمال حسن علي رئيس الوزراء الأسبق كان قد زار جنيف قبل أيام وقضى فترة في صحبة طارق والأسرة) ولكنه — أضافت شادية — لا يفكر في العودة إيمانًا منه بأن العمل في ديار الغربة جهاد، وكان طارق آنَذاك صامتًا، فإن نطق ردَّد تعاويذ أو آيات، وقال الحاج لطفي عبيد إنه يُعاني الأمرَّين من أجل أولاده الخمسة في بورسعيد، ولكن الناس لا تعرف، والتفتَ محمود إلى ابنه وحاتم وسأله هل اقتنع؟ ولم يكن الموقف يحتاج إلى أسئلة، فلقد ساد وعي الجهاد وكنت الوحيد من بينهم الذي سيعود إلى مصر فلم أشارك بالرأي.

والأمثلة على «الوعي المأسوي» لا تُعدُّ ولا تحصى في الآداب العالَمية، وقد يكفي مثال واحد في هذا السياق، ألا وهو وعي عطيل في المسرحية المسماة باسمه والتي أبدعها شاعر الإنجليزية الأكبر وليمَّ شيكسبير. إنَّ عطيل يعرف أنه «تجاوز» أعراف مدينة البندقية، وهي مدينة دولة، لها حاكمها ولها قوانينها الخاصة، عندما أقدم عطيل — وهو الأجنبي الأسود الذي يعمل قائدًا للأسطول بسبب حنكته البحرية فقط — على الزواج من «ديدمونة» البيضاء وابنة أحد أكابر البلدة. أي إنه كان استوعب في وعيه ذلك «التجاوز»، دون أن يتجاوَز عنه، بل إنه عندما شرح قصة غرامه وزواجه بالفتاة التي تصغره كثيرًا في السن، قدَّم ما يُبين إدراكه لعدم تجاوزه ذلك التجاوز؛ إذ قال إنه كان يَحكي لأبيها الذي كان يُحبُّه حكايات مغامراته والأخطار التي صادفته، وكانت «ديدمونة» تَستمِع إلى حكاياته وتبدي تعاطفها معها، وانتهى عطيل إلى القول:

لقد أحبتني لِما صادفتُه من المخاطر
أما أنا فقد أحببتُها لأنها تعاطفت وأشفقت عليَّ فيها!

She loved me for the dangers I have passed,
And I loved her for she did pity them!

أي إن عطيل قد أقام ما يسمَّى بلغة النقد الحديث اليوم «وعيًا زائفًا» بطبيعة العلاقة التي ربطته بديدمونة، أو ما يُسمِّيه علماء النفس بالتمزُّق في الدوافع، ونُسميه نحن التنازع بين الدافع الشعوري (أو العاطفي) والدافع الذهني (أو المنطقي) إذ كيف يقبل الذهن الواعي ذلك الغرام المشبوب والشواهد العقلانية لا تؤيده؟ ولو كان عطيل قد قبل القناع الذي صنعه ذهنه وصدق أنهما متحابَّان حقًّا (مهما تكن الأسباب) لما اقتنع بالأدلة الواهية على خيانتها ووقع ضحية مكر «ياجو» وخبثِه، لكنه كان منذ البداية

مسرحًا لصراع دفين بين عناصر الوعي التي ذكرتها، ونحن نشهد هذا كل يوم في حياتنا المعاصرة، وعندما حادثت أحد أصدقائي في هذا الموضوع، وكانت المناسَبة هي زواج روائي مشهور بفتاة في سنِّ حفيدته، قال لي إن صديقنا ليس عطيل! وبعد مناقشة موجزة قال لي: «أنتم تُعقِّدون الأمور أيها النقاد! والموضوع أبسط من أن يُصبح مسرحًا للصراع بين ما تُسمِّيه عناصر الوعي، فالزواج اتفاق (بمعنى «العقد» contract = agreement) والعقد شرعة المتعاقدين، ولا أرى ما يدعو في كل مرة إلى افتراض «الحب» بالمفهوم الأمريكي الذي يكاد أن يُصبح موضة! فعطيل في نظري مغفل وكان ينبغي أن يُواجه زوجته بالتهمة فور شكه فيها، ولو حدث ما تطورت الأمور إلى هذا الحد المأسوي!» وفهمت منه — وهو صحفيٌّ كبير — أنه يدعو إلى تبسيط العلاقة الزوجية بالمفهوم الذي شاع واستفحل، وهو المفهوم الذي تدعو إليه أم ياسين (على نحو ما صورته في **واحات مصرية**) أي قصرُه على العلاقة الحميمة بين الزوج وزوجته، وأما ما يُشير إليه باسم المفهوم الأمريكي (وربما كان يَقصد الأوروبي أو الغربي) فربما كان يعني العلاقة المشتركة والمعقَّدة التي تستمر مدى الحياة، ولكنَّني قلت له إنني لا أُقدِّم مفهومًا غربيًّا، بل أقدم المفهوم الإنساني الذي يتخطَّى حدود الأعراف الإقليمية أو المحلية؛ إذ لا يكتب للزواج الاستمرار إذا شابه صراع في الأسس النفسية التي يقوم عليها وأهمها في نظري صدق الوعي بطبيعة العلاقة الزوجية، وحتى على مُستوى «العقد» التي يتحدَّث عنه، أجد نفسي نزَّاعًا إلى افتراض وجود بنود تتعلَّق بالوعي في ذلك العقد، والإخلال بهذه الشروط يَهدم العلاقة مهما تحقَّقت الشروط المادية الأخرى، وما عطيل إلا شخصية في مسرحية، وليس من الإنصاف «النقدي» أن أخرجه منها وأُعامله معاملة البشر الذين يعيشون بين ظهرانينا ونعرف عنهم أكثر مما نعرف عن عطيل! ولكن صديقي — الصحفي الكبير الذي يبدي ميولًا إسلامية واضحة في كتاباته — لجأ إلى ما كاد يجرني إلى مناقشة دينية فأقفلت الموضوع وتركته.

وقد يبدو من حديثي أنني أدعو إلى الوعي الكامل ولو تحوَّل إلى وعي مأسوي، لكنني لا أدعو إلى شيء بل أوضِّح فحسب أن يقظة وعي صديقي حسن، الذي شارف على السبعين، قد أدَّت إلى هموم «وجودية» لا أكاد أرى لها دفعًا، فغيرُه من العاملين في الخارج قد اكتفوا ببعض عناصر الوعي ولجئوا إلى أقنعة حامية، فتوافقوا مع الحياة خارج مصر، سواء في البلاد العربية أو الأجنبية، كما أقصى بعضهم أحلام ممارسة الأدب أو الفن، وقنعوا بالانتقال من يوم ليوم ومن ساعة لساعة في قطار الزمن، دون أن يطلوا

من نافذته ليروا العربات وهي تنهَب الأرض نهبًا، إذ أحلوا في وعيهم مشاغل صغيرة تشغلهم عن الهموم «الوجودية»، أحلُّوها وجعلوا منها مسرحًا لوعي متغير يأتي بما هو طريف وظريف كل يوم، فاكتمل لهم هدف التوافُق والتناغُم، ولو أنك تلمح عند بعضهم آثار ذلك الإحلال، وآثار ما خلَّفه من جهد وعناء.

٥

ذكَّرتني حالةُ حسن المخرج بحالة صحفية سأطلق عليها اسم هدى، زارتنا لإجراء مقابلة صحفية مع زوجتي نهاد صليحة، وكان ذلك في مساء أحد أيام الشتاء من عام ١٩٨٨م، إذ جاءت إلى المنزل فجلسنا في الصالة، وقالت «هدى» إنها تفضلها على غرفة المكتب وكان معها زوجها الذي كان — فيما يبدو — قد تجاوز الخمسين، وتطوَّعْتُ أنا باستضافة الزوج في غرفتي حتى تنتهي نهاد من المقابلة، بعد أن عرَّفني بنفسه وقال إنه لن يشغلني بل سيقرأ كتابًا، راجيًا مني ألا أتوقف عن العمل، وكنت مشغولًا بقراءة التجارب المطبعية لكتاب جديد (ترجمة **تاجر البندقية**) فوضعته جانبًا وأصررت على القيام بواجب الضيافة، وأذكر أنني كنت أضع على المكتب نسخة من مسرحية **كوميديا الغربان** التي كانت قد صدرت لتوها (في أواخر ١٩٨٧م) فَلَمَحَتْها عينُه وتصفَّحها فوجدها «تشبه الشعر» — كما قال — ولم أجد ما يدعو إلى أن أذكر أن المسرحية مكتوبة بالنَّظم، وإن لم يكن النظم العمودي، إلا في الأغاني وفي الحوار «الرومانسي» بين البطل والبطلة، فلم أُعلِّق وتركته يقرأ حتى توقف عند مقطع سألني عنه فقلت له إنه يُمثل وجهة نَظَرِ «شخصية» درامية معينة في موقف درامي معين، ولا يُمثِّل وجهة نظري أنا، ولكنه ظلَّ يردِّده وهو (عجبًا هل تَأْمَنُ للمرأةْ؟ المرأةُ مخلوقٌ هشٌّ، يُصغي للقلبِ ونجوى الحبِّ ولا يَحفلُ بالمنطقْ!) فحدستُ أن وراءه قصة، ولم أشأ أن أُضيِّع الفرصة، فقلت له: إنَّ المرأة تختلف قطعًا عن الرجل (دون أن أحدد جوانب الاختلاف)، ولم يخب ظني إذ انطلق يحكي كيف انقلبت عليه زوجته، وكيف شجَّعَت ابنتَه على الانحياز إليها والتنكُّر له، بعد أن ساعد زوجته على الارتقاء في سُلَّم التعليم وبلوغ أقصى ما تتمنَّاه، وجعل يحكي لي من التفاصيل ما قد يأنفُ خِلٌّ من حكايته لخِلٍّ صدوق، فكأنما كنتُ أعرفه طول عمري أو كأنما كانت تربطني به صداقة عميقة، وانتهى من السرد بأن قال إنه ردَّ على تنكُّرِها له بأن تزوج من «هدى» الصحفية، ذات الشعر الأصفر، والتي تَصغُره بأعوامٍ كثيرة، لكنها

تحبُّه وتُقدِّره، ولقد عوَّض الله صبره خيرًا — بتعبيره — فاستعاض بها عن كل ما مرَّ به من عذاب، وعندما بدأ يسرد التفاصيل التي آنَفُ من ذكرها كانت المقابلة الصحفية قد انتهت، وخرج الضيفان.

وعندما قصصت القصة على نهاد — زوجتي — تعجَّبَت من صراحة الرجل الذي كان يبدو لي في محنة، وعندما قلت لها إنه أكثرَ من التعبير عن إعجابه بزوجته الشقراء ذات الشعر الأصفر، فقالت لي دون اكتراث: «بل هو مصبوغ» فاغتظتُ وقلتُ لها إنه أصفر وقد رأيته فما الذي يَدعوكِ إلى إنكار ذلك، فابتسمت وقالت: «فهل رأيت حاجبَيها؟ إنها ليست شقراء!» وقلت في نفسي فليكن، فهي شقراء في نظره — وكانت مسرحية الغربان ما تزال مفتوحة أمامي على المكتب فقرأتُ قول شاعر القصر:

الواقعُ أن الواقعَ يُخفيه الظاهرْ،
وإذن فالباطنُ واقعْ،
لكنَّ الظاهر أيضًا واقعْ،
والظاهر ليس بِصِنْوٍ للباطن،
وإذن فالواقع ليس بواقع!

وضحكتُ — كما ضحك الدكتور عبد القادر القط عند تحليله للمسرحية في برنامج **أمسية ثقافية** مع فاروق شوشة — على حديث الشاعر المحترف، لكنَّني أقنعتُ نفسي بأن كلام الشاعر المخاتل في المسرحية يمكن أن يقبله المنطق، وها هو الرجل «يتطوع» بإفشاء أسراره الزوجية لشخص يراه أول مرة، كأنما ليُثبت صدق ما كتبتُه ساخرًا ضاحكًا، وكعادتي بعد الاستماع إلى أمثال تلك القصص، سجلت أهم ما رواه من أحداث فيما أُسمِّيه كراسة المسرح، وأعدت الكراسة إلى الدرج، ونسيت القصة برمتها بعد أيام، ولكنها كانت من القصص التي لا تنتهي بالتسجيل؛ إذ سرعان ما أطَلَّتْ برأسها من جديد في ربيع ذلك العام.

كنت قد عدت من مشاهَدة إحدى تجارب مسرحية **الغربان في الطليعة**، وكان ماهر شفيق فريد بصحبتي، إذ كنت خرجتُ معه بالسيارة من الجامعة وانشغلنا بالحديث في الطريق فإذا به يجد نفسه في المسرح وقد أظلمت الدنيا والمُمثلون يتكلمون، ولم يشأ أن يُغضبني فمكث معي يستمع، ولم أشأ أن أبتعد به طويلًا عن غرفة مكتبه أو موعد نومه فخرجنا بعد قليل، وأوصلته إلى المنزل، فكانت تلك من المرات النادِرة التي يحضر فيها

التجارب المسرحية لأي عمل مسرحي على الإطلاق! أقول كنت عدت لتوي من المسرح حين رن التليفون وكانت المتحدثة هي «هدى»، فقلت لها: إن نهاد قد خرجت فقالت إنها تُريد إجراء مقابلة صحفية معي أنا، فضربت لها موعدًا في الجامعة في اليوم التالي، وكان اليوم الذي أقضيه من الصباح إلى المساء في الكلية، وأتناول الغداء في مطعم بيت الضيافة.

وصلت «هدى» في موعدها تمامًا — وكان الواحدة ظهرًا — ولم أشأ إضاعة الوقت، فلديَّ درس في الثانية، وكان القسم مقفرًا، فطلبت لها الشاي، وفتحَت هي جهاز التسجيل الصوتي الصغير، وانطلقتُ أتكلم بسرعة فأجبت على جميع أسئلتها، وهي صامتة لا تكاد تتدخل فيما كان يعتبر حوارًا، وكان وقت الغداء قد حان أو فات فقدَّمتُ لها بعض البسكوت الذي أحتفظ به في مكتبي، لكنها اعتذرت لأنها تُحاول إنقاص وزنها، فألححت كعادة المصريين؛ فإذا بها تقول: «لا تكن مثل فلان [وذكرت اسم زوجها ولنُطلِق عليه هنا اسم «محسن»] الذي لا يقبل المعارضة!» وشعرت بالحرج فلم أعلِّق. وتشاغلتُ بشرب الشاي، وجعلت أنظر إلى الساعة، كأَنما لأُذكِّرها بأن الوقت قد تأخر، لكنها تجاهلَت ذلك التلميح، بل تركت جهاز التسجيل موصولًا بفيشة الكهرباء، وواجهتني بسؤال مباشر: «ماذا قال لك، محسن؟» ولم أُبدِ أي تردُّد حتى لا أُثير في نفسها أي قدر من الشك، بل قلت لها إنه يقول إن الله قد عوَّض صبره خيرًا، فعادت تسأل «وماذا قال لك عن زوجته السابقة؟» وكان تعبير «السابقة» غير متوقَّع، فهو لم يقلْ لي إنه طلَّقها، وكنت أستبعد أن يُخفي عنِّي ذلك إن كان قد حدث، فذكرتُ لها أنه قال إنها «انقلبت عليه»، ولم أزدْ، فبدا عليها الارتياح، وعدتُ أنظر إلى الساعة؛ إذ كانت تقترب من الثانية، ولم أكن أريد أن أتأخر على طُلَّابي؛ فطُلَّاب الدراسات العليا يأتون لحضور هذه المحاضرة في يوم الأحد، ويتركون أعمالهم خصوصًا من أجلها، بل إنني لمحتُ بعضهم ينتظر خارج الغرفة، ولما أصرَّت «هدى» على تجاهل نظري إلى الساعة، نَهَضْتُ أنا وقلت لها إن موعد الدرس يَقترب، فقالت إنها تريد صورة شخصية لي، فوعدتها بإحضارها في أقرب فرصة وودَّعْتُها وانصرفَتْ.

وكان من عادتي في يوم الأحد — بعد قضاء النهار كله في الجامعة — أن آويَ إلى الفراش مبكرًا، ولذلك اعتذرت للدكتور فاروق عبد الوهاب الذي كان في مصر آنذاك، وقلت له إنني لن أستطيع الخروج في المساء، وقمت لإعداد طعام العشاء، وإذا بـ «هدى» تُحادثني بالتليفون، لتسأل بدايةً عن «الصورة»، ولتحكيَ لي قصة متشابكة معقدة الأطراف، وكانت كلما ذَكَرَتْ شيئًا طريفًا؛ تقول إن عليَّ أن أضعه في المسرحية المقبلة، واستمعت إليها

بتأنٍّ وصبر، لكن القصة طالت، والواقع أنها كانت جديرة بموقع في مسرحية ما، لولا أن فصولها لم تكتمل في نظري إلا بعد سنوات، ولولا أن بها ما يجعلها غير صالحة للمسرح، وها أنا ذا أحكيها بعد أن تجمَّعت لديَّ القطع الناقصة (كلها أو معظمها) في مقابلات وأحاديث مُتعدِّدة، وبعد أن اعتبرتها انتهت — على نحو ما سأروي.

كانت هدى من قريبات زوجة «محسن» (وهي الزوجة التي لم أعرف لها اسمًا حتى اليوم) وكانت تُكثِر من زيارتها في المنزل (منزل الأسرة) قبل أن تتزوَّج، وكانتا تتسارَّان وتتبادَلان الحكايات، فهما مُتقاربتان في السن، ومُتقاربتان في المشارب والأهواء، ولو أنَّ «هدى» تَنتمي لفرع الأسرة الغنيِّ، فكانت تَمتلِك عمارة تتكوَّن من سبعة طوابق في شارع مصدق بالدقي، ولم تكن تكترث للدراسة أو تحلم بدخول الجامعة مثل قريبتها «الفقيرة»، فلم تكد تشبُّ عن الطوق حتى جاءها الخُطَّاب يطلبون يدها، ولكنها كانت تتمنَّع وتتدلل، وكانت دائمًا ما تقول إنها تَنتظِر «عريس الأحلام»، وكان الدخل من إيجار الشقق في الستينيات يكفي لتوفير حياة رغيدة لها ولوالدها الذي لم يُنجِب سواها، وكانت له أراضٍ زراعية في العياط، يزُورها من حين لآخر للاطمئنان أو لجمع الإيجار من الفلاحين، وكانت العلاقة وثيقة بين البنت وأبيها منذ الطفولة، وازدادت توثُّقًا بعد وفاة والدتها عام ١٩٧١م، وامتناع الوالد عن الزواج بأخرى حفاظًا على ابنته وصونًا لها من مهانة الخضوع لـ «زوجة الأب»، وعندما بلغت العشرين قبلت الزواج من رجل يكبرها بعشرين عامًا، وأقاما في شقة من شقق العمارة، تاركَيْن الوالد وحده، وقالت «هدى» إنها كانت تحسُّ بتأنيب الضمير، وكانت تشكو لزوجة محسن (التي كانت سبقتها بالزواج وأنجبت طفلة جميلة) من وخز الضمير وما تُسبِّبه الوحشة التي يعيش فيها والدها من قلق، ولكن زوجة محسن كانت تطمئنها وتؤكِّد لها أن الصداقة التي تربط عريسها بأبيها (إذ كانا شريكَين في العمل) كفيلة بشغل وقته والتسرية عنه، وكانت تُحدِّثها عن مباهج الزواج وتُسرف في الحديث عن ذلك حتى أيقظت في نفس هدى مشاعر لم تكن راودتْها من قبل، فبدأت تُطالب زوجها بأن يخرج معها وأن يقضي الأماسيَّ معها في المنزل، وكان دائمًا ما يتهرب إما بحجة ضغط العمل مع والدها، أو بحجَّة تركها لمتابعة دراستها في المعهد المتوسط الذي كانت قد التحقت به، وأما حين يزداد إلحاحها فقد كان ينصحها بزيارة زوجة «محسن»، والائتناس بها وتعلُّم رعاية الأطفال منها تمهيدًا لدور الأم الذي قال إنها لا بدَّ أن تنهض به يومًا ما. وقدمت لي «هدى» تحليلًا كاملًا ذات يوم في مكتبي بالقسم بعد ذلك بنحو عامٍ، وكنتُ قد عدت من مؤتمر بالخارج وأحببت أن أطمئن على

أحوال القسم — في العطلة الصيفية في عام ١٩٨٩م — فوجدتُها في انتظاري. وكان ذلك التحليل الذي استغرق نحوًا من أربع ساعات يتضمَّن أكمل صورة للتغيُّر الذي جاءت به الأيام في السبعينيات، وأجد فيه الآن أجمل دليل على «عذاب الوعي» (موضوع هذا الفصل) ولذلك فسوف أُوجز ما قالته وما سجلتُه في كراسة المسرح في اليوم نفسه وهو طويل قد يملأ مجلدات، ولكنني سوف أختصره قدر الطاقة. قالت «هدى»:

«هل تعلم أنني كنت محجَّبة؟ [تقصد ترتدي الطرحة] لقد كنت من أوائل الذين عرفوا الطريق إلى الله، فالتحقتُ بالعمل بصحيفة إسلامية، وشجعني زوجي على ذلك، ولم يَعترض والدي، وأنا أتمتع بقدرة كبيرة على التعبير، سرعان ما لفتت إليَّ الأنظار، فتركتُ الشئون الإدارية وعملتُ مساعدة لرئيس التحرير، وكان رجلًا تقيًّا ورعًا، فكلفني بإعداد بعض الموضوعات عن المرأة في الإسلام، ومن هنا انطلقت ولم ألبث أن أثبتُّ وجودي وتفوَّقت على خريجي كلية الإعلام بل وعلى القدماء في المهنة؛ إذ كانت لديَّ سيارة خاصة، وكنت «متحركة» وأحب الناس وأعشق الاستماع إلى أسرارهم وإن كنت لا أنشرها — بطبيعة الحال — وكانت الفترة التي قضيتها في المنزل قبل العمل قد زادت من وزني فبدأت نظامًا غذائيًّا مُحكمًا، وكنت كلما اكتشفت حقائق جديدة عن حياة المرأة بُحْتُ بها لقريبتي وصديقتي زوجة «محسن»، وكانت تتَّصل بي دائمًا حتى وأنا في العمل، ولا تكاد تَشبع من أخباري أول قل من أخبار الناس وأسرارهم.

وذات يوم أثناء حديث عابر مع إحدى الزوجات المُسلمات، أحسستُ أنني زوجة مظلومة، وأن الحرية التي يُتيحها لي زوجي والتي لا يُتيحها زوج المسلمة المذكورة لها، ستار يُخفي إهماله لشيء مُهم، أو قل عدم كفاية أدائه لذلك الشيء، وزاد عندي ذلك الإحساس حتى أصبح هاجسًا أو هواجس، وعندما أفضتُ في هذه الهواجس لقريبتي وصديقتي ضَحِكَتْ وقالت إنها على العكس مني تمامًا، وإنها لا تقبل إلا أن تعيش حياتها كاملة غير منقوصة، فلقد حصلت على البكالوريوس، وهي تكتفي بعملها في «المصلحة» صباحًا ثم تتفرَّغ لزوجها وابنتها ومنزلها مساءً، وقَدَّمَتْ إليَّ عدة نصائح حاولت العمل بها لكنني لم أفلح. وبدأ العذاب الذي كان في منشئه لا يزيد على بعض الأسى، ولم يكن لديَّ سوى قريبتي أشكو إليها، فأكثرت من التردُّد عليها وكنت أفضل أن أترك المنزل الخالي في المساء لأسهر معها، أو على الأقل لقضاء ساعة أو بعض ساعة معها ومع زوجها. وكان الجلوس معهما مصدر سرور وعذاب معًا؛ إذ بدأت أشعر بالحزن لما أنا فيه، وأنا زوجة مُخلِصة لم يرزقني الله بأطفال، ومع أن زوجي لم يكن يفتح موضوع الأطفال معي

إطلاقًا، إلا أنني كنت أحسُّ بأن الإنجاب قد يقضي على الهواجس التي تنتابني، ولم أكن أخشى، مثل كثير من الزوجات اللائي أجريتُ معهنَّ مُقابلات صحفية، أن يتركني زوجي من أجل إنجاب طفل من أخرى؛ إذ كان الأطباء يؤكدون أنني قادرة على الإنجاب، وأن الأمر بيد الله وحده، لكنني اكتشفتُ — ويا لهول ما اكتشفت ذات يوم — أنني لا أرغب حقًّا في الإنجاب من زوجي، وأنني ربما كنتُ أرفضه في أعماقي، بل — وهذه هي الطَّامَّة الكبرى — أنني أشعر بنشوة تطير بي إلى السماء السابعة عندما أنظر إلى «محسن» زوج قريبتي أو أستمع لصوته — لو في التليفون!

لك أن تتصور العذاب الذي عشت فيه، وكان أفظع ما فيه عجزي عن البَوح لأحد! كان عليَّ أن أتحمَّل وحدي هذا العذاب، فقررتُ الانقطاع عن زيارة قريبتي، وضاعفت من نشاطي في الصحيفة، لكنها أُغلقت في مطلع الثمانينيات، وأصبح لديَّ فراغ قاتل، ألجأني إلى والدي ألتمس العون، فإذا به يُعاني من مرض عضال، فشُغلت بعلاجه شهورًا متوالية نسيت فيها أحزاني وكل ما يتعلق بحياتي الخاصة، فلقد كان أكثر من أبٍ، وكان يُمثل ركن الثبات في حياتي، وعندما أتى أمر الله تقبلتُه راضية بالقضاء، لكنني أصبحت لا أطيق أن أرى زوجي أو أعود إلى منزلي معه.

وكان زوجي شهمًا وكريمًا — على عكس الكثيرين من أزواج اليوم — فتركني دون الدخول في المفاوَضات المألوفة، فكان طلاقي طلاقًا مثاليًّا، بل إنه ترك القاهرة كلها وانتقل إلى العياط حيث كان مقر عمله في المزرعة أول الأمر مع والدي. وأحسستُ لأول مرة بالحرية، رغم الفراغ؛ فأنا لا أعمل، وليس لديَّ أسرة، وأقربائي — كلهم أو معظمهم — في الصعيد، ولا أجرؤ للأسباب التي ذكرتُها لك على زيارة قريبتي حتى لا أرى «محسن»!

كنتُ أعاني في تلك الأيام من بلبلة لم أعهدها في نفسي من قبل، فلقد حُرِمْتُ من حنان الأب وأنا في مسيس الحاجة إليه، ومن العمل الذي كان يُمكن أن يمتصَّ جهدي في التفكير (بل وفي الإحساس) ومن الزوج وإن لم يكن الزوج الذي أرجوه، ومع ذلك — وهذا مصدر البلبلة — كنت أشعر بسعادة لأنني أستطيع أن أتخيل وجودي مع «محسن»، وأن أضع في خيالي حوارات طويلة معه عن الحياة والمصير والأقدار؛ فهو مثقَّف ومُتحدِّث بارع، بل وكنت أسمح لخيالي أن يشتط بي فيتجاوز الواقع بكل عراقيله، وأنت تعرف ما أعني حين يعيش الإنسان في خيالات لا حق له فيها! وكأنما كان القدر لي بالمرصاد، فلم تمضِ شهور ثلاثة — وكنا في رمضان — إلا ووجدت مَن يطرق بابي على غير انتظار، وكانت قريبتي وصديقتي القديمة زوجة «محسن»! ورحبتُ بها كل الترحيب وأسرعت بالاعتذار

عن انقطاعي عن زيارتها بسبب ظروفي، لكنها فاجأتني بما لم يكن في الحسبان. لقد اتهمتْني بأنني أخونها مع زوجها، وقالت إنها تعلم «كل شيء» ورمتْني بأفظع الصفات، وأعلنتْ أنها لن تقبل أن أختطفه من يدها، وأنها سوف تُحارب ذلك بكل ما أُوتِيَتْ من قوة، وأنه إذا كان يريد أن يطلقها فعليه أن يَبيع كل شيء لدفع مؤخر الصداق «المعجز»، وأنها لن تتنازل عن أي شيء؛ فسوف تظل في الشقة لأنها حاضنة، وسوف تؤلب عليه المعارف وتفضحه في مقر عمله، واستمرت في ذلك السيل العارم نحوًا من ساعة، فوجدتُني أنهار باكية وأقسم أغلظ الأيمان على براءتي، وهي تزداد قسوة وغلظة، ثم انتهت بأن قالت: «لقد اختفى منذ مدة! وأنا أعرف أين تُخفينه أيتها اللصة التي ائتمنتها على بيتي!» ثم صفقت الباب وراءها وخرجت.

وأحسستُ بالدوار حتى إنني فكرتُ في أن أفطر ذلك اليوم، لكنني تحاملت على نفسي حتى حان موعد الإفطار فشربت بعض الماء ونمت، واستيقظت على صوت رنين التليفون، وكان صوت زميل لي في الصحيفة التي أغلقتْ أبوابها، يقول لي إن هناك مجلة عربية تبحث عن مراسلات يكتبن عن أحوال المرأة في مصر، وإنه رشَّحني للعمل بسبب خبرتي السابقة بشئون النساء! واستمعت إليه وأنا بين النوم واليقظة — وعندما أفقت تمامًا؛ طلبته في التليفون وسألته إن كان قد اتصل بي حقًّا؛ فدهش وقال: «طبعًا! ولماذا لم تُصدِّقي؟» فلم أجد ما أقوله وشكرته، واتصلت على الفور برقم المجلة الذي أعطاني إياه، فتأكد صدق الخبر، ولم أُضِع وقتًا فقد كنت أحاول نسيان تلك المرأة وما قالته، وخرجت بسيارتي وقابلت رئيس المكتب فرحَّب بي وكلَّفني ببعض المهام، ووقَّعت عقد العمل وخرجتُ لأتناول طعام الإفطار الذي كنت نسيته.

قد لا تصدقني إن قلت لك إنني أنجزت في رمضان ما يتعذر إنجازه في أيام الإفطار، وكنتُ كلما أحسستُ بأنني انتهيت من موضوع فكرت في موضوع آخر وعرضته على رئيس المكتب حتى يتصل بمقر الصحيفة ويعطيني الضوء الأخضر، ولم يأتِ العيد حتى أحسستُ أنني نسيت أو كدت أنسى قريبتي وزوجها، ولكن المكتوب مكتوب؛ إذ كنت عائدة من زيارة قبر والدي في الصعيد — وكنتُ أحمد الله على نجاتي من حادثة سيارة كادت تقضي عليَّ في طريق العياط (وكان الخطأ خطئي أنا بسبب عادة «السرحان» التي اكتسبتُها) — وكنت أحاول أن أجد مكانًا للسيارة وسط الزحام، حين لمحت «محسن» واقفًا يُشير إليَّ بيده! لم أملك أن أتجاهله؛ فالواضح أنه كان ينتظرني، وكنتُ — مهما أنكرت — أحس بالعذاب في بُعْدِي عنه، فرددتُ الإشارة، وتركت السيارة للسائس، وتحكمت في

مشيتي وتعبير وجهي حتى لا أبدو متلهِّفة على لقائه — وسلمت عليه ثم سرنا خطوات في الشارع، دون أن نتبادل كلمات كثيرة، ثم توقفتُ كأنما لأستجمع شجاعتي وأواجهه — وإن كنت لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول له! إنه موقف يتطلب أديبًا محترفًا حتى يفرد له الصفحات، لكنَّني أقول لك فحسب إنني أحسست في داخلي دموعًا لا أسمح لعيني بأن تَذرفها، وشعرت بأنني أريده أن يَختطفني فيطير بي بعيدًا عن العالم الذي لم يعد له طعم ولا لون! لكنني تجلدت، وعندما طلب مني أن أسمح له بأن يُكلمني في التليفون وافقت. واستأذن ومضى.

لم أنم تلك الليلة في انتظار المكالمة غير أنها لم تأتِ إلا صباح اليوم التالي، ولم تكن مكالمة طويلة، لكنها كانت الروح التي أعادتني إلى الدنيا، فلقد طلب مني أن أتزوَّجه واشترط أن تقتصر إجابتي على «نعم» أو «لا»، فإذا كانت بالموافقة فلي أن أصمت وسوف يُفسِّر الصمت على أنه قبول، وصمتُّ لا لأنَّني وافقت ولكن لأن الذهول عقد لساني، فجاءني صوته يقول: «إذن خير البر عاجله! وسوف نذهب في الصباح إلى المأذون مع بعض أصدقائي ولا تَحملي همًّا لشيء! سوف أحادثك في المساء اليوم للاطمئنان.» ثم وضع السماعة.

كنت أريد أن أعرف ما حدث بينه وبين زوجته، وأريد أن أعرف ما لا يحصى من الأشياء، لكنَّني كنتُ كالمُسيَّرة مسلوبة الإرادة، أو كالمنوَّمَة تنويمًا مغناطيسيًّا، وحتى حين حادثته في التليفون ذلك المساء كنت أشعر أن صوتي يأتي من مكان غريب عن جسدي، وكان رنينه يدهشني، ولم يكن إحساسي — قطعًا — إحساس من تُقبِل على الزواج، فلم أكن أشعر أنني عروس أُزَفُّ إلى عريس، والواقع أنني لا أعرف بمَ كنت أشعر! وبينما أنا أحاول النوم رنَّ جرس التليفون وكان الصوت صوت سكرتيرة مدير المكتب، فسألتُها ما الخبر فقالت إن النقود قد وصلت وعليَّ أن أمرَّ على المكتب في الصباح لتسلُّم المال! لم أعرف ماذا أقول ولكنَّني تمالكت نفسي وقلت لها إنني لن أستطيع لأنني سوف أتزوج في الصباح عند مأذون الدقي، فقالت لي مبروك وانتهت المكالمة! وأحسستُ عندما قلت ذلك أنه أصبح حقيقة واقعة لا رجوع عنها، فنمت نومًا عميقًا وصحوت في الفجر واتجهت وحدي بالسيارة إلى مأذون الدقي، ففوجئتُ بحشدٍ حاشد من أصدقاء «محسن» ومن العاملين في مكتب المجلة، وبعد عقدِ القران اتَّجهنا بسيارتي إلى فندق مينا هاوس حيث كان قد حجز غرفة كبيرة لنا.»

وقالت «هدى» بعد الاستغراق في هذه التفاصيل الدقيقة إن ذلك كان يمثل بداية الوقوع في «بحر العسل» (وهو التعبير الذي استخدمه «حسن» المخرج فأعاد إلى ذهني هذه القصة) وكانت تقصد أنها كانت تتمتَّع بكل دقيقة في حياتها الجديدة، حتى بعد أن اكتشفت أن قريبتها (وصديقتها القديمة) ما زالت «على ذمَّة» زوجها! وكانت تقصد أنها لم تحاول أن تطلب من «محسن» تطليق زوجته، فربما كان ذلك يتطلَّب نفقات لا يستطيع تحمُّلها، كما أنه مسئول شرعًا عن تربية ابنته، وربما كان لا يزال يحب زوجته الأولى فهي لا تَعرف الكثير عن «نفسية الرجال» — كما تسميها — ولا تريد أن تستبق الأحداث فتعكر صفو الهناء الذي تعيش فيه. واهتدى ذهنها إلى حيلة تنقذها من الحيرة وهي أن تقنع نفسها بأن زوجها قد طلَّق زوجته القديمة، وأنه قد أصبح لها وحدها، وقضت شهورًا طويلة — وكان ذلك في صيف عام ١٩٨٣م — وهي لا تُريد أن تعرف إلا أنها قد تزوَّجت من هذا الرجل «الحلم» كما كانت تُسمِّيه، ورسَّخت في نفسها الاعتقاد بأن زوجته الأولى قد أصبحت «طليقة»، خصوصًا لأنه كان يقضي كل وقته معها هي، ولا يكاد يزور الأولى، ثم أقنعها هو آخر الأمر بأن تنتسب إلى كلية الآداب، فحصلت على الثانوية العامة من جديد، واختار لها قسم الفلسفة بعد أن ترقَّى فأصبح موجهًا أول للفلسفة، وانتدب للعمل في ديوان الوزارة، وكان يتنافس على الحصول على منصب مستشار الفلسفة (أو العلوم الاجتماعية) مع بعض أقرانه وأذكر أنني كنتُ لمحتُ اسمه ذات يوم على أحد كتب الوزارة وإن كنت غير واثق، فاسمه مألوف، ويتسمَّى به المئات بل الألوف من أبناء مصر.

وسوف أقف هنا عند مفهوم «بحر العسل» الذي شغلني على امتداد عام ١٩٨٩م، فلقد استوعبت رواية «هدى» لما حدث لها، وأزحت التفاصيل جانبًا وركزت على الدور الذي يلعبه الوعي في بناء هناء الإنسان أو شقائه؛ إذ كان من الواضح لي أن «هدى» كانت تخدع نفسها واعيةً، وكانت تدرك تمامًا ما قرَّرت أن تفعله بحياتها بعد تجربة زواجها الفاشلة، وساعدها في ذلك توقُّد ذهنها ورجاحة عقلها، وعزيمتها التي كثيرًا ما ألمح نظائر لها في أبناء الجيل الجديد؛ فهي من مواليد الخمسينيات كما قالت وإن لم تُحدِّد لي السنة، وأنا أرجِّح أنها من مواليد أوائل الخمسينيات كما أنها تَنتمي إلى الجيل الذي كان يؤمن بالعلم والعمل، ولم يَحُلْ ثراؤها النسبي دون مواصلة الدراسة وحُب الكتابة والقراءة، وكان واضحًا لي في إبَّان عام ١٩٨٩م أنها تمر بأزمة، وأن زوجها كان يمر هو الآخر بأزمة، ولذلك استعنت بعين الكاتب (التي أشرتُ إليها في فصل سابق) في وضع كل منهما

في مكانه باعتباره من الشخصيات التي سوف أعود إليها عندما يُجبرني عمل مسرحي ما على نشدان مثل هذه النماذج، وإن كنت في أعماقي أُكِنُّ إعجابًا لكل من يستطيع إنهاء علاقة والشروع في أخرى، فأنا أرى أن ذلك يتسبب في زلزلة كيان الإنسان نفسيًّا وذهنيًّا — إلى حد لا أستطيع تقبله ولو في خيالي!

وأعود إلى «بحر العسل». فهمتُ من هدى (في لقاءاتنا المتعدِّدة)، وممَّا قاله لي «محسن» طيلة انشغال هدى بالمقابلة الصحفية مع نهاد زوجتي، أنَّ العلاقة الزوجية بينهما كانت وثيقة إلى درجة شاذة — بمعنى غير مألوفة أو غير عادية — فهما لا يكادان يَفترقان، وحاولت بالقدر المحدود الذي أُلِمُّ به من علم النفس أن أفسر سرَّ ذلك فلم أفلح، بل إنني كنت أضع احتمالات متعدِّدة وأوازن بينها في خيالي ثم لا أنتهي إلى شيء. وفي فبراير ١٩٩٢م، أثناء عرض مسرحيتي **جاسوس في قصر السلطان** في المسرح القومي، قابلتُهما معًا في بوفيه مسرح الأزبكية (مسرح جورج أبيض) حيث تُعرض المسرحية، ولن أنسى تلك اللحظة ما حييت؛ إذ كنت أتكلَّم مع الدكتور حسنين ربيع عن الحادثة التاريخية التي تُصوِّرها المسرحية، فهو أستاذ تاريخ متخصِّص في تلك الفترة، وكان عميدًا لكليتِنا آنذاك، وكان يعترض على تصوير الممثل محمد أبو العينين للسلطان، حين رأيتهما أمامي معًا بعد سنوات طويلة، فأعادت المقابلة إلى ذهني ما قاله كلٌّ منهما لي، ودَعَوْتُهُمَا إلى الشاي، وأثناء وقوفنا أمام عامل البوفيه وجدت من يتقدَّم مِنِّي — أو منَّا — وكان الكاتب والمحلِّل السياسي رجب البنا (رئيس تحرير مجلَّة أكتوبر ورئيس مجلس إدارة دار المعارف اليوم — ٢٠٠٢م) فتصوَّرت أنه يريد تهنئتي فحسب، لكنه — بعد التهنئة — رحَّب بحرارة بـ «محسن» وعرفه بنفسه وذكره بأنه كان يدرس له العلوم الاجتماعية في الخمسينيات في مدرسة دمنهور الثانوية! وما إن أفقتُ من دهشتي حتى وجدت عبد الوهاب مطاوع، الكاتب المبدع، واقفًا بجواري يرشف الشاي ويقول في همس خفيض «مبروك»! وقلت في نفسي ليت ذلك الكاتب البارع يَطَّلِع على تلك القصة التي أختزنها فيُصدِر لنا فتواه فيها! غير أن الاستراحة انتهت، فسرتُ معهما حتى باب الصالة، لكن «محسن» قال إنه يريدني في أمرٍ هام، فسرت معه إلى ركن في الصالة المظلمة، وجلسنا وطلبت المزيد من الشاي، فقصَّ عليَّ المزيد، ولم نَنهض في الواقع حتى انتهت المسرحية وخرجتْ هدى ووعدتني بالكتابة عنها ثم افترقنا.

بدأ محسن حديثه بأن طلب مني التوسُّط بما يظنُّه لديَّ من نفوذ في وزارة التربية والتعليم حتى يصدر الوزير قرارًا بمد خدمته عامًا آخر؛ إذ كان سوف يُحال إلى التقاعد

في العام التالي، وهو في مسيس الحاجة إلى العمل، ووعدته خيرًا — بطبيعة الحال — وإن كنت أشكُّ في إمكان تحقيق مطلبه، ثم تطرق الحديث إلى ابنته التي أصبحت في الثانوية العامة و«تحلم» بالالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية، وفهمت الرسالة أيضًا، وكنتُ أريد أن أسأله أسئلة «شخصية» لكنني ترددت وإن كنت آمُل في أعماقي أن يتحدَّث هو دون أن أسأل، وذلك ما حدث فعلًا؛ إذ بدأ بالإشارة إلى تصوير «خاتون» في مسرحيتي، وهي الفتاة التي تعيش في خدر من خدور القصر وتحلم بعريس الأحلام، وأسرع يقول لي إن هذه هي الفتاة المصرية الحقيقية، لا الفتاة العاملة التي تنقلب على زوجها حين تُواتيها الفرصة، كما فعلت زوجته الأولى، وذكرني بما قصَّه عليَّ منذ أربع سنوات تقريبًا، ولم أكن قد نسيته، ثم أضاف إن المجتمع قد أخطأ حين سمح للمرأة بالتعليم ومنحها جميع الحقوق التي يتمتَّع بها الرجل انطلاقًا من افتراض المساواة الكاملة بين الجنسين، وتساءل في شبه مرارة: «ولكن هل هذا افتراض صحيح؟ إذا كنا نبني هذا الاستنتاج أو تلك النتيجة على أساس «مقدمة منطقية» غير مؤكَّدة الصحة، فلن تكون النتيجة مؤكدة الصحة!» وقلت له إنه يستخدم منطق أرسطو فيما لا يصحُّ فيه منطق أرسطو؛ فالمقدمة لا تَفترض المساواة في كل شيء بل في الحقوق والواجبات فقط وهي التي لا بدَّ أن يتساوى فيها جميع أبناء البلد الواحد في المُجتمَع المدني، وأمام القانون، وكنت سأمضي في شرح ما هو معروف حين قال لي فجأة: «المرأة هي المرأة في كل عصر وفي كل مكان، وهي لا تُريد إلا امتلاك الرجل بدافع الأمن لحياتها، فغريزة الإنجاب والأمومة قائمة ومركَّبة فيها ولو لم تنجب! إن علاقتها بالآخرين علاقة مَنْ تخرج الإنسان من بطنِها إلى الحياة فتتصوَّر أنه جزء منها ويَنتمي إليها، سواء كان رجلًا أم امرأة، ومن هنا جاء حب الامتلاك والسيطرة!»

وطلبت المزيد من الشاي، وانطلق هو فقصَّ عليَّ كيف تتنازعه امرأتان، وهو يشعر بأنه ظالمٌ لكلَيهما، وأن ما تُطالبانه به أكثر من طاقته البدنية، فلم يعد شابًّا، وأنه أخطأ مرتين، الأولى حين ساعد زوجته الأولى (التي كانت ما زالت في عصمته) على الارتقاء في سلَّم التعليم إلى نهايته، فانقلبت عليه وأصبحت لا تُريده أن ينظر إلى سواها من البشر، ولا أن يُفكِّر إلا فيها، وكانت تراقبه مراقبة مُضنية وتحرمه أحيانًا مما هو حق له، فتمرَّد وأعلن حريته بالزواج من هدى، وكانت المرة الثانية حين تصوَّر أن «هدى» سوف تُعطيه حقوقه دون تنغيصٍ أو امتلاك، فإذا بها نسخة مُكرَّرة من زوجته الأولى مع فارق أساسي هو أنها لم تنجب فأصبحت تعتبره ابنًا لها، وتصحبُه معها في كل مكان، «مثلما حدث عندما زُرناكم في المنزل!» فقلت له إنني كنت أتصوَّر أنك أنت الذي أصررت على

اصطحابها، فضحكَ ضحكة مريرة وقال: إن أخشى ما أخشاه هو المعاش (التقاعد)، فأنا الآن أتهرَّب منها بحُجة العمل، وأما حين أتقاعد فكيف أهرب من قبضتها؟ ومن ثمَّ كرر «محسن» طلبه لي بأن أتوسَّط لدى مَن أعرفهم في مكتب الوزير؛ فهو يعرف أنني أعرف الكثيرين، ويعرف أنني «خدوم» ولن أتأخر عن فعل ما أستطيع لمساعدته، وعندما بدأت أرد على حُجَجه الخاصة بالامتلاك وأنانية المرأة؛ لأقول له إن الرجل هو الذي لا يُريد لأحد أن يشاركه «ما يملك»، سمعنا التصفيق في الصالة، فنهض كأنما لإنهاء الحوار احتجاجًا بانتهاء المسرحية، وإن كنتُ واثقًا أنه يتهرب من مواجَهة ما كان واضحًا لي — أو ما اتَّضح لي آنذاك — كل الوضوح، ونهضت أنا أيضًا ولكن المسرحية لم تكن قد انتهت، فخطا خُطوة مترددِّة نحو الباب ثم مال عليَّ هامسًا:

«هل تعرف أنها كانت محجَّبة؟ وأنني أنا الذي أقنعتها بالتحرُّر من الطرحة استنادًا إلى أقوال الإمام الغزالي — رحمه الله — فلا يوجد شيء اسمه الزي الإسلامي، بل توجد الحشمة أو لا توجد، والحشمة قد تكون في الملبس أو في السلوك أو في داخل النفس! أنا الذي حررتُها من التظاهر وعلمتها فضيلة الصدق مع النفس ... حررتها فاستعبدتني بكل معنى الكلمة! أليست هذه مفارقة؟»

وقلت له وهل فكرت في أن تتركها؟ وشرحتُ بسرعة ما أعني كي لا يغضب: «أقصد إن كنت ترى في العلاقة استعبادًا فتحرَّر منها!» فإذا به يقول في أسى: «ليتني أستطيع! لقد أعادت صياغة حياتي في هذه السنوات العشر؛ فأنا أرى فيها شبابي، ولو أنها شارَفَت على الأربعين، إنها امرأة نادرة، ولن تتكرَّر!» وأدركت أنه قد وقع هو الآخر في «بحر العسل» دون أن يدري، ودون أن تخطر العبارة بباله! وانتهت المسرحية، وخرجت «هدى» فاطمأنَّت على أنه كان معي طول الوقت، وتأكَّدَتْ أنني حصلت منه على رقم التليفون، ثم خرجا معًا، وخرجتُ وحدي — لم أكن أريد أن أسمع تعليقات أو انتقادات أو حتى مدائح، إذ شغلتني كلماته، مثلما شغلتني كلمات «هدى» من قبل، وتمنيت في تلك اللحظة أن أكون كاتبًا روائيًّا حتى أسجل التفاصيل التي ازدحم بها ذهني، وأن أملأ فجوات القصة من نبع خيالي، فما أكثر ما كنتُ أجهله، خصوصًا عن الزوجة الأولى والابنة — وما أكثر ما كنت أريد أن أعرفه!

وتأملت ظلَّ الزوجِ وزوجته وهما يسيران جنبًا إلى جنب خارجَين من المسرح، وتابعتهما ببصري وهما يركبان السيارة ثم ينطلقان بصعوبة إلى ميدان العتبة، وقلت في نفسي: إن «الوعي» هنا جحيم أُلقيَ بهما فيه، سواء كان ذلك بإرادتهما أم رغمًا عنهما،

فكلٌّ منهما يعي حاله تمامًا ولا يخدع نفسه قطُّ، وكل منهما يحتمل لظى الوعي وشواظ لهيبه، وكلٌّ منهما يدور في «حلقة مفرغة» لا نهاية لها؛ لأن الوعي يمنع من كسرها ويحافظ على استمرارها، وقلت في نفسي، بعد أن انصرف الجمهور وعلى وجوههم تعبيرات مُتباينة، كم منهم يدور في دورة الوعي الجهنمية نفسها؟ ترى ما حال الزوجة الأولى التي يُصوِّرها كل منهما في صورة شيطانية؟ ترى ماذا تفعل في هذه الليلة مع ابنتها التي تُكابد أهوال الثانوية العامة؟ تُرى ما دخل العامل المادي (المال) في هذه العلاقة أو هذه العلاقات المتشابكة؟ وعندما عدت إلى المنزل جلست إلى المكتب فسجلت ملخصًا وافيًا لما دار في ذلك المساء، ولم أعد إليه إلا بعد سنوات!

٦

لم يُكتَب لي أن أعرف المزيد من التفاصيل عن قصة «هدى» و«محسن» قبل أن أشهد نهايتها، وإن كنتُ رأيت نظائر لها في بعض ما شهدته من أحداث، فهي تشبه في بعض ملامحها قصة صديقة لأخت زوجتي، وقصة صديق لي أعرفه منذ الصبا، وفي كل قصةٍ أجد أن «جحيم الوعي» أفظع كثيرًا من الأقنعة الرحيمة التي تحدثت عنها في الفصل الأول، فعلى نحو ما يقول ت. س. إليوت في إحدى مسرحياته، لا يستطيع الإنسان أن يحتمل جرعة أكبر مما يَنبغي من الواقع، وكلما ازدادت الجرعة ازداد نشدانًا لما يُخفِّف منها أو يساعده على تحملها، إما بالتدرع بالقناع أو بالهروب إلى ما يحميه من الواقع، وأنا نفسي ألجأ إلى العلاجين؛ فأحيانًا ما أرتدي قناع الأديب المبدع، على صغر حظي من الموهبة الأدبية أو الإبداعية، أو أهرب إلى مشاغل الترجمة والمعرفة هربًا من الواقع الذي يجثم على صدري منذ أن عربد مبضع الجراح في وجهي فشوَّهه، وكنتُ بعد في مطلع الخمسينيات من عمري أضع الخطط للمستقبل وأرسم أحلام الإنجاز والنبوغ! لكن الوعي لا يترك لي فرصة الهناء بالقناع أو بالهرب، فأتحوَّل فرارًا من نفسي في أحيان أخرى إلى الناس، فأجد فيهم العزاء والسلوى، وأجد في تأمل ما يزخر به الماضي من الأحداث، مهما يكن خطرها، قُدرة خاصة على التسرية والتلطيف، ولا بد أن صنعة المسرحي قد ساعدتني على ارتداء أقنعة كثيرة، واستعارة أقنعة الكثيرين، أو تقمُّص أدوارهم، نشدانًا لحيوات أخرى داخل نفوسهم، فحياة واحدة لا تَكفي، وزمن الرومانسي كثافة وعمق كما ذكرت من قبل.

لم يُكتب لي أن أتوسَّط لدى أحد في مكتب الوزير حتى يَمنح محسن المد الذي كان يطلبه، إذ شُغلت بالمرض طيلة عام ١٩٩٣م، وعندما عدت إلى الحياة كانت الدنيا قد

اختلفت في عيني، وكانت الأحداث السابقة للمرض تلوح لي كأنما وقعت في زمن سحيق، وكنت أطلق على هذا الزمن «ما قبل الطوفان» (pre-diluvian) فكأنما كنت أشعر أنني قد نجوت من طوفان نوح في السفينة (الفُلْكِ) وأنني ولدتُ من جديد فانقطعت صلتي تمامًا بما كان من قبل، أو بما كان يُمكن أن يكون، ما دام العالم قد اختلف، فكأنما انكسرت الدوائر، وانقطعت المسائر والمصائر! ولكن ذلك كان — كما اتَّضح لي من أوهام الصدمة وحسب، فدوائر الحياة مُستمرة، و«الحلقات المفرغة» قائمة، والأقنعة مُزدهرة، والوعي يُشعُّ لظاه فيشوي الوجوه! ولم أتبين ذلك إلا بمَحض المصادَفة ذات يوم أثناء زيارة للتجارب المسرحية التي كان محمد جابر المخرج يُجريها لترجمتي ليوليوس قيصر (مسرحية شيكسبير الرائعة) في مسرح الطليعة، في أواخر التسعينيات؛ إذ لمحتْ عيني في الصالة وجهًا يُشبه وجه هدى وبجوارها شخص لا أعرفه، فأنعمت النظر لكنني لم أتحقَّق مما رأيت وشغلتني البروفة عن معاودة الكَرَّة.

وعندما أضيئت أنوار الصالة وجدت «هدى» بشحمها ولحمها مقبلةً عليَّ هاشَّة باشَّة، ومن خلفها شابٌّ فارع الطول تُوحي ملامحه بالقرابة لمحسن، وإن كان في مُقتبل العمر قوي البنيان مفتول العضل، وعقدت الدهشة لساني فلم أدرِ ما أقول، ولكن «هدى» انطلقت تتكلم عن المسرحية وجمال الترجمة، ثم قالت كأنما بعبارة عارضة «كانت من أحب المسرحيات إلى قلب المرحوم «محسن»!» وأدرَكَتْ بفطنتِها أنني لم أكن أعلم بوفاته فأسرعتْ تضيف «لم يُطقْ صدمة المعاش فمات!» وتمتمتُ أنا «الله يرحمه» و«البقية في حياتك»، ولكنها تجاهلت مجاملتي وتحولت إلى الحديث عن مرضي فأكَّدتْ لي أنها كانت دائمة السؤال عني، ولو أنها لم تتمكن من الاتصال بي بسبب غيابها خارج مصر، إذ صَحِبَتْ زوجها الحالي (وأشارت إلى الشاب مفتول العضل) في إعارته إلى بلدٍ عربي شقيق! وظللتُ أسمعُ ولا أكاد أتكلَّم حتى أمر المخرج بعودة الممثلين إلى المسرح، واعتذرَتْ هي عن متابعة البروفة قائلةً: إن لديها مشاغل ملحَّة وخرجتْ مع زوجها إلى حيث يعلم الله!

وتساءلت في نفسي تُرَى كم عمرها الآن؟ لا بدَّ أنها قاربت الخمسين! لكنني أحسست بأن الهواجس الخبيثة هي التي تُملي ذلك الرقم فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم وقلت ما أقوله أحيانًا حين أسمع تلك الهواجس «ربنا يسهل لها! خلْقُ الله في مُلْكِ الله!» ولكن خبر وفاة «محسن» هزَّني هزًّا، ولا أذكر أنني اهتززتُ لوفاة أحد قبل ذلك إلا عندما قرأت نعي صديقي عبد الفتاح العدوي قبل عشر سنوات، وعلمت في غضون شهور من وفاته بوفاة الدكتورة سامية أسعد — الأستاذة في قسم اللغة الفرنسية وزميلتي في «فريق

الترجمة الطائر» (أي العامل بالمؤتمرات الدولية) إذ تبرز هذه اللحظات في أعماق وعيي كلما استغرقني تيار الحياة وجرفتني الأحداث اليومية المتلاحقة بتفاهاتها التي لا تنتهي.

نعم، الوعي هو جحيم الإنسان؛ لأن أثقاله أكبر من طاقته البشرية، وأنا — كما قلت — أرى أنه الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، الظلوم الجهول؛ فالهاجس الخبيث كان يقول لي: إن «هدى» هي الأرض الأم (a mother earth) وهي الصورة الأدبية التي اختارها الشعراء للتعبير عن رحم الأرض الذي يخرج منه الإنسان ليعود إليه، وأحيانًا ما يُوازنون بينه وبين «الدنيا» التي يصورونها في صورة المرأة المهلكة (femme fatale) أي التي تُغري فتغوي وتَلتهِم فتزدرد، ومن منَّا لم تشغله الدنيا حتى أنسته نفسه ولو في لحظة قد تمتدُّ فتُصبح دهرًا، وقد تقصر فتمر مر السحاب، وأما الهزة التي أصابتني عندما بلغني نبأ وفاة «محسن» (ولو من سنوات طويلة) فسببها أن شيئًا ما في أعماق وعيي كان يخشى تلك النهاية المفاجئة، وأما ارتباط تلك الهزة بنبأ وفاة عبد الفتاح العدوي وسامية أسعد؛ فهو أن الأول كان يعمل بعد عودته من الإعارة في إدارة مكتب للإعلام (للنشر والترجمة) وكان قد كلف الدكتورة سامية بترجمة كتاب عن «البهائية» إلى اللغة الفرنسية، وكلف الدكتورة سلوى كامل أستاذة اللغة الإنجليزية في قسمنا والمترجمة الفذة (والشاعرة المرهَفة) بترجمته إلى الإنجليزية، وكانت «هدى» تعمل في المكتب «بعض الوقت» — وفجأة انهار المشروع لأسباب قدرية، فلم يحصل المترجمان على حقوقهما، ولم ينشر الكتاب، وسافرت الدكتورة سلوى في إعارة وتُوفي «محسن».

كيف اجتمعت هذه الأحداث في أعماق وعيي وأنا أسمع نبأ وفاته؟

إنها صورة الأرض الأم التي تدعو أبناءها إلى العودة بأن تشغلهم عما وراءها — ما قبلها وما بعدها — كما يقول وردزورث (في قصيدة **خاطرات الخلود** — الفقرة ٦):

الأرض تملأ حجرها بملاذٍّ من ملاذِّها!
فتلك من أشواقها،
وتنتمي لطبعها،
وبلمسة من فكر عقل الأمِّ،
ولغايةٍ قد لا تُذَمُّ،
تقوم تلك المرضعة،
حتى وإن تكُ ساذجة،

بفعل ما في طوقها لتجعل ابنها،
بل من تبنَّته هنا،
أي تجعل الإنسان قاطنها،
لا يذكر المجد الذي عرفه،
والقصر الإمبراطوري بعدما غادره!

والأرض تتمثَّل في الأدب في صورة مَن تهبُ الحياة (الأم) وتسلبها (الزوجة) حتى تهبَها من جدِّي (للابن) ولذلك فهي صورة دائرية تَنتمي إلى الأنماط الفِطرية التي سبق أن تحدَّثت عنها، والمعروف أن «النمط الفطري» يتضمَّن المفارقة في كُنهه؛ فالأرض هي التراب الذي خلق منه آدم ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ (آل عمران: ٥٩)، فهو مصدر الحياة لنا لأننا نأكُل من زرعِه وثمره، ويأكُل منه الحيوان الذي نأكله، وهو ما نعود إليه ونتحوَّل إليه، ولله دَر أبي العلاء المعري الذي يذكرنا بهذه الحقيقة، وهو المعنى الذي عاد إليه عمر الخيام في رباعياته التي أبدع رامي ترجمتها نظمًا، والماء كذلك «نمطٌ فطري» فهو ذو حركة دائرية، فالإنسان يُخلَق من ماء — ﴿مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ (القيامة: ٣٧) وكل شيء حي خُلِقَ من ماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠) ولكن الماء أيضًا هو الذي أغرق مَن كفروا بنوح عليه السلام، ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود: ٣٧) والبحر صورة للضياع (مثل الصحراء) والتيه لا للموت فحسب، وقِس على ذلك أنماطًا فطرية أخرى مثل النار والهواء وغيرهما، ولكنَّ الذي أرمي إليه من هذا الاستطراد هو قُدرة الوعي على احتواء الأحداث في صور فطرية تربط بينها برباط قد لا يخطر ببالِ غير المتخصِّص، وأذكر أنني شاهدت مع نهاد زوجتي فيلمًا سينمائيًّا في أواخر الستينيات في إنجلترا يَعتمِد فيه المخرج على صورة الأرض المزدوجة الدلالة (ambivalent) فتداعت إلى ذهني صورها في الأدب واندمجت في أحداث الفيلم الذي كان يُصوِّر — على المستوى الواقعي — تدمير امرأة لرجل، وأحببت الصورة وتداعياتها، ولكن نهاد قالت لي: إنَّ الفيلم يعتمد على الصورة التي ابتكرها خيال الرجال ولا يَقبلها خيال المرأة؛ أي إنها كانت صورة من وجهة نظر ذكورية، وكنا آنذاك في مطلع حركة نصرة المرأة (feminism) أو الحركة النسوية الجديدة، وعندما قلت لنهاد إنَّ الأدب العالمي كله يؤكد هذه الصورة، ويساند اعتبارها من الأنماط الفطرية، ردت قائلة إن ذلك الأدب كتبه رجال حلا لهم أن يُلقوا بأثقال إحباطاتهم على المرأة.

وقد يكون ذلك صحيحًا، فلماذا أعفي محسن من مسئولية ما أصابه؟ ولماذا أستبعد زوجته الأولى من الصورة؟ هل لأنني رجل استوعبت أدب الرجال فحدَّد مسار وعيي بالأرض الأم التي ابتدعها أدباء من الرجال؟ نعم! ها أنا ذا أعود إلى الوعي، ولذلك نشط من نقاد الأدب اليوم مَن يصُبُّون اهتمامهم على قضية تشكيل الوعي، ويجعلون للقارئ دورًا مهمًّا في مسار وعي الكاتب، وهو ما يُسمى بمنهج نقد «استجابة القارئ»، وفي ظني أن كولريدج قد سبق المحدثين (ومن قبل الجميع أبو العلاء المعري) في الإشارة إلى ذلك؛ إذ قال: إن كل كاتب يشارك في تشكيل «الذوق» الذي يَلزم لتذوُّق إبداعاته، و«الذوق كلمة قديمة لما أفضِّل أن أسميه «الحس» الجمالي الكامن في الوعي» — وسوف أفصِّل القول في ذلك.

إنَّ قارئ قصة «هدى»، على افتقارها إلى المقومات الفنية، فهي لا تعدو كونها شذرات مما عرفته وشهدتُه، قد يتعاطَف معها لأنه عرفها، فوعيه بمُشكلتها التي قد تبدو عادية متكرِّرة يقربه منها ويرغمه على التعاطف معها، وقد يتعاطف مع «محسن» لأنه عرَف عنه ما يكفي؛ أي إن وعيه استوعب قدرًا كافيًا من العلم به، لكنه ربما لن يتعاطَف مع الزوجة الأولى؛ لأنه لا يعرف عنها إلا ما قالتْه «هدى» وما قاله «محسن»، وقد يكون في قول أحدهما أو كلاهما قدر من الكذب، بل قد يكونا صادقَين، ولكن المعرفة بالزوجة من وجهة نظرهما وحدها تُقيم لها في وعي القارئ كيانًا ناقصًا أو تكتنفه الظلال، وهكذا فإذا اعتبرنا هذه الحادثة الواقعية قصة فنية وجدنا أن «مذاقنا» (أو ما أصبح يسمى «بالذائقة») — وهو الذي يتشكل من عدة عوامل، بعضها مستقى من التراث الأدبي وبعضها مستقًى من الأعراف السائدة في المجتمع — سيَخضع لوعينا بحياتها كما صورتها «هدى» وكما صوَّرها «محسن» دون سواهما، وسوف تخضع أحكامنا النقدية (ولا أقول «الخلقية») لما تشكل في الوعي فقط، وكل ما عدا ذلك يصبح خارج دائرة تفكيرنا أو إحساسنا، وذلك هو جوهر مذهب الظاهراتية (phenomenology) الذي اقترن باسم الفيلسوف هوسرل — كما ذكرت في التمهيد.

ومعنى ذلك أن الأديب يستطيع التحكُّم في «الذائقة»، مهما يكن الاختلاف البادي بين المتلقِّين فيها؛ أي على تفاوت درجات نموها أو قصورها لديهم، حين يحكم السيطرة على ما يُتيحه من المادة التي يستطيع الوعي استيعابها في غضون قراءة العمل الأدبي أو تلقيه (سماعه أو مُشاهدته).

ولقد تعمَّدت أن أكون محايدًا قدر الطاقة في نقل رواية كل من هاتين الشخصيتين لما حدث له، خصوصًا عندما قابلت «هدى» في مسرح الطليعة وأبلغتني بنبأ وفاة «محسن»

— لكنني أشعر الآن وبعد أن فرغت من رواية الحدث المجرَّد أنني كنت في أعماقي حزينًا على الرجل، وأنني لم أبذل الجهد اللازم للتعاطُف معها أو مع الزوجة الأولى وابنتها، وما أقصد من ذلك كله إلا تأكيد صحة ما أذهب إليه من أننا نجد حياتنا الحقة في الوعي، وإذا صدق البوذيون في تصور خلود الوعي، رغم محاولاتهم الدائبة لتحقيق الفناء، فإنهم يكونون قد اقتربوا من فكرة الخلود التي أرشدتْنا إليها الأديان السماوية، وأرشدتْهم إليها الفطرة الإنسانية ولو لم يُرسَل إليهم رسول.

وأختتم هذا الفصل الذي أرهقني شعوريًّا بإبداء رأي لا أظنه جديدًا؛ ألا وهو أنَّ حركة الأدب في أي مجتمع تتجلى فيها حركة وعي هذا المجتمع، بمعنى أن الظواهر الأدبية قد تكون دليلًا على مسار معيَّن في وعي الأدباء والقرَّاء؛ فغلبة النثر على الشعر في عالمنا العربي يتجلى فيها غياب طرب الإيقاع — وهو الطرب الذي تميز به الأدب العربي على امتداد تاريخه الطويل، حتى في النثر التراثي — وغياب الإحساس بجمال النَّظم يدلُّ على تغير معيَّن في الوعي — وهو مكمن «الذائقة» كما أسلفت — فالذي يَكتُب شعرًا منثورًا ويظنُّه منظومًا (وما أكثر هؤلاء) يُعاني من خللٍ في وعيه بالإيقاع المطلق، ومَن يبتعدون عن تأمُّل جمال الضغط في أسلوب الشعر (condensation) أو سمِّه كثافة أسلوب الشعر (وهم الغالبية) يشُون بخلل في الوعي بالبسط والتكثيف، وكل ذلك من سمات «ما بعد الحداثة»، فالخلل في «العلامات» التي تسود المجتمع يؤدي إلى خلل في الوعي بمعاني العلامات؛ ومن ثم بمعاني القيم، إلى آخر ما سبق لي الحديث عنه من غلبة الحكم باللونين الأبيض والأسود، وغياب رهافة الإحساس بما بينهما من درجات — لا يستطيع إلا شحذ الوعي أن يوصلنا إليها.

الفصل الخامس

١

أبدأ هذا الفصل الذي سوف أحكي فيه حكايات القوة تفريقًا بينها وبين القُدرة — بفقرة طويلة من قصيدة **خاطرات الخلود** للشاعر وردزورث، وهي التي سبَقَ أن اقتطفت منها فقرتَين؛ إذ إن عنوان هذه القصيدة يَشِي بموضوع هذه الحكايات بل وبفكرة الواحات كلها، وربما سنحَت لي الفرصة لترجمة المزيد منها. هذه هي الفقرة التاسعة في ترجمة تكاد تكون حرفية (من بحر الخبب وهو الصورة الحديثة للمتدارك أو المحدث):

يا فَرْحُ! أيا من تحيا في جمر الصدر،
وتؤكد أن طبيعتنا تَذكُر ما مرَّ وفرَّ!
ذِكر الأعوام الماضية المنسية،
يُنبتُ في نفسي بركات أبدية،
لكني لا أرفع آيات المدحِ وألحانَ الشُّكر،
إلى ما هو أجدر أن يوسم بالبركة؛
كالبهجة والحرية!
ديدن كل الأطفال الساذج في العمل أو الراحة!
فهما كالطائر يخفق دومًا بقشيب الريشْ!
في جنبات الصدر!
بل أشكر أسئلة صمَّاء عنيدة،
مما يطرحه الحس،
أو يمثل خارج هذي النفس!

أسئلة تَسَّاقط منَّا بل تتلاشى،
ومخاوف خاوية بهمة،
بسريرة مخلوق هام على وجهه،
بعوالم وهمِه،
وغرائز عُليا واجَهَها الطبع الفاني،
فارتعد كرعدة قلب الجاني،
إن فاجأه إنسان!
أشكر أُولى أربطة الحب،
أو ما غام بذكرى القلب،
أيًّا كانت تلك جميعًا!
إذ ما زالت نبعَ ضياءِ نهاري،
والضوء السائد في إبصاري،
نستند إليها نعتز بها ولها من فرط القوة،
ما يجعل ضوضاء سنين العمر،
تبدو لحظات بكيان الصمت السرمد،
وهي حقائق تصحو كي لا تفنى أبدًا!
لن تفلح هبات القلق ولا السعي المجنون،
بل لن يفلح رجل أو بعض صبي،
أو قل أي عدو للفرح الطفليِّ،
في طمس معالمها أو تدمير هياكلها يومًا ما!
وإذن في موسم صفو الجو،
مهما يكن الشط بعيدًا عنا،
نجد الأرواح وقد شهدت ذاك البحر الخالد،
فلقد جئنا منه هنا،
ولنا أن نرجع في غمضة عين،
لنرى الأطفال على الشاطئ تلهو،
ولنسمع صوت الأمواه الجبارة أبدًا يعلو!

أقول إنها ترجمة شبه حرفية، على ما فيها من الوزن والقافية محاكاة للنص الأجنبي؛ لأنها تلتزم المعنى التزامًا صارمًا، وما أحسب النثر بقادر على إخراج ترجمة أدق، ولم

أسمح لنفسي بقدر من الحرية يزيد عما يَقتضيه فنُّ الترجمة من نشدان للمعنى وإن تغيَّر بناء الجملة، ولن أفيض في ذلك فكتبي في الترجمة تفي بالغرض، ولكنني قصدت من إيراد هذه الفقرة أن أمهِّد لحديثي عن «القوة»، وهي الكلمة العربية التي نترجم بها كلمتَي (power) و(force) الإنجليزيتَين، على ما بينهما من فروق، والتمييز بينهما جميعًا وبين كلمة القدرة — أو المقدرة — أي (ability) أو (capacity) وهي تَشترك جميعًا في عنصر واحد من عناصر المعنى لنا أن نُطلق عليه عنصر «الطاقة» أو «الطوق»، وإن كانت الكلمتان الأوليان تَنصرفان إلى الصورة الفعلية لها، والأُخريان إلى الصورة الكامنة — بمعنى أن القوة، سواء كانت power (السلطة، النفوذ، الطاقة الكهربية!) أو كانت force (القوة المادية — كالعنف violence — أو القوة الجبرية — كالإرغام compulsion) تتخذ أشكالًا ملموسة في واقع الحياة، فذو السلطة يتحكَّم في غيره فيُحدِّد مسار سلوكه، أو يأمره فيُطيع، ومَن يستخدم القوة المادية (كالقوة العسكرية أو البدنية) يثبت صورها في الواقع المحسوس أو الملموس، وأما الطاقة (وهي التي أصبح لها مرادف جديد هو energy) فهي ما يستطيع الإنسان أو الشيء أن يفعله ولو لم يفعله؛ فهي كامنة في كل شيء، وهو ما كان شوبنهاور يعنيه بالإرادة أي (will) أو (volition) بمعنى أن لكل شيء طاقة كامنة وذاتية فيه، وما حركة الكون إلا ثمرة لتصارع تلك الإرادات أي القوى أو القُدرات أو الطاقات الكامنة، والمناطقة يفرقون بين الموجود «بالقوة» (potential) أي الذي لديه الطاقة على أن يوجد وبين الموجود «بالفعل» (actual)؛ أي ما له صورة مادية محقَّقة، ولكن هذا الحديث قد يخرج بنا عما قصدت إليه، فلأَعُدْ إلى ما يقوله وردزورث، وهو ما يَعنيني في هذا الفصل، أي إن الإنسان لديه الطاقة النفسية التي يستطيع بها إدراك ما يتجاوز الحواس، فيستشرف آفاق موجودات قد لا يعترف بها العلم الطبيعي الحديث (modern natural science) الذي وُلد في أواخر القرن التاسع عشر، مثل الموجودات الروحية، أو الموجودات الفكرية (مثل أنساق القيم)، أو النفسية (مثل المشاعر والروابط الإنسانية)، أو حتى ما نُسمِّيه أشكال الوجود الخفية، وما يسميه وردزورث أشكال الوجود المجهولة (unknown modes of being) والشاعر يقول: إنَّ ذكريات الطفولة مصدر قوة (power) بمعنى أنها توقظ الطاقة الكامنة في الإنسان على رؤية سنوات العمر بصخبها وضجيجها في صورة لحظات في كيان السكون أو الصمت السرمدي، وهو يصفها بأنها «حقائق» إن استيقظت فلن تفنى أبدًا، بمعنى أن ما يَخْبُرُهُ الطفل من رؤى ذات طلاوة تهبه «القدرة» على استشفاف أشكال الوجود المجهولة، وهي

القدرة التي تتحول إلى قوة لأنها تُصبح طاقة دائمة أو كما يقول لأنَّها إذا أشرقت يومًا في نفس الإنسان أو في روحه فلن تغرب أبدًا؛ ومن ثم فقد كان يحاول أن يفسر في الفقرات الأربعة الأولى من القصيدة المشار إليها، والتي كتبها في عام ١٨٠٢م، سر انطواء هذه اللحظات أو اختفائها، وكان يعتبرها المسئولة عن إلهامه الشِّعري، وأنهى الفقرات الأربع بالتساؤل عن فرار «شعاع الرؤى الغامر» أو البريق الذي يكسو الوجود أو قبس النور العُلوي الذي يهب الطفل الإحساس بالانتماء إلى الكون انتماءً روحيًّا أصيلًا، وهو نُورٌ ماديٌّ يفصح عن نورٍ علوي، وبعد عامَين عانى فيهما ما عانى، وكتب فيهما جانبًا من سيرته الذاتية التي أطلقت عليها زوجته (ماري هتشنسون) عنوان المقدمة، باعتبار أنها كانت تمثل «مقدمة» ملحمَة لم يُكتَب لها أن يَستكملها عن «الإنسان والطبيعة والمجتمع» عاد إلى القصيدة فكتب الفقرات التي سبق لي إيراد بعضها والتي تبدأ بالبيت (ما مولد الإنسان إلا رقدة — نومٌ ونسيان) حتى يُفسِّر لنفسه، كما قلت، ما اعتراه من نقصان. وهذان هما البيتان اللذان يُنهي بهما الفقرة الرابعة:

Whither is fled the visionary gleam,
Where is it now, the glory and the dream?

ترى أين فرَّ شعاعُ الرؤى الغامرُ؟
وأين هو الآنَ والمجدُ والحُلُمُ الباهرُ؟

أي إن الشاعر كان يحاول عن طريق **الفكر الواعي** تفسير ما أدركه **ببصيرته** من انفصال «القوة» عن «القُدرة» ولم يكن يظن أنهما ينفصلان، وكان يُحاول أن يَسترجع القوة بالعودة إلى مكامنها (الطاقة أو القدرة لدى الطفل) أي باسترجاع الذكريات التي ارتبطت بها، وكانت سيرته الذاتية محاولة لرأب الصدع بين ما هو كامن (موجود «بالقوة») وما هو متحقِّق (موجود «بالفعل») وذلك ما يفعله كل مَن يكتب سيرة ذاتية أدبية، وأعدُّ نفسي — بكل تواضع — بين هؤلاء، فأنا أعرف ما ضاع من رؤى الطفولة ذات الكمال والجمال، وإذا كنت أسرفت في رصد الأحداث في الأجزاء الثلاثة الأولى من السيرة الذاتية الأدبية، فما كان ذلك إلا إقرارًا بما ضاع، وكثيرًا ما أتأسى عندما أذكر لحظة من اللحظات التي مضت إلى الأبد، شهدت فيها ما شهدت، وأحسست فيها ما أحسست، ثم انقضَت كأنَّما إلى عدم، لكنها أحيَت في النفس ما يقول الشاعر إنه «يصحو كي لا

يَفنى أبدًا»، وما تأملاتي الآن إلا استكمال للصورة التي حاولت رسمها فتفاوت حظي بين التوفيق والإخفاق.

وبين يديَّ مذكرات دونت فيها كيف يطغى السعي لتحقق القوة المادية (المال والجاه والنفوذ) على القدرة النفسية فيطمسها طمسًا، ولديَّ نماذج لأناس كانت لديهم قدرات فنية أو ذهنية تضاءلت أو تراجعت أو هجعت في غمار السعي المحموم لتحقيق ذواتهم في هذه الدنيا، وكان انطواء تلك القُدرات لديهم إيذانًا بانطواء القدرة النفسية، فإذا بهم (وقد تقطعت بهم سُبل التواصُل مع منابع الطاقة في النفس) يضعفون عن الصمود في وجه المِحَن، فيَعجزون عن التصدي لنوائب الدهر على الرغم مما حقَّقوه من مظاهر القوة المادية، ولقد انتهيت عندما أعدتُ قراءة هذه المذكرات إلى أن القوة الحقيقية (وهي التي يُسمِّيها وردزورث Strength أي عكس الضعف) لا بد أن تنبع من إنماء القدرات الفطرية التي يَهبُها الله لعباده، وعلى رأسها القدرة النفسية — أي طاقة النفس على التأمُّل، والحس الجمالي، واليقظة الرُّوحية (سواء أسميناها الضمير أو الذمة أو الورع) — ومنها يَنبع تكامل القدرات الأخرى الباطنة وإمكان نموها؛ أي إنني انتهيت إلى ما يبدو أنه مُفارقة وما هو كذلك؛ أي إلى أن **مصدر القوة الحقيقة** يكمن في دحر **نزعة القوة المادية** عن طريق تنمية الطاقات الباطنة وعدم تجاهلها مهما تكن الظروف، وإن لم يستطع المرء الموازنة بين الحرص على تحقيق القوة المادية وتنمية الطاقة النفسية، غلبتْه الأولى دون مراء، فهي ذات جبروت، وهي — كما يقول تشيكو — «تبتلع الإنسان ابتلاعًا»، فهي تتسلَّل أولًا كأنما تسترق الخطى إلى داخل الإنسان، ثم لا تلبَث أن تستولي عليه، كما يتجلَّى في الحكايات التي سوف أحكيها، وهي حكايات أناس لا يزال بعضهم يعيش بيننا وأتمنَّى مُخلصًا ألا أجور على أحداثها بالاختصار المخل والحذف (مما يُحتِّمه سياق الرواية) في سبيل إيضاح الفكرة؛ فالوضوح مبتغاي في كل ما أكتب، وأنا أشعر الآن — بعد أن حققت بعض المرامي الأدبية — أن من واجبي أن أنقل إلى الأجيال الجديدة خبرات «القوة» و«القدرة»، لا في عالم الكتابة الذي أنتمي إليه وحده، بل في عالم الناس — أي عالم البشر كلهم، عالم الأحياء الذين أحبهم وأتعاطف معهم وأنتمي إليهم فكرًا وقلبًا مثلما أنتمي بدنًا وروحًا.

فأما الحكاية الأولى فهي حكاية رجل وهبه الله موهبة فنية فذة، فكان يستطيع أن يتأمل الحياة والناس تأملات تتسم بالأصالة والجدة، وأن يضع هذه التأملات في صور نابضة تصل بسهولة إلى قلوب القراء، وكانت تلك في نظري قدرة أو طاقة فنية فذة، إذ

كان يستطيع أن يتحدث لغة الناس «وفكر الناس» بمعنى القدرة على «التواصل الحي» مع الجمهور، فيصل إلى قلوبهم، ويمس اهتماماتهم الأساسية في كل ما يكتب، وكان من أهم ما قرَّبني إليه في بواكير حياتي الأدبية «قدرته» على التمييز بين القناع الواقع، فإذا تزلَّف إلى أحد المسئولين قال لي إنه كان يفضل لو أن الحياة لم تتطلَّب التزلف لكن الواقع يقتضيه ولا مهرب من الواقع، وقد شهدته ذات مساء يُداهن موظفًا كبيرًا أو قل مسئولًا كبيرًا (رحمه الله) فإذا به مبدع في التزلُّف، ينتقي الألفاظ بعناية ويُلقي كلماته بما يشبه الاقتناع الكامل، ويرسم للزلفى حدودًا لا تتعداها حتى لا يَفقد مصداقيته، وكنت أستمع إليه في دهشة وإعجاب، فإذا خلوت إليه سألني رأيي فيما قال وفعل، وانثنى يشرح «أصول اللعبة»، وكان إقرارُه بالخطأ لا يدع لك مجالًا للَّوم أو الانتقاد؛ فقد تصالح مع «الوعي» فلم يَعُد يُؤلمه، وكنا — أنا وسمير سرحان — نُطلق عليه ملك التبرير؛ إذ كان يكاد يتخصَّص في تبرير ما يفعل، بمعنى أنه كان يستطيع أن يجد أسبابًا منطقية (تكاد تكون مقنعة) لأفعاله مهما بلغ من شطط خياله في تصويرها، فكنت أراه في حياته «يؤلف» مثلما «يؤلف» في كتاباته، وعندما ذكرت ذلك لسعد الدين وهبة ضحك وقال إنه مثل عبد الرحمن الخميسي المبدع في الحياة والفن جميعًا، وقصَّ عليَّ بعض القصص التي تُؤكد — من وجهة نظر سعد وهبة — تداخل الخيال والواقع لديه، وكان رأيي آنذاك (وربما كنت مخطئًا) هو أنه يَختلف عن الخميسي في أنه لا يرى قداسة للواقع، فهو يتجاوَزه بخياله مدفوعًا بقوة ذلك الخيال أو «المخيلة المبدعة». وأذكر أنني زرته ذات يوم في منزله مع سمير سرحان، في شارع حسن الأكبر، في عابدين، وجلسنا نستمع إلى قصة يرويها عن مرض أصابه، وأسرف في سرد التفاصيل بحيث شدَّني شدًّا إلى روايته حتى انتهى منها، وعندما خرجنا أبديت لسمير تعاطُفي معه فضحك وقال «وهل صدَّقته؟» ونظرت إليه دهشًا فقال: «إنها قصة ملفَّقة من ألِفها إلى يائها، وأما ما أصابه فهو شخص خيالي يكتب عنه الآن سباعية في الإذاعة!» وسألته عما دعاه إلى نسبة المرض لنفسه (وفي هذا «تفويل» مكروه) فقال: «إنه كان يؤلف بصوت عالٍ، و«يجرب» تأثير القصة في المستمع!» ولما أبديتُ شكوكي في هذا، قال سمير: إن صاحبنا كان في الفترة التي نسَب إلى نفسه المرض فيها يعمل في العراق مع قادة الثورة الوليدة — وكنا في مطلع الستينيات — وكانت أحاديثُه تملأ الصحف ومحطة الإذاعة! ولم أعجب بعد ذلك من أي شيء يرويه، إذ وطَّنْتُ النفس على تقبُّل رواياته تقبُّل القارئ لعمل أدبي!

وكنت ولا شك معجبًا بهذه القدرة، رغم إدانتي للكذب من ناحية المبدأ، ولكنني — كما ذكرت في فصل سابق — أرى أن «الكذب الفني» لدى بعض هؤلاء الكُتَّاب جزء

لا يتجزأ من عمل الخيال، وعندما كنت أذكره وأنا في إنجلترا أو أشير إلى تلك الخصيصة من خصائصه في أحاديثي مع زملاء الدراسات العليا الإنجليز لا أواجه بدهشة، بل بتقبل طبيعي للكذب الفني باعتباره «دالة» (function) من دوال الخيال، بل قال لي زميلي «إيرست» (الذي كان يدرس معي وردزورث) إن لديه أصدقاء «يتمتَّعون» بتلك الطاقة، وانبرى يدافع عنها، قائلًا: إنها لون من ألوان الإبداع، وأظنُّه أشار إلى مقولة للشاعر الأعظم ت. س. إليوت (في إحدى مسرحياته، وأظنها **جريمة قتل في الكاتدرائية**) يقول فيها: «كما أشرت إلى ذلك من قبل» إن الإنسان لا يستطيع أن يتحمَّل إلا حدًّا محدودًا من الواقع!

ورأيت حينذاك أن خيالات الشعر دليل على «قدرة» باطنة على الإبداع، ولذلك أقمت في ذهني «رابطة خفية» بين انطلاقات خيال صاحبنا وبين طاقته الفنية، بل أسرفت في تصور دلالة تلك الانطلاقات على وجود طاقة النفس التي تحدثت عنها في الصفحات السابقة، والحق أنه كان ذا طاقات نفسية لا شك فيها، وإن كنت في أعماقي غير راضٍ عن طموحاته البادية في سلوكه، ونزوعه إلى التقرب من الكبار، واهتمامه الشديد بالمال، ولم يكن في الواقع بخيلًا، بل كان ينفق ذات اليمين وذات الشمال، لكنه كان يبدي احترامًا دفينًا للمال في ذاته، وكان ذلك يتناقَض في نظري مع طاقاته الفنية.

وعندما عدتُ من البعثة عام ١٩٧٥م كان صاحبنا قد أصبح يشغل مركزًا مهمًّا في إحدى الصحف، ثم ما لبث أن ترك المنصب إلى «العمل الحر»، وبدا لي أنه تَناسى مبادئه الاشتراكية القديمة، واشترى سيارة فارهة، ثم اختفى في أواخر السبعينيات وانقطعت أخباره، وكان لديَّ ما يشغلني عنه فلم أسأل ولم أكترث، بل لم أكن أعرف أين يقيم — هل في مصر أم في الخارج — حتى فوجئتُ باتصال تليفوني وأنا في جدة، أثناء عملي بجامعة الملك عبد العزيز — يقول لي فيه: إنه يُريدني لأمر هام، وفرحت لسماع صوته، وكان ذلك في شتاء عام ١٩٨٣م، فرحبت به واتفقنا على موعد في فندق «جراند هيات» القريب من محل إقامتي في جدة، وعندما التقينا وجدت شخصًا بالغ الاختلاف؛ إذ كان يتحدث بلهجة رجال الأعمال، وكان يشير إلى مقر عمله باسم «المكتب»، وبعد اللقاء الذي استمر ثلاث ساعات، صحبني بالسيارة الفارهة التي كان يقودها سائق خاص من إحدى البلدان العربية (الأفريقية) إلى منزلي، بعد أن اتفقْنا على مواصلة اللقاء في موعد لاحق، وهاك ملخصًا لما قاله وما عرفته منه، والله وحده يعلم نِسبة الخيال فيه إلى الحقيقة، وإن كنت لن أذكر هنا إلا ما أتصوَّره «حقائق»، وهي التي أكَّد صدقها ما رواه آخرون وما شهدته بنفسي.

بدأ صاحبنا حديثه بأنْ عرض عليَّ مشروعًا للترجمة، وكنتُ آنذاك مشغولًا بترجمة معاني القرآن، وهو المشروع الذي سبق أن أشرتُ إليه في **واحات مصرية**، فلم أتحمَّس لمشروعه الحماس الذي كان يتوقعه، وإن لم أرفض، إذ كان عليَّ أن أجاريَه حتى أستمع لقصته، وهي قصة طويلة جدًّا، حكاها في دفقات واستطرادات، إذ كان يعنُّ له أثناء القصِّ أن ينحرف يمنةً أو يسرة ليرويَ قصة حب (لا تهمني وإن بدا أنها تهمه) أو مغامرة عاطفية عجيبة، لكنه كان يرجع دائمًا إلى ما كان يظنه جديرًا بلفت اهتمامي، وهو مشروع الترجمة، وبعد أن انتهى من التفاصيل قال بثقة: «المهم هو أننا لن نتعب في الترجمة بأنفسنا ولا حتى في المراجعة إلا إذا كان الموضوع حساسًا، لكننا سوف نَستأجر مَن يقوم بالعمل من المترجمين والمراجعين ونُعطيهم أجورهم، ثم نتولى الطباعة والنشر والتوزيع في البلاد العربية؛ فنحن مقبلون على فترة توسع في النشر لم يشهد الوطن العربي لها مثيلًا، ولنا زبائن مضمونة؛ ألا وهي المكتبات الجامعية والمدرسية، وقد تعاقدت معها بالفعل، فنحن نضمن التسويق والأرباح الطائلة.»

ولم أشأ أن أدخل في التفاصيل حتى لا يتصوَّر أنني وافقت بصورة نهائية، وكان الظن يلازمني بأن الخيال يلعب هنا دورًا مهمًّا، خصوصًا عندما بدأ يتحدث عن التوسُّع في المشروع بالترجمة إلى اللغة الإنجليزية، خصوصًا ترجمة الكتب الإسلامية التي تصادف رواجًا كبيرًا في بلاد المسلمين الناطقين بالإنجليزية، وكان يَذكر أرقامًا خِلْتُ أنه يبالغ فيها عن حجم المبيعات المتوقَّع، وحجم الأرباح المنتَظَرة، لكنني لم أعلق، حتى بدا لي أنه انتهى من عرض «المشروع» فسألته إن كان ذلك هو العمل الذي يمارسه حاليًّا، وإن كان قد هجر الكتابة الإبداعية؟ وهنا أفصح عن بعض ما كان يشغلني في تلك الفترة الانتقالية في المجتمع المصري؛ ألا وهو تحول المال في أيدي الناس من وسيلة إلى غاية، ولم يُحاول اللفَّ والدوران، بل قال بأسلوب وبنغمات تنم عن الاقتناع التام: «المال هو القانون الأعظم للحياة! فالمال هو القوة، وهو الطاقة وهو القدرة! يكفي أن تكون ذا مال حتى تكسب احترام الناس، وأرجو ألا تفهم من ذلك أنهم يتوقَّعُون أن تعطيهم شيئًا من مالك، بل ولا يلزم أن تنفق شيئًا منه حتى تنال ذلك الاحترام! انظر إلى محمد الفايد في لندن! وانظر إلى منافسه اليهودي صاحب جريدة «الأوبزيرفر»! إنهما من الأباطرة! فهما يتراشقان بالتهم علنًا وعداؤهما لبعضهما البعض صريح ومُعلَن، ولكن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تمسَّ أيًّا منهما أو تنحاز إلى صف واحد ضد الآخر؛ ففي أيديهما خيوط يشدَّانها فيُحرِّكان مجريات الأمور! وانظر إلى اليهود في أمريكا! وذاك حديث معاد مكرر! إن مال

اليهود يتحكم في سياسة أكبر دولة في الأرض، وإحدى الدولتين الأعظم، (ولم يكن الاتحاد السوفييتي قد انهار بعد) وهو الذي يُشكِّل اتجاهات الفن والأدب في أجهزة الإعلام! المال هو القوة والقدرة والطاقة!»

وقلت له: إنَّ هناك فرقًا بين القوة وبين الطاقة أو القدرة فضحك وقال إن تلك فلسفة فارغة، وإنه يتكلم بعد أن عرك الحياة وخبرها، ولذلك فهو يتكلَّم من موقع العارف الخبير، وجعل يقص عليَّ قصصًا تبرهن على صدق ما يقول، وأظنُّ أن بعضها ملفَّق أو مبالغ فيه، ثم انتهى إلى القول بأن غاية الإنسان هي السعادة، والسعادة طريقها القوة، وهو يعرف الآن القوة بعد أن أصبحت له حسابات في بنوك أوروبا وأمريكا، وبعد أن ثأر لنفسِه من حياة الفقر الكئيبة التي عرفها في مصر، وأنه قد هجر الكتابة لأنَّ «الكتابة مهنة العاجز»، فالكاتب يتصوَّر — في نظره — أنه يُخاطب الناس ويؤثر فيهم، ولكن الغالبية لا تقرأ، ومن يقرأ لا يستوعب، ومن يستوعب لا يصدق، ولذلك فلا أجمل من «البيزنس» (وربما كان يقصد التجارة) فهو الآن شريك في بعض شركات الأفلام الأمريكية التي تدرُّ ربحًا مضمونًا، وهو ذو «مكتب» يقصده علية القوم، وهو يتنقل بين البلدان كما يحلو له، ويقابله كبار المسئولين باحترام، واختتم حديثه بتكرار عرض مشروع الترجمة، قائلًا إنه يَعدُني بأن أصبح رئيس المشروع، بشرط الاستقالة من الجامعة والتفرُّغ له، فأنا في رأيه ذو معرفة بما يجب أن يترجَم وكيف يترجَم ومَن يترجِم، وهذه — في نظره — خبرة لها وزنها في دنيا «الأعمال»، ولم أعده أنا بشيء، فأنا حريص على عملي الجامعي الذي يُتيح لي الوقت اللازم لهوايتي في الكتابة والترجمة، لكنَّني — وكنا قد تجاوزنا الحادية عشرة مساءً، وبدأ رواد الكافيتريا يَنصرِفُون — قلت له إنني واثق أنه يَشتاق إلى الكتابة الإبداعية، وأنه ما زال يحنُّ إلى كتابة المسلسلات الإذاعية التي يحقِّق فيها «رؤاه» عن الإنسان والمجتمع، فقال إن ذلك صحيح، غير أنه لا يجد الوقت اللازم لذلك، ومال عليَّ كأنما يَهمس لي بسر خطير قائلًا: لقد كانت الكتابة وسيلة، ولقد أوصلتني الوسيلة إلى غايتي، وأستطيع أن أكتب متى شئت، فأنا لم أفقد القدرة على الكتابة، ولكنَّني اكتشفت في نفسي طاقة أثمن وأجدى وهي «القدرة» على التعامل مع الناس؛ فالناس في أعماقهم بشر بسطاء، ولكلٍّ منهم مدخله؛ أي مفتاحه، فإذا عثرت على المفتاح انفتح الباب على مصراعَيه!

قلت له: إنه كان يعجب بما أكتبه من شعر، على تواضع مستواه، ويُشجِّعني باعتباره من الراسخين على الاستمرار (وكان يكبرني بنحو خمسة عشر عامًا) فقال إنه لا يعارض

كتابتي للشعر؛ فهو في نظره تسرية ذات طرافة وجاذبية، لكنه ليس من مصادر كسب الرزق، فقرأت عليه ترجمة منظومة لقطعة من «شلي» فأبدى إعجابه بالترجمة ثم قال: «من تراه يقرأ ذلك؟ إنك تدور في دوائر لا يتجاوز عدد أفرادها العشرات أو المئات! وحتى لو أصبت النجاح كله فلن تصل إلا إلى الآلاف ... أما أنا فأتكلَّم لغة الملايين، لغة الناس كلهم، وكلهم كلمات في معجمي الشِّعري!» وقال ما معناه إنه يتحدَّاني أن أجد خارج نطاق دائرتي الضيقة من يشاركني اهتماماتي، وأضاف أن المشروع الذي يتحدث عنه سوف ينشر اسمي إلى جانب اسمه في كل البلاد العربية، وبعدها البلاد الإسلامية، مؤكدًا أنني إذا كنت أريد الشهرة والمال (fame and fortune) فها هما «على طبق من فضة» — وأصررتُ على عدم التعبير عن أي التزام بالموافقة، بل وعدته بالتفكير جديًّا في الموضوع، فقال لي وهو يودعني «هذا وعد!»

وانقطعت أخباره عني سنوات طويلة، حتى لمحته ذات يوم في كافيتريا «الميريديان» وأنا جالس مع محسن حلمي المخرج، الذي كان يشرح لي كيف أعيد كتابة نص **جاسوس في قصر السلطان** كأنما يُلقنني درسًا في الكتابة المسرحية، وكنا في مطلع عام ١٩٩١م، وكنتُ أظن أنني، بعد أن كتبت كل هذه المسرحيات وتجاوزت الخمسين، لم أعد في حاجة إلى دروس من محسن حلمي، فانتهزت فرصة طلب القهوة لتحية صديقي القديم (وكنتُ أراه في مرتبة الأستاذ) فإذا به يُقبل علينا، وما لبث أن خفَّف من وطأة «الدرس» بفكاهاته ودعاباته، وعندما انصرف محسن، قال لي: إنه كان يبحث عني لأنه يُفكر في الكتابة من جديد، لا للإذاعة بل للمسرح، ويُريدني أن أشاركه مشروعًا «يهزُّ الدنيا!» وتكرَّرت لقاءاتنا فقد كان يقول إنه سوف يُموِّل المشروع؛ أي إنه سيكون المنتِج لا المؤلف فقط، وكان في ذلك إنقاذ لي من عقبات مسرح الدولة ونُظُم إنتاجه العقيمة، وفي اللقاء الرابع أو الخامس (لا أذكر) وبعد أن كنا اتفقنا على موضوع المسرحية الغنائية وشخصياتها، قال لي ببساطة «هيه! متى تعتقد أنك ستنتهي من كتابة السكريبت [أي النص]؟» ووجمت لحظة وتلعثمت. لم أدرِ ماذا أقول. وأذكر أنني تمتمت أو تلفظت بألفاظ تشي بالحيرة قبل أن أسأله «وحضرتك؟» فابتسم ابتسامة عريضة وقال: «سأُراجع السكريبت طبعًا!» وحينما رأى أنني سأعود للسؤال؛ بادرني بقوله ضاحكًا: «أنا لا أكتب الآن! لقد فقدتُ التركيز بسبب مشاغلي، والبركة فيكم أنتم!» وتأثرت بصراحته بل فوجئت لأن اعتراف كاتب بأيِّ شيء من هذا القبيل لا يأتي إلا بعد مُكابدة طويلة، وقد يفقد الكاتب «التركيز» ثم لا يَعترف بذلك أبدًا، ولديَّ نماذج كثيرة للمُبدعين الذين تحولوا إلى الكتابة الصحفية

تعويضًا عن الإبداع، وحاولتُ استدراجه ليُفصح عن المزيد لكنه — فيما بدا لي — كان يتألم لمواجهة هذه القضية — وأحسست بألمه فلم أزد، وافترقنا على وعد اللقاء.

وكنت كثيرًا ما أتأمَّل ما حكى لي وما وراء قصصه، دون أن أفقد إيماني بموهبتِه الإبداعية، وانتهيت من تأملاتي إلى أن ما فقده هو «القدرة» على الكتابة، وأما ما يُسمِّيه «التركيز» فأسمِّيه أنا «الطاقة» فالكتابة جهد عصبي وفكري لا جهد أو نشاط لغوي، بمعنى الاستغراق في العمل الأدبي وفي إحكام صوغه — مادةً ومعنًى وبناءً — لأنَّ هناك عنصر آخر لا نملك أن نتجاهَله وهو الخروج من النفس إلى الآخرين، وأما ما يَحول دون ذلك فإنه حب الإنسان لذاته حبًّا يصل إلى حدِّ الإيمان المطلق بها، وهو الإيمان الذي يجعله يقيس كل شيء بمقياس ذاته، ليس بالضرورة ما إذا كان سيكون مفيدًا أو نافعًا له على أيِّ مستوى من المستويات، ولكن بنسبتِه إلى تلك الذات أولًا وأخيرًا، فاكتساب القوة يَقتضي نسبة كل شيء (بما في ذلك البشر) إلى الذات، بل وإنكار الوجود المستقل لغير الذات، ولو لم يكن الساعي إلى القوة يدرك ذلك الإدراك كله، وقد أنعمت النظر في قصة هذا الصديق أو الأستاذ الذي بدأ كاتبًا ثم شغله تحقيق القوة حتى فقد القدرة على التركيز — كما يقول — أو القدرة على الخروج من ذاته إلى أشخاص أو أشياء يتعاطف معها ويعتبرها جديرة بأن يبذل في سبيلها الوقت ويُضحِّي بالمال، وربما بالشُّهرة، فنحن الكُتَّاب نستمد مادتنا دائمًا من غيرنا، من الأشياء والناس، ولا وجود لنا دونهم ولله در نهاد زوجتي التي نبَّهتني ذات يوم إلى أنَّ الأمَّ (أو دور الأم الطبيعي) معناه الخروج من الذات إلى من خرج من الذات؛ فالأم تبذُل مُخلصة في سبيل من انفصل عنها وأصبح شخصًا مُستقلًّا عنها، وهي لا تتوقَّع شيئًا في مقابل ما تبذل، ولا يشدها إلى الطفل إلا ما يسميه وردزورث «رابطة الحب الأولى» (The primal sympathy) أو «الروابط البكر» (first-born affinities) التي «توائم بين وجودنا والموجودات الأخرى»، [في الكتاب الأول من قصيدة المقدمة] وفي هذا الخروج من الذات «طاقة الإبداع»، وهو «القوة الحقيقية» (strength) (بعكس الضعف في القدرة أو القوة) التي تَضمن للطاقة الاستمرار والنمو بل والازدهار، وبعضنا لا يستطيع في سعي الحياة اليومية الدائب أن يخرج من ذاته أبدًا، **فتضعف طاقاته**، وعندما يظنُّ أنه قد تمتَّع بالقوة بمعنى السطوة أو النفوذ (power) يكون قد فقد القوة الحقيقية، فيَستعيض عنها بظواهر القوة في المجتمع مثل السلطة أو المال، وعندما أحسَّ وردزورث بأنه فقد القدرة على إدراك النور الذي يكاد يكسو الوجود في طفولته، خشيَ أن يكون قد فقد طاقة الخروج من ذاته إلى الوجود من حوله، فأصابه

ما يُشبه الذعر، فأُهرع إلى الماضي يبحث عن الغير أو عن الآخرين، فوجد الكثيرين وامتلأ شعره في الفترة من ١٨٠٢م حتى ١٨٠٤م (في قصيدة **المقدمة** التي أشرتُ إليها وفي غيرها) بشخصيات كثيرة، كان يتقمَّصها هربًا من ذلك الخوف الذي اعتراه، وعندما كتب معظم **المقدمة**، وهي سيرة ذاتية صريحة، وجد أنه ما زال قادرًا على الخروج من نفسه إلى الناس وإلى الطبيعة، واطمأنَّ قلبه بعض الشيء فعاد — كما قلت — إلى الفقرات الأربعة الأولى التي انتهت بالتساؤل عن اختفاء «شعاع الرؤى الغامر، والمجد والحلم الباهر»، ولم يكن يزيد عدد أبياتها مجتمعةً عن ٥٧ بيتًا، فأكملها حتى وصل عدد أبيات القصيدة إلى أربعة ومائتين! ولقد ساعدته السيرة الذاتية في اكتشاف الآخرين لا من خلال ذاته فقط بل في مقابل ذاته أيضًا، وهذه من المفارقات التي تواجهنا في السير الذاتية الأدبية! فنحن نَحكي حكايات الآخرين من خلال ذواتنا مثلما نكتشفها، ونكتشف ذواتنا أيضًا، من خلال «غيرية الغير».

وكان مما اكتشفه وردزورث وجود الطفل الذي كانه، والذي كان يعرف أنه مضى إلى الأبد، فكان الطفل بمثابة الغير الذي يُشكِّل وعيًا آخر، وهو يقول ذلك صراحةً في القصيدة الأولى [المقدمة الصغيرة] التي حقَّقتُها ونشرتها (٩٠٠ بيت) كما سبق أن ذكرت؛ إذ يقول فيها ما معناه: إنَّ المسافة التي تفصل بينه وبين أيام طفولته شاسعة إلى الحد الذي يجعله يعي بوجود شخصين — هما ذاته وشخص آخر (conscious myself and some **other** being) وهكذا فإنه بعد أن يَنعي فقدان ذلك الآخر، يستعيض بآخرين في مشهد يصوره في الفقرة العاشرة من القصيدة التي اقتبست منها الفقرة التاسعة في أول الفصل (خاطرات الخلود).

ولم تُتح لي الفرصة لمقابلة صاحبي إلا بعد عشر سنوات، وكان يعاني من مرضٍ عُضال، وكنت قد عدت لتوي من فرنسا بعد فترة العلاج التي طالت فأمعنت في الطول، وكان لقاؤنا قصيرًا وأكاد أقول عصيبًا؛ إذ لم أتعرف عليه أول الأمر، فلقد كان هزيلًا شاحبَ الوجه غائر العينين، وكان يلبس «كاسكتة» تغطي صلعته، ولم أتبين من صوته ومن تحيته ما يدلُّ على ما كنت أحبه فيه من مرح و«طاقة» فنية إبداعية، بل رأيت وأحسستُ استسلامًا (كنت أرفضه) للدنيا، وكنت أوشك أن أستقل سيارتي أمام هيئة الكتاب حين ناداني، ومكثنا عشر دقائق تقريبًا نتحادث فعلمت منه أنه تعرَّض لنكسة أو لنكسات في أعماله التجارية، وأنَّ المرض استنفد مدَّخراته، وكان يتكلَّم بمرارة عن الحياة والناس، وكيف «خانه» الجميع، ورددتُ عليه بأن لدينا في أنفسنا طاقة الصمود،

وأننا نستمد من أعماقنا القوة، أو قُل إنني لخَّصتُ له ما سبق أن عرضته من آراء في هذا الفصل، ولكنه ظل على موقفه وافترقنا، وبلغني أنه توفي في العام التالي، وقال لي من أبلغني بوفاته إنه مات كسير القلب، بل إنه لم يتوقف عن التعبير عن المرارة حتى آخر لحظة. وتألَّمتُ أشد الألم لهذه النهاية، على ما ألهمتنيه الحكاية من أفكار لا تخصُّه وحده، بل تخصنا جميعًا. كنت أقول في نفسي دائمًا ليته قرأ الفقرة العاشرة من القصيدة المشار إليها، ولسوف أوردها الآن ختامًا لهذا القسم، مثلما بدأته بالفقرة التاسعة (من البحر نفسه):

غَنِّ يا أطيار إذنْ! غَنِّ أغنية الفرْحْ،
ولتتواثبْ هذي الحُمْلان وتمرحْ،
مع دقات الدُّفِّ!
فلسوف نُشارككم فكرًا في هذا الحفْل،
يا مَن تعزف في الناي ويا مَن تلهو،
يا مَن يشعر في أعماق القلب اليوْم،
بسرور ربيع يزهو،
ما ضرُّ إذا كانت عيني،
قد حُرِمَتْ للأبد النورَ الساطع،
ما ضرُّ إذا كان محالًا أن ترجع،
ساعةُ سحرٍ بهاء الكلأ ومجد الزهر،
لن نحزن أو نبكي ما ضاع،
بل إنَّا نجد القوة في ما زال لدينا،
في رابطة الحب الأولى في أنفسنا،
إذ ما إن تولد،
حتَّى تخلد،
في أفكار عزاء أو سلوانٍ،
تنبع من كد معاناة الإنسانِ،
وفيما يتجاوز حد الموت من الإيمانِ،
وفي أعوام تأتي بالحكمة للأذهانِ!

والغريب أننا ما زلنا — نحن النقاد — أسرى الصورة التي رسمها ماثيو أرنولد (في القرن التاسع عشر) لوردزورث من أنه كان لا يكتب إلا عن الطبيعة، وأنه كان لا يتحدَّث إلا عن ذاته، وربما أكدت مجموعة «الكنز الذهبي» التي أعدها بولجريف (Palgrave) هذه الصورة، فثار المحدثون على شعره، وانتقدوه للذاتية أو لما هو أسوأ، وهو ما ترجمه عزمي إسلام باسم «الأناوحدية» solipsism، ولكنَّنا — حتى في هذه القصيدة التي يسترجع فيها ذكريات طفولته الخاصة — نَلمح ما يختلف عن ذلك، ويكفي أن ترصد ضمير الجمع الذي يشير إلى الإنسان هنا أو إلى البشرية، وخلاصة ما أرمي إليه أن وردزورث يقول إنه إذا كانت طاقة إدراك النور هي مصدر القوة الحقيقية، وإنها إذا كانت قد فقدت بسبب انهماك الإنسان في مشاغل الحياة، فللإنسان أن يستعيض عنها بما يجمله الشاعر في الأبيات الستة الأخيرة من هذه الفقرة.

٢

للإنسان أن يَستعيض عن فقدان بهاء رؤى الطفولة بعدة أشياء يستمد منها القوة، حسبما يقول وردزورث الذي يُجمِلها كما قلت في هذه الأبيات:

في رابطة الحب الأولى في أنفسنا،
إذ ما إن تولد،
حتى تخلد!
في أفكار عزاء أو سلوانٍ،
تَنبع من كد معاناة الإنسانِ،
وفيما يتجاوز حد الموت من الإيمانِ،
وفي أعوام تأتي بالحكمة للأذهانِ!

وأنا أورد هذه الأبيات مرةً ثانية — عمدًا — حتى ألفت الأنظار إلى مقصد الشاعر من جَمْعِ العناصر التي تُشكِّل في نظره «التركيبة» التي تُنقِذ الإنسان من وهدة فقدان «القدرة» (ومعها القوة الحقيقية) وسوف أتوقَّف عند معنى الحكمة التي اخترتها ترجمةً لتعبير the philosophic mind فهذا هو المعنى الأول، وفي ثناياه يأتي الصبر والمثابرة، وليس المقصود قطعًا أي فكر فلسفي، وأذكر أنني عندما ترجمتُ هذه القصيدة أول مرة ترجمةً منثورة أخطأتُ ذلك الخطأ وصحَّحه لي الدكتور مجدي وهبة — رحمه الله —

وطيلة سنوات دراستي في إنجلترا كنت أجد من الشواهد ما يؤكد صحة ما قال به؛ فالحكمة كلمة ذات دلالة عامة تضمُّ ما سبق أن أورده الشاعر، فهي تضم روابط الحب الأولى، والعزاء والسلوان، والإيمان — ومن هذه «التركيبة» تأتي بعض المعاني الثانوية الشائعة للكلمة في اللغة الإنجليزية (مثل الصبر والمثابرة والجلد والتحمُّل) والغريب أن أجد في الكلمة العربية «الاتساع» نفسه (والطريف أن المعنى الاشتقاقي لكلمة فلسفة الأوروبية يتضمَّن «الحكمة»!) ولذلك أحببت أن أتَّخذها نقطة انطلاق — كما يقولون — لتفسير إهمال ذوي القدرة لقُدرتهم، وفقدانهم لقوتهم في سعيهم لاكتساب القوة المادية.

لقد عجز صاحبنا عن التحلِّي بأيِّ صفة من الصفات التي سبق أن أوردتها، ولم يتعلَّم في غمار تجاربه والخبرات التي كان يفخر باكتسابها أن يجنح ولو أحيانًا إلى الحكمة، ولو فعل ما انتهى تلك النهاية الأليمة، وأنا لا أقصد المرض أو الموت (فهما يُصيبان الجميع كبارًا وصغارًا)، بل أقصد العزلة التي شعر بها بعد أن تمزقت روابط الحب الأولى — وأظنُّ أنها لم تُوجد أصلًا في حالته — وبعد أن عجز عن نشدان السلوان في أي شيء، وبعد أن عجز أيضًا — وذلك هو العنصر الأساسي — عن التحلِّي بالإيمان. وإذا كنت قد سلطت الأضواء عليه — كما يقولون — فذلك لأنه — رحمه الله — لم يترك ما يجعل له مكانًا في متن كتاب الأدب العربي، بل هجر الكتابة فور عثوره على منصب مُناسب، وكان «يغازل» الكتابة أحيانًا فتشيح عنه بوجهها وتأبى وتستعصم، ولأنه — رحمه الله — قد أصبح هامشًا من هوامش ذلك الكتاب، قد يحذفه المحرِّر إن شاء وقد يبقي عليه، ولأنه نموذج للكثيرين ممن لا يزالون بقيد الحياة بيننا، يعيشون لحظات القوة في لذة تُشبه لذة السُّكر الذي يُغري بالمزيد! وأظنُّني لست بحاجة إلى أن أشير إلى نماذج محدَّدة من هؤلاء، بل سأنتقل إلى آخر حكاية من حكايات هذه الواحات، وهي حكاية أرجو ألا تطول.

ولسوف أوجز القصة على لسان صاحبها، فهي حية في ذهني ونفسي ووقائعها مسجَّلة في مفكرتي، وكلماته أبلغ في التأثير من تحليلاتي وتعليقاتي، والرجل حيٌّ يُرزَقُ، ولا بد إذن من إخفاء أسماء «أبطال» القصة، بعد تقديمهم إلى القارئ باختصار. أما الرجل فهو يشغل منصبًا مرموقًا، بعد أن ترقى في سلم الوظائف الحكومية فوصل إلى غايته، وكان قد تجاوز منتصَف الخمسينيات حين بدأت «الأحداث»، وكانت هي قد تخرجت قبل سنوات معدودة، وعُيِّنَتْ في مكتب مجاور لمكتبه، فكان يراها من حين لآخر، وإن لم تكن هناك دواعٍ عملية للحديث خارج العمل. وكانت — كما وصفها لي — فتاة

عادية لا يميزها عن سواها سوى الجد والاجتهاد، فلم تكن ذات جمال أخَّاذ يشد العيون أو «يُدير رءوس الرجال» — كما يقولون — ولم يكن الزائر إلى مكتبه أو مكتبها يمكن أن يتوقع حدوث أي شيء غير عادي. وكنت على وشك مشاهدتها حين اقترح إرسالها إليَّ في «مهمة رسمية»، ولكن المهمة سرعان ما أُنجزَتْ فلم يرسلها، وبعدها جاءتني مكالمة تليفونية منه يطلب فيها أن يمرَّ عليَّ في الجامعة أو في هيئة الكتاب، فصداقتنا ترجع إلى أيام دراستنا في إنجلترا، وإن اختلفَ تخصُّصه عن تخصصي، وضربت له موعدًا لم يخلفه، وتوالت المواعيد والمحادثات التليفونية حتى اليوم.

كنا في نحو منتصَف التسعينيات حين بدأ صاحبي حكايته بطلب رأيته عجيبًا وهو «أن أكتب قصته له» حتى يفهمها! ولم أدرك مرماه أول الأمر، فهو ذو فصاحة يحسده عليها الأدباء، وهو يستطيع التعبير بقدرة الموهوبين من الكُتَّاب، وهو قارئ نهم بل لا يشبع له نهم، وإن لم يكن يمارس الكتابة بل يستمع فحسب إلى «الصوت الداخلي» الذي يُتيح له أحيانًا أن يَبتعِد عن مجرى حياته العملية فيرى نفسه من مسافة ما، فكأنما هو شخصية في رواية تقع أحداثها على مرأى ومسمع منه. ومن ثَمَّ قلت له إنني لن أستطيع التعبير خيرًا منه، وإن سرَّني قوله إنه يريد أن يقرأ «نَصَّ» قصته حتى يَفهمها، وكان يمكن أن يقول إنه يتمنَّى أن يكتبها حتى يفهمها، فكل كتابة «جهد استكشافي» أو ما يُسمَّى اصطلاحًا heuristic فالكاتب يتصوَّر أن المادة جاهزة للتسجيل وأنه قادر على استنباط المعنى منها على الورق، لكنه ما إن يبدأ الكتابة حتى تتغير في عينه صورة المادة وتتغيَّر معانيها؛ لأن اكتساب المادة ثوبًا لغويًّا يفرض على كل ما فيها الكثير من الموروث اللغوي والأدبي، ويحولها من مادة إنسانية لا شكل لها — أو ذات شكل غير محدد — إلى «مادة أدبية لغوية» ذات شكلٍ له من الدلالات ما لم يكن صاحبها يتوقَّعه، وإذا بالكثير من التحوُّل والتبدُّل، وإذا بالمعنى يختلف! ولكن الكاتب قد يكتشف في غمار الكتابة نفسها معاني جديدة، وقد يصل إلى «نتائج» لم يكن يتصوَّرها في البداية! ولهذا فرحت وطلبت منه أن يحكي القصة من أولها، لكنه قال إنه لا يعرف لها بداية، وأقسم إنه لا يعرف كيف بدأت، لكنه يذكر بعض اللحظات — وها هي بالألفاظ التي استخدمها تقريبًا:

«كان لدينا مؤتمر دولي، وكان التحضير له يقتضي العمل طول اليوم بل في المساء وحتى ساعة متأخِّرة من الليل، وكان الجميع يشعرون بحجم المسئولية ولا يدخرون وُسْعًا في معاونتي لا من باب «تنفيذ الأوامر» بل من باب الحرص على النجاح؛ إذ كان

النجاح يمثل لكل منهم «أكاليل غار»؛ فنحن قسم صغير، ولم يكن الوزير يتصور أننا نستطيع أن ننهض بعبء المؤتمر كله وحدنا، ولكنَّنا اجتهدنا، وعملنا كأننا في منافسة أو في سباق مع أنفسنا، ونجح المؤتمر، وجاءتنا خطابات الشكر والمكافآت، ولكنَّني خرجت من المؤتمر مُنهكًا لا أكاد أقوى على مواصلة العمل وأشعر بضعف لا أدري كنهَه. وقررت أن أستريح يومًا أو يومين، فمكثت في المنزل يومًا كاملًا أحسست فيه بملل قاتل، وعندما حل المساء خرجت بالسيارة للنزهة وحدي، وكان الزحام شديدًا ولكن برد المساء خفف عني عذاب المرور، فانطلقت إلى مقهى في الهرم أرتاده حين يَعتريني الضيق، وكان معي كتاب أحاول الانتهاء منه، لكنني قبل أن أفتحه وجدت تلك الفتاة تجلس وحدها وفي يدها كتاب، فحدست أنها تنتظر صديقًا، وشعرت بالحرج فقمت وجلست في ركن بعيد حتى لا تلمحني.

ولكن الوقت مرَّ، ولم يأتِ أحد ليشاركها مجلسها، فجعلت أخالسها النظر فأحسست كأنما كنت أراها للمرة الأولى. لا أعرف ما حدث ولا أعتقد أنني سأعرفه يومًا ما، لكنني أصدقك القول إنني شعرت كأنما كنا في إنجلترا — ولعلك تذكر تلك الأيام — وأنني كنت أشاهد فتاةً أجنبيةً متحرِّرة مستقلة، قادرة على الخروج وحدها لقراءة كتاب في مكان خلوي! وما إن داهمني هذا الإحساس حتى وجدت عيني وقد ثبتت عليها، لا تفارقها ولا تحول عنها، وخفت أن أسبب حرجًا لها لو شاهدتني فلبست نظارة شمس أتخفى بها، فإذا بها تزيد من جمالها، كانت رشيقة ينسدل شعرها الطويل على ظهرها كالشلال المتدفِّق، ولا تكاد ترفع عينها عن الكتاب، وكنت أتصور أن تنظر إلى ساعة يدها من فترة إلى فترة إن كانت تنتظر صديقًا، لكنها لم تفعل، بل لم تكن تغير من جلستها إلا على فترات طويلة! لم أدرِ ما أصابني آنذاك! لا أذكر طبيعة الإحساس ولا أستطيع أن أصفه لكنني أذكر وحسب أنني ابتعدت عن مصر آلاف الأميال، وعن اللحظة الحاضرة عشرات السنين، فكأنما لم أكن الرجل الذي أعرفه، وتدافعت في مخيلتي صور إنجلترا ومن قبلها صور مصر — القاهرة — في الخمسينيات، وتراءت في مرآة الذهن صور الشباب، صور التحرر والانطلاق والأحلام، وتذكرت رحلة قمنا بها ونحن طلَّاب في الجامعة إلى القناطر الخيرية حيث لهونا ولعبنا وغنينا أغاني عبد الحليم حافظ، وماج عقلي بالصور المتداخلة فكدت أذهل عن المقهى، وعيني مُثبتة عليها لا تكاد تفارقها! هل اشتقت إلى الشباب آنذاك؟ هل تحوَّلت الفتاة إلى صورة مضت من حياتنا إلى الأبد وأحزنني فقدها؟ أقول لك لا أعرف، لكنني متأكد أنني كنت ذاهلًا عن مكاني في المقهى، وربما عن ساعات

المساء التي فرت سراعًا، حتى أيقظني صوت النادل يسألني إن كنتُ أريد شيئًا آخر قبل انصرافه. ولم أكن أريد شيئًا، فدفعت له «الحساب» ونهضت متثاقلًا وقلت في نفسي ليتني كنت شاعرًا لأصوِّر ما اعتراني!

ويبدو أن حالة الذهول كانت لا تزال تلازمني وأنا في طريق الخروج، فلم ألحظ أن الفتاة قد سبقتني، ولكنني فوجئت بها وأنا في طريقي للسيارة فوقفت جامدًا كأنما كنت أخشى أن تكتشف ما بي، ووقفتُ، وفي لحظة تغلبتُ على الإحساس الذي داهمني أول الأمر بأنني «ذكرى رجل» (ولا أقول ذكريات رجل) وتظاهرتُ بأنني لم أشعر بشيء، وأصبحت فجأةً ألعب دور «كبير الموظفين» — ويا له من دور سخيف — فألقيت عليها تحية المساء، وردت ردًّا مهذبًا، ولم أستطع أن أتبادل معها العبارات الاجتماعية المألوفة أو أطرح عليها أي أسئلة، لا لأن ذلك «لا يجوز» ولكن لعجزي وحسب عن الكلام. وأخيرًا سألتها إن كانت تحتاج إلى «توصيلة» بالسيارة لأن الوقت قد تأخر، فقالت إنها سوف تعود إلى منزلها بالتاكسي، لكنني أشفقتُ عليها من ذلك وأصررت على توصيلها، فركبت إلى جواري، ولم نتبادل كلمات كثيرة، بل تركت أنغام البرنامج الموسيقي تملأ السيارة، وأدرت جهاز التكييف بعد إغلاق النوافذ، وعندما اقتربنا من القاهرة طلبت مني أن أتوقف حيث تُفضِّل استكمال الرحلة بالتاكسي. وأوصلتها إلى أقرب نقطة إلى التاكسي وخَرَجَتْ.

تظاهرت في الأيام التالية بأنه لم يحدث شيء، ولكن شيئًا ما قد حدث بالتأكيد، ولم أكن أجرؤ على الإفصاح به فنحن في مصر، والواقع بأثقاله يَجثم على صدورنا، فكنتُ أستعيد ذكرى اللحظات التي بدت خارج الزمن، وأتمنَّى أن أستعيدها أو أعيدها، فأكثر من التردُّد على ذلك المقهى، وأفحص الرواد عسى أن أجدها، عبثًا، وأخيرًا لاحت فرصة نقلها إلى مكتبي، فاجتهدت حتى تحقَّق ذلك، على الورق على الأقل؛ إذ إنها ما إن تسلَّمت الخطاب حتى جاءتني وقالت إنها تُفضِّل أن تظل في مكانها! وأسرعت بالموافقة، وقد تنازعني الخوف والرغبة، وسألتها عن السبب فقالت إنها تدرس للحصول على الماجستير، وعملها في مكتبها يتيح لها التركيز، فقلت من الكلام ما يتطلَّبه الموقف وما تقتضيه الوظيفة وانتهت المقابلة، لم أكن أدري أن الأيام تُخفي مفاجأة لي، لكنَّني كنت أتطلَّع إلى مشاهدتها، مجرَّد النظر إليها، وأستعيد في خيالي لحظات المقهى وذكريات إنجلترا وقاهرة الخمسينيات، فغدوت أحسُّ أن أثقال الواقع «الحاضر» قد خَفَّتْ، وأن في الماضي صورًا لو نجحنا في التصالح معها لتوافر لنا قدر أكبر من السعادة، وكنت أختلق الأسباب للحديث مع صاحبة تلك اللحظات الساحرة، كأن أُكلِّفها بعمل أو أسألها عرضًا عن دراستها، حتى جاء يوم كنا فيه وحدنا في المكتب فإذا بها تقول لي: لماذا لم تعدْ تذهب إلى المقهى؟»

وقص عليَّ صاحبي تفاصيل المكاشفة بينه وبين حبيبته، وكيف «فتح» كل منهما قلبه لصاحبه، وكيف اندفعا في علاقتهما غير عابئين بأثقال المجتمع — ما يُسمِّيها — وكيف مرَّ من جديد (في المراهقة الثانية؟) بكل عذابات الحب من لهفة وتوقع ولقاء وافتراق وود وبعاد! فكأنما عاد شابًّا وجد ذاته في هذه العاطفة الجياشة، وكانت صاحبتُه تشاركه مشاعره في كل لحظة بإخلاص وصدق مُذهل! لم يكن يعرف أيٌّ منهما أي مصير لتلك العلاقة، وكان يُوافيني من حين لآخر بتفاصيلها، فهي ملتهبة دائمًا متأجِّجة لا ينطفئ لها أوار!

وبعد عام أو بعض عام زارني وقال لي: «إنها المعنى الذي كنت أبحث عنه! إنسان مُستقل له أفكاره ومشاعره، إنسان لا ينظر إلى العلاقة الإنسانية من وجهة نظر المجتمع الذي لا يعرف إلا الزواج والإنجاب! هل أصدق أنها تُحبني رغم فارق السن الذي يفصل بيننا؟ هل أصدق نفسي في اندفاعي، وفي تحايلي على إخفاء كل شيء عن الجميع؟ إنني أرى فيها ذكريات الصبا فأعيشها من جديد كأنما لم يفعل الزمن بي ما فعل! وأكاد أذوب شوقًا إليها كلما غابت عني يومًا أو يومين! إنها علاقة بلا مُستقبل، ولكنها حقيقية، وليت شاعرًا أو كاتبًا يكتب عنها!»

كنتُ أعرف أن تلك «الخبرة» الحقيقية لا تتطلَّب شاعرًا بل روائيًّا، أو قصَّاصًا بارعًا مثل تشيخوف يستطيع أن يغوص إلى الأعماق، فيقول لنا كيف اجتمع الكهل والصبيَّة، وكيف وُلِدَ من جديد على يديها، وكنت أرسم لها في مخيلتي صورًا متعدِّدة؛ فلم أكن رأيتها ولكنها كانت تلتقي جميعًا عند بؤرة «الزمن الأول»، فصاحبي قد يعود معها إلى قاهرة الخمسينيات أو يعيد خلقها في ذهنه، وقد يعود معها إلى أيام دراسته في إنجلترا، وهو عهد الأحلام الكبرى؛ إذ كانت الدنيا تتغيَّر في مصر وهو لا يدري (أو يحس) بالتغيير، وكان على تفوقه في تخصصه يتمنى أن يمارس الكتابة ظنًّا منه أنها تعتمد على «القدرة» على التعبير فحسب، ولا شك أن قدرته كانت كبيرة، ولم يكن قد تبين مكابدتنا في طرح الأفكار ومعالجتها وبسطها على الورق، وكانت الشهور تمضي وهو يزداد «طاقة» على العمل ويَنشر البحوث في «الدوريات» الأجنبية، بل سافَرَ مرتَين في عام واحد إلى روما لحضور مؤتمرَين مختلفَين عقدتهما منظمة الأغذية والزراعة، وكانت صلتي قد انقطعت بتلك المنظَّمة بعد تدهور القسم العربي فيها (قسم الترجمة والتحرير) وانتقال نشاطه إلى مقر القاهرة، وأذكر أنه اتصل بي بعد عودته من أحدهما؛ ليقول لي إن عبد الرازق إبراهيم يبلغك سلامه، وكان آنذاك رئيسًا للقسم العربي المتضائل، ويصف لي محاسن

روما وجمالها الأخاذ وكيف ذكرته بقاهرة الخمسينيات، وأنهى المكالمة — إذا صدقت ذاكرتي — بأن قال إنه كان يرى حبيبته في كل زهرة إيطالية تسير على النهر أو في حدائق المدينة، بل وفي كل جمال رآه في الأرض أو في السماء، وكثيرًا ما كان صوته يأتيني كأنما من الماضي فأعجب وأدهش ولا أقدر على الرد!

ومرَّت ثلاثة أعوام تغيَّر فيها صاحبي فأصبح أكثر توافقًا مع نفسه ومع الناس، وكان كلما صارَحني بما يَحدث اعترضت لأنني لا أرى إلا فارق السن، وكنت أحاول تفسير تلك العلاقة بالمنطق العلمي وما أعرفه في علم النفس، فإذا ذكرتُ له أيًّا من ذلك استمع بصبر وقال إن العلم نفسه ينهار في لحظة اللقاء معها، لحظة الجمال المطلق، لحظة التقاء نفسين، فهي ليست مجرد امرأة جميلة أو عادية؛ إذ حَصَلَتْ على الماجستير وهي تدرس للدكتوراه وتُراسل جامعات أجنبية، وهي تتمتَّع بقدرٍ كبير من اللماحية والذكاء، لكنها لا تعبأ بما نُسميه المستقبل، بل هي تفعل ما تراه صوابًا، وكان يردُّ على اعتراضاتي بأنني على البر ولستُ في خضمِّ البحر، حتى جاء يوم هزَّه هزًّا وأصر على مقابلتي؛ إذ إن صاحبته خُطِبَتْ وبدأت تستعد للزفاف! ووصف لي ما انتابه عندما أبلغَتْهُ النبأ بثبات الإنجليز وواقعيتِهم؛ فأهلُها مُصرُّون، وقد فعلت كل ما تستطيع لتأجيل الموضوع، فتأجل عدة مرات، ولكنها لم تستطع الصمود في النهاية فوافقَتْ، ولم تشأ أن تخبره آنذاك لأنها كانت تأمُل في التأجيل «إلى أجل غير مسمًّى» كما يقولون، لكن «الأمور تطورت» بسرعة، ولم يعد هناك مفر من المصارحة، خصوصًا وأنه على مشارف التقاعد ولا بد من وقفة لمناقشة المستقبل.

قال صاحبي: «كانت تلك أول مرة أسمع فيها منها كلمة «المستقبَل»، فقلتُ لها فيما يشبه الهزل من الجد: إنني على استعدادٍ للزواج منها إن كان في ذلك حلٌّ للمشكلة، لكنها ردَّت بسرعة فنفتْ أن مثل هذا الحل «وارد»؛ فأهلها قد عقدوا القران، والعريس لا بأس به، ولم يعدْ هناك مجال للتراجع، وبعد صمت طويل غالبتُ فيها الدموع وَدَّعْتُهَا وأنا أحسُّ أنني أتمزَّق، وأحسُّ جادًّا بأن الحياة قد انتهت، لولا بقية من جَلَدٍ وإيمان.»

وانقطعت عني أخبار صاحبي نحو عامَين، حتى رأيته من جديد في ربيع عام ٢٠٠١م، وكنت أحضر مؤتمرًا عن المياه في شرق العالم العربي عقَدته الأمم المتَّحدة، ولم أكن أدري أنه ترك مصر ليعمل في هيئة من هيئات تلك المنظمة الدولية، وكان كعهدي به بشوشًا عفَّ اللسان، ولم يكن يبدو عليه أنه قد تأثَّر بتلك «الحادثة الشخصية»، فلقد التقينا مصادفةً في الكافيتريا، وكان كل لقاء خارج مصر يجتذب المصريين فانضمَّ إلينا

أستاذ أو أستاذان، وناقشنا ترجمة مصطلحات المياه والري، ثم افترقنا بعد أن طلب مني أن أزوره في الفندق، ولما كان الجو معتدلًا خرجتُ عن عادتي في التزام غرفتي في المساء وسعيت إليه وتحادثنا طويلًا، وهاك مُلخصًا للحديث.

قال صاحبي: «تذكُر ما قلته عند وداع صاحبتي؟ لقد تدرَّعت ببقية جلَدٍ وإيمانٍ فإذا بتلك البقية تنمو وتُصبح نبعًا صافيًا من الجلَد والإيمان! لقد أيقظَتْ تلك التجربة في نفسي طاقة لم أكن أعهدها، وتحوَّلت إلى قوة جبارة أحيا بها ولها، فلقد تخطَّيت الستِّين، لكنني أجد الزاد الروحي أو النفسي في كل ما مضى وانقضى، وكلما خلوت إلى نفسي برزت صورة تلك الفتاة (الدكتورة الآن) فأحيَت ذكريات أبعد وأجمل، ولو مررت أنت بتجربة مماثلة لكتبت ديوانًا لا قصيدة واحدة؛ فأنا — كما يقول عبد الوهاب — أعيش و«صور الماضي ورائي وأمامي!» ولقد تعلمت من هذه الصور رهافة في السمع والبصر، وإيمانًا متزايدًا بجدوى العمل، ولقد وضعت لنفسي برنامجًا للحياة خارج مصر لا أحيد عنه، فأنا أقرأ وأدرس مثلما كنا نفعل في إنجلترا، وأخصِّص وقتًا كل يوم للسير — ولا أقول للنزهة — حيث أتأمل نفسي وأتأمل الحياة، وأتمنى أن أكون شاعرًا حتى أعبر عما أحسُّه، فأنا واثق أنه يصلح للشعر!»

وسألته ما إذا كان قد قطع «علاقته» نهائيًّا بحبيبته، فضحك وقال إنه لا يمكن أن «يقطع» أي شيء! فلقد أصبحت الحياة في نظره تتَّسم بالتحوُّل الدائب، تمامًا مثلما يحدث في الطبيعة، ولقد تحوَّلت العلاقة التي كان من المُفترَض أصلًا أن تكون أبوية إلى علاقة «أبوية» حقيقية، وكان ذلك هو «المؤلم» حقًّا في نظره فهو لم يكن قد «دخل» تلك العلاقة بوصفِه أبًا بل بوصفه حبيبًا، وكان التحوُّل معناه وقوع تناقض شديد بين ما يحسُّه في أعماقه وما يتبدَّى في مظاهر سلوكه، لكنه ابن مخلص للمجتمع المصري، ولا يقبل أن يواصل شيئًا «قطعه» المجتمع!

وأعجبني تلاعبه بكلمة «قطع» فسألته مباشرةً إن كان يراها ويُحادثها، فقال ببساطة إنه لا يزال يزور المكتب، وهي لا تزال تعمل فيه بعد أن ترقَّت وأصبحت في حكم نائب رئيس القسم، وقد بلغه من «الزملاء» أنها أنجبَت طفلًا جميلًا، وإن لم يَحُلْ ذلك دون مواصلتها الدرس والإنتاج، فهي ذات طابع عملي وتعيش في هذه الدنيا بكل ما فيها، وعدت أسأله إن كان لا يزال يحمل في نفسه «لواعج» الحب الأول، فقال ما أذهلني إذ ذكرني بقصيدة وردزورث التي ما فتئت أقتطف منها الفقرة تلو الفقرة.

قال صاحبي: «وقدة النار خَبَتْ! لكنها أصبحت صورة ثابتة متعددة الألوان والأشكال في ذهني! ولقد حاولت استعادة تلك الوقدة عدة مرات وفشلت! وكانت النتيجة محبطة

لي أول الأمر، ثم وطَّنت النفس على تقبُّل الواقع، لكنني كنت أستعيض عن الوقدة بتذكر ما فات ومر، وكنت في كل مرة أجده قد اكتسى طابعًا جديدًا، فأدركت أن الزمن هو الذي يتدخل ليحدث ذلك التحول، فأنا أسير نحو النهاية وهي تسير نحو البداية — كما كنت تقول لي دائمًا — وطبيعة الأشياء ترفض التقاء النهاية بالبداية! وأما الطابع الجديد الذي أراه يكسو ذكرياتي اليوم فهو طابع يمزج بين عقل المحب وقلب المفكر! لاحظ أنني نسبت العقل للمحب والقلب للمُفكِّر، على عكس المعتاد، فأنا الآن أجد متعةً في التأمل الذي يهب الحياة عمقًا لم أكن أحسُّه قبل حبِّي لها، وأجد في ذكريات مَشاعري أبعادًا لا سبيل إلى تكرارها! إنها حياة جديدة متجدِّدة، تتغيَّر مع الدنيا ومع كل شيء!»

وعندها قرأت عليه قصيدة وردزورث — كلها — فأنا أحفظها منذ بواكير الصبا، فاغرورقت عيناه بالدمع، خصوصًا عندما أتيت إلى الفقرة الختامية، وما لبث أن قال إن ذلك ما كان يعنيه بأن التجربة لا بد لها من شاعر، وبأنها تجربة شعرية خالصة، لكنني رأيت فيها تحقيقًا لقدرات باطنة وهبت صاحبها قوةً جديدةً فتحت أمامه طريق حياة مزهرة، فلقد استمد من طاقة الحب أو النزوع إلى الشباب أو تحقيق الذات مع «الآخر» — كما يقولون — قوة على العمل فالجلد فالصبر فالحكمة! وعندما عدت إلى غرفتي نمت وصحوت في الفجر فترجمت الفقرة الختامية. وها هي ذي:

يُواصل الشاعر خطابه إلى «الفرح» في الفقرة التاسعة بخطاب إلى «الأطيار» في الفقرة العاشرة، ثم يتحوَّل إلى عيون الماء والمروج والتلال والخمائل:

وأنتِ يا عيونُ يا مروجُ يا تلالُ يا خمائل!
لن تشهدي أي انفصام في عرى غرامنا!
فلم أزل في عمق أعماق الفؤاد،
أحسُّ قوَّتك!
وما افتقدتُ إلا متعة وحيدة هنا،
هي الحياة تحت ظل سطوتك!
بل إنَّ حبي للجداول التي تنحر في الشطآن،
يزيد عن حبي لها،
أيام كنت مثلها،
أجري بخفة المراح حولها!
ما زال صفو النور في السماء عند مولد النهار ذا سناء!

لكنَّما السحاب حول الشمس في الغروب يَكتسي،
لونًا رزينًا من عيون من رأوا مسيرة الإنسان للفناء!
قد انتهى السِّباق وانطوى مضمار،
وفيه أحرزنا أكاليل انتصار،
والفضل للقلب الذي نحيا به؛ قلب البشر،
رقَّتُهُ، أفراحُهُ، مخاوفُهْ!
بل إن أدنى زهرة قد تستوي في عودها،
توحي بأفكار بعيد غورها،
لا يستطيع الدمع أن يسبرها!

وقد حار النقاد في تفسير الأبيات الثلاثة الأخيرة، وهما بيتان في الأصل الإنجليزي، واختلفوا في تحديد المقصود بالأفكار (thoughts) وبعلاقة الدمع بأعماق تلك الأفكار، ولقد اجتهدت ما شاء الله لي أن أجتهد في التفسير فلم أصل إلى نتيجة حاسمة فأخرجت المعنى كما هو في ظاهر اللفظ، وإن كان غامضًا في الأصل فبه «فجوة» (gap) أو «حذف» في آخر السطر الأخير، اتفق الشراح على إيراد كلمة لملئها وهي بين قوسين هنا:

Thoughts that do often lie too deep for tears (**to fathom**)

وعلى هذا ترجمتُ البيت، وإن كنت قرأت لناقدٍ حديثٍ تفسيرًا يختلف فيه مع جمهور الشراح مقترحًا أن تكون الكلمة (to express) وفي هذه الحال يكون المعنى في البيت الأخير بالعربية: «لا يستطيع الدمع أن يعرب عنها»، وسواء صح هذا أو ذاك، فجوهر المعنى واحد وهو أن أدنى زهرة — بمعنى أقل الزهور جمالًا أو فتنةً — تستطيع الإيحاء بأفكار عميقة أو لا تسبر أغوارها، وجعلت في خيالي أستبدل الفتاة بالزهرة، وأستبدل مشاعر صاحبنا بمَشاعر وردزورث عن «الخلود»، ولكنَّني كنت دائمًا أعود إلى فكرة «القدرة» و«القوة»، فأتجاوَز التفسير الذي يحصر القصيدة فيما تقول — على أهميته ودلالته الكبرى — وألهو ببعض التأويل والتخريج الذي يَسمح «بالإبدال والإحلال» فأجد بغيتي وأجد ما يرضي خيالي!

لقد اختلطت عندي الخبرة الأدبية بخبرات الحياة، ولا مجال لإنكار هذا الاختلاط، كما أنني لا أستطيع إنكار تأثير شاعر مثل وردزورث في حياتي، وكيف أنكر تأثير من درست شعره سنوات عشر، وحفظت منه مئات الأبيات، حتى تغلغلت في فكره ومشاعره، بل لقد كنت أحس في خبرات الآخرين بهذه الأفكار والمشاعر، ويبدو أنني قد اخترت ما

أروي من حكايات هنا اهتداءً بذلك كله، ولا ضير في ذلك — في نظري — ما دامت هذه وتلك مما نَشترك فيه جميعًا، بل ومما يَربطنا بعضنا إلى البعض وإلى الحياة بظواهرها المنوعة من حولنا! وقد لا يكون في تأملاتي شيء جديد، فهي من حصاد قراءات وخبرات شائعة، ولكنني أزعم أن حكاياتي قد تدفع القارئ إلى التفكير، وقد يختلف معي وقد يتفق، وهذا في ذاته هدف يسعى إليه كل كاتب جاد، وأنا لا شك أقصد مثل كل كاتب إلى تحقيق هذا الهدف!

٣

سوف أقتصر في هذه الصفحات الأخيرة على ذكر حادثتين هزَّا كياني هزًّا في عام ٢٠٠٢م، وهما وفاة والدتي وحصولي على جائزة الدولة التقديرية في الآداب.

حين علمتْ والدتي — رحمها الله — بمرض خالي الدكتور مصطفى كمال بدر الدين وباستعصاء شفائه ثم بوفاته (وكان ذلك في مطلع العام الحالي — ٢٠٠٢م) أصابها الانطواء والانعزال عن أحوال العالم، كأنما كانت تشهد نهاية «دنيا كاملة»؛ إذ كان خالي رحمه الله رمزًا للصلة التي تربطها بدنيا الأحياء، عالمًا في الطب لا حدود لعلمه، متواضعًا لا حدود لتواضعه، مؤمنًا بالله لا حدود لإيمانه، وكان يليها في ترتيب إخوتها من حيث السِّن، لكنها كانت ترى في نفسها أُمًّا ثانيةً له، وتحبه حب الوالدة لولدها، وعلى إيمانها الديني العميق الذي لم أشهد له نظيرًا (إلا في خالتي الحاجة لطيفة — أصغر أخواتها — متعها الله بالصحة وطول العمر) فلقد كانت وفاته ضربة قاصمة لها دفعتها إلى الانزواء ولم تدع لها اهتمامًا واحدًا يربطها بدنيا الأحياء، ولم تكد تمرُّ أيام معدودة على وفاته حتى أصابتها غاشية سقطت على أثرها سقطة موجعة، وأكاد أجزم بأن السقطة كانت نفسية لا عضوية؛ إذ أجمع الأطباء على سلامتها البدنية، لكنها كانت في ظني تتمنَّى اللحاق بأخيها، وعلى امتداد شهرين كاملين حاولنا — أنا وأخواي حسن ومصطفى — أن نُعيد لها الأمل والرغبة في العيش، ولكنها كانت كأنما ترفض الحياة الدنيا، وما لبثت أن فارقتها في ٩ مارس — الشهر الذي شهد وفاة والدي قبل خمسة عشرة عامًا (وشهد مولده قبل ذلك بأكثر من سبعين سنة).

كانت وفاة والدتي صدمة كبيرة لنا — ولي شخصيًّا — مع أنها كانت قد تخطَّت الثمانين، فكأنما سقط ركن من أركان دنياي، وعندما ذهبنا إلى رشيد لدفنها في مدافن الأسرة كانت الرحلة تشبه الوداع لدنيا كاملة، أو لعالم كامل انطوت صفحته، فكنت أحس

أنني أعود معها إلى الأرض التي خرجت منها، وأن روحها أصبحت تصحبني في غُدُوِّي ورواحي، وأن دورة الحياة هنا قد اكتملت كمال النهاية، وأنها بدأت دورة أخرى تُبشر بكمال نهايات أخرى؛ ومن ثم انكببت على أوراقي القديمة أنبشها وأستخرج منها مادة هذه الحكايات، وقد غمرني — كما يقول وردزورث — الإيمان الذي ينظر إلى ما وراء فناء الجسد.

وفي غضون انشغالي «بالواحات» وحكاياتها كان شِعر وردزورث يُمثِّل النبع الصافي الذي أنهل منه، ووجدت الأبيات التي عاشت في وجداني ترنُّ بأصدائها في أعماقي كأنما ترسم لي طريقًا يتجاوز الموت، فعكفت أولًا على خاطرات الخلود أستكمل ترجمتها، وقد أرفقت النص الكامل هنا لأنَّ معنى الحكايات لا يكتمل دونها، وما إن اكتمل هذا الكتاب أو قارب الاكتمال حتى وجدتني أعيد قراءة ديوان ذلك الشاعر، فأجده يتحدَّث بلساني، وأرى في تنوع إيقاعاته وأفكاره وصوره الشعرية ما يرسم لوحات كاملة قد تغنيني عن قول المزيد؛ ومن ثم ترجمت ثماني عشرة قصيدة تتراوح طولًا وقصرًا وإحساسًا وفكرًا، وشُغلت بها شهورًا حتى اكتمل لي ديوانٌ صغيرٌ من الشعر الرومانسي المترجَم نظمًا، وكُتب له أن يُنشر قبل هذه «الحكايات»!

ومرَّت الأيام وإذ بشهر يونيو يأتيني بخبر من أخبار الدنيا، خبر فرحتُ به لكنه لم يلعب برأسي، وهو حصولي على جائزة الدولة التقديرية في الآداب، التي كانت أرفع جائزة حتى عهد قريب، قبل استحداث جائزة الدولة للتفوق (وقد حصلت عليها) وجائزة مبارك الكبرى عام ١٩٩٩م! كانت الجائزة تقول: إن الله لا يضيع أجر العاملين حتى في دار الفناء، وكنت أسمع صوت أم كلثوم وهي تُردِّد قول أحمد رامي في نشيد الجامعة «واعملوا فالله يجزي العاملين»! وكانت الجائزة تقول: إنني أصبت نجاحًا في مسعاي الذي اخترته، وأنني وفقت والحمد لله في أن أخاطب من حولي وأن أفيد بعضهم، كاتبًا ومترجمًا ومعلمًا، وأن مسيرة الحياة الحافلة قد كللت بما يؤكد جدوى الكفاح، وإن كان في ذلك التشريف تكليف باطن، وهو أن أواصل الجهد ما وسعتني الطاقة فيما بقي لي من العمر.

وتذكرت غداة حصولي على الجائزة أيام المرض اللعين الذي أقعدني شهورًا قبل عشر سنوات، وذكرت ما أبديته من إصرار على الاستمرار، غير ملتفت إلى الندوب الجسدية والنفسية التي خلفها المرض، وذكرت حب الأهل والأصدقاء ووقوفهم إلى جواري في المحنة، وحب الأغراب وتعاطفهم، فكان لسان حالي يردِّد أبيات وردزورث الأخيرة في القصيدة المشار إليها:

قد انتهى السباق وانطوى مضمار،
وفيه أحرزنا أكاليل انتصار،
والفضل للقلب الذي نحيا به؛ قلب البشر!
رِقَّتُهُ، أفراحُهُ، مخاوِفُهْ!
بل إن أدنى زهرة قد تستوي في عودها،
تُوحي بأفكار بعيد غورها،
لا يستطيع الدمع أن يَسبرها!

والآن أقدِّم النص الكامل باللغتين العربية والإنجليزية لهذه القصيدة التي أكثرتُ من الإحالة إليها — والاستشهاد بها — وسوف يلحظ القارئ أن الترجمة المنظومة يتفاوت إيقاعها فيما بين الفقرات على نحو ما بيَّنت بشأن الفقرات الخمس التي سبق إيرادها، وعذري أنني لم أكن أتعمَّد إخراج ترجمة كاملة في أول الأمر، بل كنت أترجم ما يتفق و«الموضوع» الذي أتناوله، ومن وحي النص الأصلي، فجاءت ثلاث منها من الرجز وتنويعاته، واثنتان من الخبب، وأما باقي القصيدة فمعظمه من الرجز (خمس فقرات) وفقرة واحدة من المتقارب، وقد لا يشعر القارئ بالتنوع لأن الزحافات تُقرب الإيقاعات من بعضها البعض، ولكن الواضح أن الرجز وتنويعاته (من الكامل والهزج والرمل) هو الإيقاع الأول، كما يتَّضح للقارئ أن إيقاعات النص الإنجليزي تتفاوت تفاوتًا كبيرًا من فقرة إلى فقرة، مثلما تتفاوت القوافي، وقد يكون ذلك هو الذي أوحى بتفاوت الإيقاعات العربية، وقد أوضحتُ ذلك في دراستي عن دور الحدس في ترجمة الشعر، وهي الدراسة المنشورة في الكتاب الذي سبق أن أشرت إليه؛ ألا وهو (**On Translating Arabic: A Cultural Approach**) وبعدُ؛ فهذه هي الأبيات متتالية تسهيلًا للمقارنة والمضاهاة، وقد وضعت أرقامًا في النص العربي تحيل إلى النص الأجنبي:

ODE INTIMATIONS OF IMMORTALITY FROM RECOLLECTIONS OF EARLY CHILDHOOD

The Child is father of the Man;
And I could wish my days to be
Bound each to each by natural piety.

I

There was a time when meadow, grove, and stream,
The earth, and every common sight,
To me did seem
Appareled in celestial light,
The glory and the freshness of a dream.
It is not now as it hath been of yore;
Turn wheresoe'er I may,
By night or day,
The things which I have seen I now can see no more.

II

The Rainbow comes and goes, 10
And lovely is the Rose,
The Moon doth with delight
Look round her when the heavens are bare;
Waters on a starry night
Are beautiful and fair;
The sunshine is a glorious birth;

أنشودة خاطرات الخلود المستوحاة من ذكريات عهد الطفولة الأولى

الطفل والد الرجل،
ولي من الدنيا أمل،
أن يربط الأيام حبل دائم لا ينقطع،
من كل ما توحي به هذه الطبيعة من ورع!

١

قد كنت يومًا أشهد الغدران والمروج والخمائل،
والأرض بل ومألوف المناظر،
وقد توشَّحت بنور باهر من السماء،
كأنه بعض منام ناضر عذب الرواء،
لكن ذلك انقضى،
قد كان عهدًا ومضى،
فالآن حيثما يممت وجهي،
وحيثما نظرت ليلًا أو نهارًا،
وجدت أن ما رأيته من قبل قد توارى!

٢

قوس الغمام لم يزل يأتي ويمضي ١٠،
والورد لم يفقد بهاه،
والبدر ينظر حوله في متعة،
ما إن صفا وجه سماه،
وكل مشرق جديد مولد مجيد،
وصفحة المياه إن لاحت نجوم الليل تزهو بسناه،

But yet I know, where’re I go,
That there hath past away a glory from the earth.

III

Now, while the birds thus sing a joyous song,
And while the young lambs bound 20
As to the tabor’s sound,
To me alone there came a thought of grief:
A timely utterance gave that thought relief,

And I again am strong:
The cataracts blow their trumpets from the steep;
No more shall grief of mine the season wrong;
I hear the Echoes though the mountains throng,
The Winds come to me from the fields of sleep,
And all the earth is gay;
Land and sea
Give themselves up to jollity,
And with the heart of May
Doth every Beast keep holiday; —
Thou Child of Joy,
Shout round me, let me hear thy shouts, thou happy Shepherd-boy!

لكنَّني أدري،
وحيثما يمَّمتُ وجهي،
أن مجدًا ترك الأرض وولَّى!

٣

والآن بينا تُنشِد الأطيار ألحان الفرح،
أو ترتع الحملان في دقات دف من مرح ٢٠،
أتى إليَّ دون غيري خاطر حزين،
لكن قولًا قيل في موعده أذهب الهم الدفين،
وعاد لي ما كان بي من قوة،
فكل شلال على مشارف الهوة،
ينفخ في الأبواق نشوة،
لا! لن تسيء الآن أحزاني لموسم الجمال،
إذ أسمع الأصداء في احتشادها بين الجبال،

وتُقبل الرياح نحوي من حقول ناعسة،
وكل ما في الأرض مِن طرب طروب،
الماء واليابسة ٣٠،
يلهو كما تلهو القلوب!
فنحن في قلب الربيع ويوم عطلة كل دابة،
هيا إذن طفلَ الفرح!
اصدحْ وصِحْ!
يا أيها الراعي الصغير،
هيا وأسمعني صياحك أيها الطفل السعيد!

IV

Ye blessèd Creatures, I have heard the call
Ye to each other make; I see
The heavens laugh with you in your jubilee;
My heart is at your festival,
My head hath its coronal, 40
The fullness of your bliss, I feel — I feel it all.
Oh evil day! If I were sullen
While Earth herself is adorning,
This sweet May-morning,
And the Children are culling 45
On every side,
In a thousand valleys far and wide,
Fresh flowers; while the sun shines warm,
And the Babe leaps up on his Mother's arm: —
I hear, I hear, with joy I hear! 50
— But there's a Tree, of many, one,
A single Field which I have looked upon,

Both of them speak of something that is gone:
The Pansy at my feet
Doth the same tale repeat: 55
Whither is fled the visionary gleam?
Where is it now, the glory and the dream?

٤

أيا كائنات تحفُّ بها البركات،
سمعتُ نداءاتِكم بينَكم،
رأيت السماوات تضحك في حفلكم،
وقلبي يُشارك في المهرجان،
وتَوَّجْتُ رأسي بتاج الجنان، ٤٠
وكل نعيم لديكم أحس به بل أحس به كله!
فيا شرَّ يوم يحل به الحزنُ،
والأرض تأخذ زخرفها بل وتزدانُ،
هذا الصباح البديع،
بنور الربيع،
وأطفالنا يقطفون نضير الزهور،
بشتى جوانب تلك الحقول،
وآلاف أودية شاسعة،
وتُلقي لنا الشمس دفئًا يشيع،
ويقفز هذا الرضيع،
بأحضان أمِّه،
وإني لأسمع أسمع بالفرح أسمع! ٥٠
ولكن دوحة عهد قديم بدتْ لي من بين كثرة،
وحقلًا تفرَّد بين الحقول ليَهمِس فكرة،
وكلٌّ يُحدِّث عن غارب قد قضى،
وتلك الزهيرة تَسأل عمَّا مضى:

ترى أين فرَّ شعاع الرُّؤى الغامر؟
وأين هو الآن؟ والمجدُ والحُلُمُ الباهر؟

V

Our birth is but a sleep and a forgetting:
The Soul that rises with us, our life's Star,
Hath had elsewhere its setting,
And cometh from afar:
Not in entire forgetfulness,
And not in utter nakedness,
But trailing clouds of glory do we come
From God, who is our home:
Heaven lies about us in our infancy!
Shades of the prison-house begin to close
Upon the growing Boy,
But he
Beholds the light, and whence it flows,
He sees it in his joy;
The Youth, who daily farther from the east
Must travel, still is Nature's Priest,
And by the vision splendid
Is on his way attended;
At length the Man perceives it die away,
And fade into the light of common day.

٥

ما مولد الإنسان إلا غفوةٌ،
نومٌ ونسيان،

فروحه التي قد أشرقت معه،
شمسُ حياة الإنسان،
كانت قبل بزوغها قد غربتْ،
وأقبلتْ،
من موقعٍ ناءٍ قَصيٍّ،
لكنها لم تنسَ كل شيء،
كلا ولا تجردتْ،
من كل ما عرفته من وراء،
إذ إننا نأتي وفي أذيالنا سحب البهاء،
نأتي من الله الذي هو بيتنا،
إن السماء قريبة منا نراها حولنا،
ونحن أطفال صغار،
وكلما شب الصبي،
بدأت ظلال السجن تحكم حوله طوق الحصار،
لكنه قد يشهد الأنوار،
وحيثما انسابت رأى فيها الفرح،
واليافع الذي عليه أن يُواصل الرحيلَ
كل يوم مُوليًا للشرق ظهره،
يظلُّ كاهن الطبيعة،
وحوله رؤيا السناء في طريق رحلته،
ثم تخبو هذه الرؤيا،
آخر الأمر بعين الرجلِ،
ويراها تتلاشى في نهار البشر!

VI

Earth fills her lap with pleasures of her own;
Yearnings she hath in her own natural kind,
And, even with something of a Mother's mind,

And no unworthy aim,
The homely Nurse doth all she can
To make her Foster–child, her Inmate Man,
Forget the glories he hath known,
And the imperial palace whence he came.

VII

Behold the Child among his new–born blisses,
A six year's Darling of a pigmy size!
See, where 'mid work of his own hand he lies,
Fretted by sallies of his mother's kisses,
With light upon him from his father's eyes! 90
See, at his feet, some little plan or chart,
Some fragment from his dream of human life,
Shaped by himself with newly–learned art;
A wedding or a festival,

٦

الأرض تملأ حِجرها بملاذٍّ من ملاذها،
فتلك من أشواقها،
وتنتمي لطبعها،
وبلمسةٍ من فكر عقل الأمِّ، ٨٠
ولغايةٍ قد لا تُذَمُّ،
تقوم تلك المرضعة،
حتى وإن تك ساذجة،
بفعل ما في طوقها لتجعلَ ابنها،
أي تجعل الإنسان قاطنَها،
ذاك الذي تَبَنَّتْهُ هنا،

لا يذكر المجد الذي عرفه،
والقصر الإمبراطوري بعدما غادره!

٧

انظر إلى الطفل الذي يلهو بأشكال المسرات الوليدة،
ابنًا حبيبًا لم يزل في السادسة! وحجمه ضئيل!
وانظر إليه وسط ما صنعت يداه،
تنثال عارمةً عليه (تُضايقهْ!) قبلاتُ أُمِّهْ
يغشاه نور عين والده، ٩٠
وانظر لدى قدميه خطة صغيرة أو قل خريطة،
وشذرة مِن حلمه،
عن قابل الحياة للإنسان،
أعدها بنفسه بفنه الجديد،
عن الزفاف أو عن مهرجان،

A mourning or a funeral;
And this hath now his heart,
And unto this he frames his song:
Then will he fit his tongue
To dialogues of business, love, or strife;
But it will not be long 100
Ere this be thrown aside,
And with new joy and pride
The little actor cons another part;
Filling from time to time his “humorous stage”
With all the Persons, down to palsied Age,
That life brings with her in her equipage;
As if his whole vocation
Were endless imitation.

VIII

Thou whose exterior semblance doth belie
Thy Soul’s immensity;
Thou best Philosopher, who yet dost keep
Thy heritage, thou Eye among the blind,
That, deaf and silent, read’st the eternal deep,
Haunted for ever by the eternal mind, —

عن مأتَم أو عن جنازة،
فذاك ما يشغل قلبه،
ويصوغ فيه نشيده،
وبعدها يُطوِّع اللسان،
للحوار في المتاجر،
أو الغرام والتناحر،
لكنه سرعان ما يُلقي بذاك جانبًا،
فإذ بنا نرى المُمثل الصغير،
بفرحة قشيبة بل بتفاخرْ،
يلعبُ دورًا آخرْ،
وفوق مسرحٍ يموجُ بالأخلاطْ،
في كل لحظةٍ نرى الشخوص والأنماطْ،
ممَّا يجيء به الزمنْ،
حتى إلى عهد الوهنْ،
فكأنما كانت رسالة عمره،
هي أن يُحاكي غيرَه!

٨

يا مَن يناقض ظاهرَه،
رحابة الروح لديه!
يا أفضل الفلاسفة!

مَن يحفظ التراث خير حفظِه!
عينٌ ترى والناس قد عميتْ!
بل إنه حتى وإن صَمَّ وإن صَمَتْ،
ليقرأ المكتوب في جوف الخضمِّ السرمدي،
وفيه يسكن العقلُ الأبدي!

Mighty Prophet! Seer blest!
On whom those truths do rest,
Which we are toiling all our lives to find,
In darkness lost, the darkness of the grave;
Thou, over whom thy Immortality
Broods like the Day, a Master o'er a Slave,
A Presence which is not to be put by;
Thou little Child, yet glorious in the might
Of heaven–born freedom on thy being's height,
Why with such earnest pains dost thou provoke
The years to bring the inevitable yoke,
Thus blindly with thy blessedness at strife?
Full soon thy Soul shall have her earthly freight,
And custom lie upon thee with a weight,
Heavy as frost, and deep almost as life!

IX

O joy! that in our embers
Is something that doth live,
That nature yet remembers
What was so fugitive!
The thought of our past years in me doth breed
Perpetual benediction: not indeed

يا أيها النبيُّ ذو القوة،
يا أيها العرَّاف ذو البركة،
يا مَن لديك ما نَشقى طوال عمرنا لكي نحظى به،
من الحقائق التي تضيع في الظلمة منا — ظلمة القبور!
يا مَن يُظلِّلك الخلود مثلما يظللك النهار!
يا سيدًا على العبيد!
وحضرة لا يستهين إنسان بها!
يا أيها الطفل الصغير!
يا صاحب المجد الذي يَأتيك من حريةٍ،
ميلادها السماء فوق عالي هامتك!
قل لي لماذا تبذل العناء كي تحث قابل السنين،
لتحضر المحتوم مِن نيرها؟
وهكذا تظلُّ غافلًا،
تُحارب البركات من حولك!
سرعان ما تحمل روحُك،
أحمالها الأرضية،
وتجثم العادة فوقك،
كأنها الصقيع في أثقالها،
وعمقها كأنه عمق الحياة نفسها!

٩

يا فرحُ! أيا مَن تحيا في جمر الصدر،
وتؤكد أن طبيعتنا تذكر ما مرَّ وفرَّ!
ذكر الأعوام الماضية المنسية،
يُنْبتُ في نفسي بركات أبدية،

For that which is most worthy to be blest;
Delight and liberty, the simple creed
Of Childhood, whether busy or at rest,

With new-fledged hope still fluttering in his breast: —
Not for these I raise
The song of thanks and praise;
But for those obstinate questionings
Of sense and outward things,
Fallings from us, vanishings;
Blank misgivings of a Creature
Moving about in worlds not realised,
High instincts before which our mortal Nature
Did tremble like a guilty Thing surprised:
But for those first affections,
Those shadowy recollections,
Which, be they what they may,
Are yet the fountain light of all our day,
Are yet a master light of all our seeing;
Uphold us, cherish, and have power to make
Our noisy years seem moments in the being
Of the eternal Silence: truths that wake,
To perish never;

لكني لا أرفع آيات المدح وألحان الشكر،
إلى ما هو أجدر أن يوسم بالبركة،
كالبهجة والحرية،
ديدن كل الأطفال الساذج في العمل أو الراحة،
فهما كالطائر يخفق دومًا بقشيب الريش،
في جنبات الصدر،
بل أشكر أسئلة صماء عنيدة،
مما يطرحه الحس،
أو يمثل خارج هذي النفس،

أسئلة تسَّاقط منَّا بل تتلاشى،
ومخاوف خاوية بَهْمَهْ،
بسريرة مخلوق هامَ على وجههْ،
بعوالم وهْمه!
وغرائز عليا قد واجهها الطبع الفاني،
فارتعد كرعدة قلب الجاني،
إن فاجأه إنسان!
أشكر أولى أربطة الحب،
أو ما غام بذكرى القلب، ١٥٠
أيا كانت تلك جميعًا!
إذ ما زالت نبع ضياء نهاري،
والضوء الأول في إبصاري،
نستند إليها نعتز بها ولها من فرط القوة،
ما يجعل ضوضاء سنين العمر،
تبدو لحظات بكيان الصمت السرمد!
وهي حقائق تصحو كي لا تفنى أبدًا!

Which neither listlessness, nor mad endeavor,
Nor Man nor Boy,
Nor all that is at enmity with joy, 160
Can utterly abolish or destroy!
Hence in a season of calm weather
Though inland far we be,
Our Souls have sight of that immortal sea
Which brought us hither,
Can in a moment travel thither,
And see the Children sport upon the shore,
And hear the mighty waters rolling evermore.

X

Then sing, ye Birds, sing, sing a joyous song!
And let the young Lambs bound 170
As to the tabor's sound!
We in thought will join your throng,
Ye that pipe and ye that play,
Ye that through your hearts to-day
Feel the gladness of the May!
What though the radiance which was once so bright
Be now for ever taken from my sight,
Though nothing can bring back the hour
Of splendour in the grass, of glory in the flower;

لن تفلح هَبَّات القلق ولا السعي المجنون
بل لن يفلح رجل أو بعض صبي،
أو أي عدوٍّ للفرح الطفلي، ١٦٠
في طمس معالِمها أو تدمير هياكلها يومًا ما!
وإذن في موسم صفو الجو،
مهما يكن الشطُّ بعيدًا عنا،
نجد الأرواح وقد شهدت ذاك البحر الخالد،
فلقد جئنا منه هنا،
ولنا أن نرجع في غمضة عين،
لنرى الأطفال على الشاطئ تلهو،
ولنسمع صوت الأمواه الجبارة أبدًا يعلو!

١٠

غنِّ يا أطيار إذنْ غنِّ! غنِّ أغنيةَ الفَرْحْ
ولتتواثب هذي الحُملان وتمرحْ، ١٧٠

مع دقات الدف!
فلسوف نشارككم فِكرًا في هذا الحفل،
يا مَن تعزفُ في الناي ويا مَن تلهو،
يا مَن يشعر في أعماق القلب اليوم،
بسرور ربيع يزهو،
ما ضر إذا كانت عيني قد حُرِمَتْ للأبد النور الساطع؟
ما ضر إذا كان مُحالًا أن تَرجع،
ساعة سحر بهاء الكلأ ومجد الزهر،

We will grieve not, rather find 180
Strength in what remains behind;
In the primal sympathy
Which having been must ever be;
In the soothing thoughts that spring
Out of human suffering;
In the faith that looks through death,
In years that bring the philosophic mind.

XI

And O, ye Fountains, Meadows, Hills, and Groves,
Forebode not any severing of our loves!
Yet in my heart of hearts I feel your might; 190
I only have relinquished one delight
To live beneath your more habitual sway.
I love the Brooks which down their channels fret,
Even more than when I tripped lightly as they;
The innocent brightness of a new–born Day
Is lovely yet;
The Clouds that gather round the setting sun

Do take a sober colouring from an eye
That hath kept watch o’er man’s mortality;

لن نحزن أو نبكي ما ضاع،
بل إنَّا نجد القوة فيما زال لدينا،
في رابطة الحب الأولى في أنفسنا،
إذ ما إن تولد،
حتى تخلد!
في أفكار عزاء أو سُلوان،
من نبع معاناة الإنسان،
فيما يتجاوز حد الموت من الإيمان،
في أعوام تأتي بالحكمة للأذهان!

١١

وأنت يا عيونُ يا مروجُ يا تلالُ يا خمائلْ!
لن تشهدي أي انفصام في عرى غرامنا!
فلم أزل في عمق أعماق الفؤادْ،
أحسن قوتك،
وما افتقدت إلا متعة وحيدة هنا،
هي الحياة تحت ظل سطوتك،
بل إن حبي للجداول التي تنحر في الشطآن،
يزيد عن حبي لها،
أيام كنت مثلها،
أجري بخفة المراح عندها!
ما زال صفو النور في السماء عند مولد النهار ذا سناء،
لكنَّما السحاب حول الشمس في الغروب يكتسي،
لونًا رزينًا من عيون مَن رأوا مسيرة الإنسان للفناء،

Another race hath been, and other palms are won. 200
Thanks to the human heart by which we live,
Thanks to its tenderness, its joys, and fears,
To me the meanest flower that blows can give
Thoughts that do often lie too deep for tears.

قد انتهى السباق وانطوى مضمار، ٢٠٠
وفيه أحرزنا أكاليل انتصار،
والفضل للقلب الذي نحيا به؛ قلب البشر!
رقَّتُهُ، أفراحُهُ، مخاوفُهْ!
بل إن أدنى زهرة قد تستوي في عودها،
توحي بأفكار بعيد غَورها،
لا يستطيع الدمع أن يَسبرها!

هنـــداوي